المرأة في الفلسفة 4

نساء فلاسفة

أ.د. إمام عبد الفتاح إمام

التنوير

المرأة في الفلسفة

نساء فلاسفة

الكتاب:نساء فلاسفة

المؤلف: أ.د. إمام عبد الفتاح إمام

الغلاف: مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والتجارة

الناشر: دار التنوير، للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: 00961/1/471357 فاكس: 00961/1/475905

E-mail: dar_altanweer@hotmail.com
dar_altanweer@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة ©

سنة الطبع: 2009

١٨٤٣٧
١٩١
م ٢٢٢

المرأة في الفلسفة

نساء فلاسفة

-4-

أ.د. إمام عبد الفتاح إمام
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة
جامعة الكويت

طبعة مزيدة ومنقحة

مدخل عام....

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ
قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾

(سورة النمل: الآية ٣٢)

«جنس الذكر أصلح للرئاسة من جنس الأنثى،
ومن ثم فتسلط الرجال على النساء
مسألة طبيعية جداً...!»

ارسطو

السياسة ١٣٥٩-١

مدخل عام

هذا الكتاب- وهو العدد الرابع من سلسلة «الفيلسوف.. والمرأة»- دعوة إلى المرأة العربية لتستعيد الثقة بنفسها، وتنفض عنها غبار السنين الطويلة من الجهل والتخلف. إنه دعوة لنبذ الفكرة الساذجة التي تقول «إن عقل المرأة أقل من عقل الرجل». أو أن تفكيرها يغلب عليه العاطفة والانفعال، وأن أحكامها يسيطر عليها الاندفاع والتهور، وتنقصها الرؤية والتدبر، فلا الدين يقول شيئاً من ذلك، ولا العلم يعترف به، ولا التاريخ يشهد بصحة شيء منه!.

والواقع أن هذه الفكرة الساذجة قال بها أرسطو- المعلم الأول- ثم شاعت في العالمين العربي والغربي على حد سواء، وأصبحت هي الهادي والمرشد عن النساء بصفة عامة، وأصبحت المرأة «رجلاً ناقصاً» لا دور لها في هذه الدنيا سوى الإنجاب وتربية الأولاد. وأخطر ما في نظرية أرسطو أنه يذهب إلى أن الطبيعة التي لا تفعل شيئاً باطلاً» هي التي جعلت المرأة على هذا القدر من الدونية، وليس للعادات أو التقاليد أو أفعال المجتمع- لا سيما المجتمع الذكوري- دخل في تحديد هذه الدونية [1].

والعجيب أن العالم العربي تلقف هذه النظرية الأروسطية بغبطة- لحاجة في نفسه- وراح يضفي عليها شيئاً من القداسة. وللقارئ المنصف أن يقارن بين الآية الكريمة التي صدّرنا بها هذا المدخل، والتي تشهد برجاحة عقل المرأة، وسديد رأيها، وحكمتها في تدبير شؤون

---

(١) عرضنا فكرة أرسطو بالتفصيل في كتابنا «أرسطو.. والمرأة»- العدد الثاني من هذه السلسلة- مكتبة مدبولي.

الحكم، ممثلة في صورة «بلقيس» ملكة سبأ، بعد أن جاءها كتاب سليمان الحكيم، وحوارها مع أشراف قومها- وبين عبارة أرسطو التي صدّرنا بها هذا المدخل أيضاً، ليعرف كيف يضل ضلالاً بعيداً، إن هو ذهب إلى أن الدين يؤيد فكرة أرسطو الساذجة عن دونية عقل الأنثى وعجزها عن إدارة دفة الحكم! وسوف نعود إلى هاتين الفكرتين بعد قليل.

إننا إذا أثبتنا عن طريق شواهد التاريخ أن هناك امرأة واحدة تفلسفت؟، أو برهنت على رجاحة العقل وصواب الفكر عندها، فإننا نهدم بذلك آلاف الأمثلة الإيجابية التي يقول بها أصحاب الفكرة الأروسطية المتخلفة التي تغمض العين حتى لا ترى نماذج مضيئة لنساء راجحات العقل، صائبات التفكير، سديدات الرأي على نحو ما سنرى بعد قليل.

وها نحن أولاء نعرض عليك، في هذا الكتاب، نماذج من «نساء فلاسفة» في العالم القديم، يعقبه قريباً، بإذن الله، كتاب آخر يكمله ويتممه يعرض لنماذج من «نساء.. فلاسفة» في العالم الحديث، لكن علينا قبل كل شيء أن نتفق على فكرتين هامتين هما:

أولاً: هناك قاعدة أساسية في فلسفة العلم تقول إن الظاهرة السلبية الواحدة أهم عشرات المرات من آلاف الظواهر الإيجابية، فلو أنك جمعت آلافاً مؤلفة من قطع الحديد التي تتمدد بالحرارة، ثم عثرت على قطعة واحدة لا تتمدد مهما وُضعت في النار، كانت القطعة السلبية الواحدة (التي لا تتمدد) أهم من آلاف القطع الإيجابية التي جمعتها، ذلك لأنها سوف تبطل في الحال، القانون الذي يقول: «إن الحديد يتمدد بالحرارة». وقُل مثل ذلك في «غليان الماء» أو «الطفو» أو غيرها من القوانين المعروفة، إذ يتحتم عليك في هذه الحالة أن تبحث عن قانون جديد يضم آلاف الظواهر الإيجابية مع الظاهرة السلبية التي وجدتها، وحتى ذلك الوقت سيظل «القانون»

الذي يقول «إن الحديد يتمدد بالحرارة» باطلاً! .

ثانياً: علينا أن ننتبه جيداً إلى أننا بذلك نريد أن نستبعد العبارة التي تتردد كثيراً، والتي أسيء استخدامها كثيراً أيضاً والتي تقول «إن لكل قاعدة شواذ»- فهي عبارة يرفضها التفكير العلمي السليم، فلا شذوذ في القانون، بل لا بد أن تندرج تحته جميع الظواهر التي يقوم بتفسيرها. ويبدو أن عبارة «لكل قاعدة شواذ» ابتكرها النحاة عندما عجزوا عن إدراج كلمات معينة في القاعدة اللغوية التي وضعوها فاكتفوا بهذه العبارة، لكن لا شيء من هذا القبيل يمكن أن تجده في القانون العلمي، فلا تستطيع أن تقول إن الماء يغلي في درجة حرارة ١٠٠ (طبقاً لظروف معينة معروفة) ما عدا هذه الكمية القليلة من الماء الموجودة في بيتي لأنه ماء «شاذ» ولكل قاعدة شواذها! التفكير العلمي السليم يقول لك إن القانون لا بد أن يكون كلياً أعني: ينطبق على كل جزئيات الظاهرة التي تدرسها. ومن هنا كانت أهمية الظاهرة السلبية الواحدة: لأنها تهدم صفة «الكلية أو العمومية» ومن ثم تبطل القانون وتوقف العمل به إلى أن تجد قانوناً أوسع وأشمل يضم الظواهر الايجابية والظاهرة السلبية في آن معاً.

هذا تمهيد ضروري لما ننوي أن نعرضه في هذا الكتاب، فقد جرت العادة التي أصبحت أقرب إلى البديهية الواضحة بذاتها- أن نقول: إن تاريخ الفلسفة، لا سيما الفلسفات القديمة، هو تاريخ الفلاسفة من الرجال وبالتالي: ليس من المألوف أن يكون هناك «نساء.. فلاسفة» بل قد يعجب القارئ إن لم يسخر في أعماقه من عنوان الكتاب! فبدايات الفلسفة الأولى المسجلة في بلاد اليونان في القرن السادس قبل ميلاد المسيح، في منطقة أيونيا، وفي مدينة ملطية Miletus على وجه التحديد- أنتجها قلة من الرجال هم ثلاثة : طاليس Thates (حوالي ٥٨٥ ق.م) وانكسمندر Anaximander (حوالي ٥٦٥ ق.م)، وانكسمنس (حوالي ٥٤٦ ق.م) أعضاء المدرسة الأيونية الموقرة، إذ هم الطبيعيون

الأول، ثم توالى موكب الفلاسفة من الرجال، هيراقليطس، وفيثاغورس وبارمينيدس، وزينون، وانكساجوراس، وديمقريطس.. الخ حتى نصل على العصر الذهبي للفلسفة اليونانية: عصر سقراط، وأفلاطون، وأرسطو.. ثم بعده يسير الركب حتى نصل إلى الحركة التوفيقية في القرن الثالث المسيحي.

ولو أنك استعرضت تاريخ الفلسفة الغربية، وما يرويه المؤرخون من أمثال فيندلبنت، وكونوفيشر، وكوبلستون، وإميل برييه، (بل حتى المؤرخون الفلاسفة من أمثال: هيجل وراسل .. الخ)- لوجدت أنه استعراض لأفكار الرجال ومذاهبهم، فأنت لا تجد عندهم إشارة إلى نساء فلاسفة باستثناء امرأة واحدة من الأفلاطونية المحدثة يذكرونها سريعاً- وعلى استحياء- هي: هيباشيا Hypathia فيلسوفة الإسكندرية الشهيرة التي يصعب عليهم أن يغضوا الطرف عنها، لشهرتها العريضة في تاريخ الفلسفة.

لو أنك سألت هؤلاء الرجال: لماذا لا نجد «نساء.. فلاسفة» طوال التاريخ؟ لأجابوا- في الأعم الأغلب-: لأن المرأة رقيقة، عاطفية، انفعالية، ليس لديها القدرة على التفكير المجرد، أو أن الفلسفة- في نهاية أمرها- «عقل» والنساء «ناقصات في قدراتهن العقلية» فهن لا يبلغن من الذكاء والعبقرية مبلغ الرجال[1]. وأعجب العجب أن تجد، في

---

(١) لا يجوز الاحتجاج بالآيتين الكريمتين ﴿للرجال عليهن درجةٌ﴾ (البقرة ٢٢٨) و﴿الرجال قوامون على النساء﴾ (النساء- ٣٤) فهي آيات لا تتحدث عن الرجل والمرأة بإطلاق، وإنما تتحدث عن علاقة الزوج بزوجته داخل الأسرة، وترتيب واجبات الإنفاق من ناحية، وتربية الأولاد من ناحية أخرى، حيث أن الأسرة مفهوم أخلاقي وليس مؤسسة «سياسية» ولهذا كان من الخطأ الفادح الخروج بفكرة «القوامة» من حيز الأسرة (الأخلاقي) إلى مجال الدولة (السياسي). وإذا كان من الخطأ- كما قلنا في مكان آخر- الحديث عن «ديمقراطية في الأسرة»، حيث أننا في هذه الحالة نخلط بين الأخلاق والسياسة، فإن من الخطأ أيضاً أن

بلادنا، من يرد هذه الأفكار الساذجة، والآراء الخاطئة إلى الإسلام العظيم الذي قدم لنا نماذج رائعة لنساء لا يغلب عليهم الانفعال، ولا يخضعن للعاطفة، ولا يتصف سلوكهن بالتهور! ومن هناك تأتي أهمية الآية الكريمة التي صدّرنا بها هذا المدخل على لسان «بلقيس» ملكة سبأ عندما تلقت كتاب سليمان الحكيم، فهي لا تسرع في الرد، ولا تنفعل ولا تتهور، بل تدعو عليه القوم للتشاور قبل أن تقدم على اتخاذ قرار خطير يمس المملكة بأسرها ﴿قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ (النمل- ٣٢) في الوقت الذي يصور فيه القرآن الكريم اندفاع المستشارين من الرجال وتهورهم عندما راحوا يلوحون باستخدام القوة ﴿قالوا نحن أولوا قوة، وأولوا بأس شديد، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين.. ﴾ فنبهتهم بلقيس إلى أن ﴿الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون﴾ (النمل ٣٣-٣٤).

ونحن، للأسف نترك هذه الآيات المضيئة لنأخذ بفكرة أرسطو التي تقول إن قدرات المرأة العقلية أقل من الرجل، وأنها لا تصلح للحكم، بل حتى ولا تستطيع أن تدبر شؤون الأسرة! ولهذا كان «جنس الذكر أصلح للرئاسة من جنس الأنثى». وهكذا يصبح تسلط الرجال على النساء مسألة طبيعية جداً..! ونحن نأخذ بفكرة أرسطو الوثني، ونغض الطرف عن آيات بينات تتحدث عن رجاحة عقل المرأة وسداد رأيها، وتتحدث بوضوح عن نساء أثبتن كفاءة في الحكم، ورجاحة العقل، وقدرة، وسعة أفق أكثر بكثير من عشرات الرجال. مثال ذلك: مارغرت

=

يقول سائق سيارة الوزيرة أو الفراش الذي يقف على باب المديرة أن له «القوامة» عليها! راجع ذلك د. إمام عبد الفتاح إمام «مسيرة الديمقراطية.. رؤية فلسفية» دراسة في «عالم الفكر» عدد خاص عن الديمقراطية أصدره المجلس الوطني للثقافة والفنون بدولة الكويت- العدد الحادي والعشرون عام ١٩٩٣.

تاتشر في إنكلترا الملقبة بالمرأة الحديدية، و «بي نظير بوتو» في باكستان و «أنديرا غاندي» في الهند، و «جولدا مائير» التي ذقنا المر على يديها في إسرائيل»[١].

فإذا طبقنا الفكرة التي بدأنا بها هذا المدخل، وهي القول بأن الظاهرة السلبية «الواحدة» أهم في نظر التفكير العلمي من عشرات الظواهر الايجابية، لكانت النتيجة العملية هي هدم الفكرة الشائعة عن ضعف المرأة، ونقص العقل عندها، وغلبة الانفعال والعاطفة عليها، وسيطرة التهور والاندفاع.. الخ، فتلك كلها أوهام خلقها «عقل الرجل» ويبددها الواقع الحي الذي نعيشه!.

الواقع أن الحملة التي تشن ضد «عقل المرأة»، والزعم بعدم قدرتها على التفلسف، والقول بأن تاريخ الفلسفة هو تاريخ الفلاسفة من الرجال- هذه الحملة تتغافل الدور البارز الذي تلعبه الظروف الاجتماعية والدينية.. الخ واستعباد الرجال للنساء وسيطرتهم عليهم طويلاً، وما ترتب على ذلك كله من عدم إتاحة الفرصة للنساء للتعليم، وإظهار قدراتهن العقلية.. الخ.

باختصار: هناك تغافل لدور «البيئة» في قدح القدرات وإظهارها حتى بالنسبة للرجال. وما أشبه هذه الحملة بقول الغربيين «إن العقلية الشرقية أقل من العقلية الأوروبية» متغافلين أيضاً الأثر السيء للبيئة الشرقية، وغاضين الطرف عن نماذج مضيئة من العقل الشرقي ظهرت ونبغت وأثبتت جدارة عندما واتتها الفرصة: لقد كان مجدي يعقوب- نابغة الطب في إنكلترا الآن- لا شيء في مجتمعه، ثم أصبح كل شيء في جراحة القلب، دون أن يتغير شيء سوى البيئة المحيطة بهذه العقلية الجبارة! وقل نفس الشيء بالنسبة لعالم آخر هو «فاروق الباز» الذي

---

(١) ناقشنا هذا الموضوع مناقشة مستفيضة في الخاتمة التي ختمنا بها كتابنا «أرسطو.. والمرأة» ص ١٠٩ وما بعدها- مكتبة مدبولي بالقاهرة، (العدد الثاني من سلسلة «الفيلسوف.. والمرأة»).

أصبح منارة في مجال ارتياد الفضاء، ولو أنه ظل في مصر ما سمع عنه أحد! إننا نستعذب قتل المواهب في الرجال، فما بالك بالنساء !؟.

إن القول بأن «عقل المرأة» أقل في كفاءته من عقل الرجل، وإن الأنثى ليست لديها القدرة على التفلسف، يشطر العقل البشري شطرين، أو يجعله نوعين منفصلين ومتمايزين، وهو قول ظاهر البطلان، وهو يشبه تماماً القضية التي كثيراً ما أثارها المستشرقون حول إمكانية «العقل العربي» وقدرته على التفلسف، وإنكارهم أن هناك فلاسفة مسلمين: فالكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن راشد.. الخ الخ ليسوا سوى نسخ باهتة من أفلاطون أو أرسطو، أو أنهم خلطوا بينهما، وهم في جميع الأحوال ليس لديهم القدرة على الخلق والإبداع، ومن ثم ليست لديهم فلسفة خاصة بهم!.

ولقد تصدى الأستاذ العقاد[1] لتفنيد هذه المزاعم فقال: «من شروط التجني التي لا تُحمد من العلماء أن يقال إن العقل العربي لن يستطيع التفلسف بحال من الأحوال»[2].. وهذا الرأي يروّج بين الأوروبيين بغير تمحيض ولا مناقشة: لأنه يعجبهم ويرضي غرورهم، ومصلحتهم في وقت واحد: يرضي غرورهم. لأنه يسوغ لهم استعمار الشرق واستغلاله، وهو يرد على هذا الافتراء بقوله: «الواقع أنه لا اختلاف هناك في أصل الطبيعة بين العقل الإغريقي والعقل البشري في السلالات الشرقية، وإنما الرأي السليم الذي يقبله المنطق والعلم على

---

(١) من المفارقات الغريبة أن يكون العقاد- رحمه الله- من أنصار القضية الأولى، أعني: التي تؤكد عدم قدرة المرأة على التفلسف (راجع، مثلاً، هذه الشجرة وغيرها) وبالتالي يجعل العقل البشري نوعين لا نوعاً واحداً، ومع ذلك يدافع بحرارة عن القضية الثانية مبرهناً على أن العقل البشري واحد، وليس ثمة أنواع أو درجات تميز صنفاً من البشر عن صنف آخر!!

(٢) عباس محمود العقاد «أثر العرب في الحضارة الأوروبية» دار المعارف بمصر عام ١٩٤٦ ص ٩١.

السواء أن موانع الفلسفة واحدة حيث كانت الأمة من مواقع الأرض، وكيفما كانت السلالة من عناصر الأجناس والأقوام، فالإغريق في موضع العرب لا يتفلسفون، والعرب في موضع الإغريق لا يحجمون عن الفلسفة ودراسة العلوم»[١]، فلم تكن طبيعة العقل البشري هي السبب في عدم تفلسف الشرقيين عامة، والعرب بصفة خاصة، فما هو السبب في رأي الأستاذ العقاد؟ يقول: هذه البحوث (الفلسفية) كانت مباحة عند الإغريق، لأن بلادهم نشأت وتطورت، دون أن ينشأ فيها ملك قوي أو كهانة قوية، ولو قامت عندهم الدولة القوية، والكهانة القوية، كما قامت في مصر وبابل، لكان شأنهم في أسرار الدين والمسائل الإلهية كشأن البابليين والمصريين..»[٢].

وخلاصة القضايا التي يثيرها الأستاذ العقاد هي:

١- طبيعة العقل البشري واحدة عند جميع الأجناس والأقوام، فليس ثمة عقل بشري عند فئة أو جماعة أو صنف من البشر يختلف عن فئة أو جماعة أخرى.

٢- فكرة الاختلاف والفوارق بين عقول البشر الخاطئة، روّج لها الأوروبيون لمصلحتهم الخاصة.

٣- السبب الحاسم في عدم تفلسف الشرقيين هو الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية التي مر بها الشرقيون، وأهمها- في نظره- طغيان الحاكم وسيطرة رجال الدين.

٤- هناك فكرة أخيرة يثيرها الأستاذ العقاد بعد ذلك يرد بها على قول الأوروبيين أن الشرقيين لم يبدعوا جديداً في الفلسفة.. وأن أقصى ما فعله المسلمون هو ترديد فلسفة أفلاطون أو أرسطو أوهما معاً- والعقاد في رده على هذا الافتراء يذهب إلى أن القدرة العقلية لا

---

(١) المرجع نفسه ص ٨٤.

(٢) المرجع نفسه ص ٨٥.

تعني إبداع الجديد فحسب بل تعني أيضاً «فهم» الفلسفة القائمة وشرحها وهضمها، وتمثلها كذلك، فهذا، في حد ذاته، دليل صارخ على قدرة عقلية كبيرة، فحتى لو سلمنا جدلاً بأن المسلمين اقتصروا على شرح فلسفة أفلاطون أو أرسطو فإن ذلك يعد دليلاً على قدرتهم العقلية.

وهذه النقاط الأربع تنطبق تماماً على قضية عدم تفلسف المرأة عبر التاريخ، أو أننا لا نجد «نساء.. فلاسفة»، أو أن تاريخ الفلسفة هو تاريخ الفلاسفة الرجال فحسب- فلا يجوز أن يقال إن السبب هو أن عقل الأنثى يختلف عن عقل الرجال الذي «هو بطبيعته» أعلى، وأكثر تفوقاً، وأشد ذكاء وعبقرية.. الخ، فتلك فكرة خاطئة روّج لها الرجال لأنها ترضي غرورهم، وتحقق مصلحة للرجل، بغير شك- مصلحة في إبقاء المرأة في وضع أدنى لكي تخدمه، وتعطيه الوقت اللازم ليمارس هو حياته ومهامه التي يراها سامية.. الخ: لهذا نراه يدافع بقوة عن الوضع المتدني للمرأة بل الأدهى من ذلك أن يقول بتأصيله وتنظيره ويجعل منه «فلسفة» كاملة كما فعل أرسطو. وهنا تكمن الخطورة! فأنت ترى كبار الفلاسفة كانوا أبناء عصرهم تماماً، فتراهم يلخصون في أفكار مجردة عادات مجتمعهم وتقاليده بالنسبة للمرأة، فيقدمون لنا نظريات فلسفية تنم عن كراهية متأصلة للمرأة، في الوقت الذي تجدهم فيه «ثائرين» في مجالات أخرى!.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن البيئة التي عاشت فيها المرأة طوال التاريخ، وما يشكلها من عوامل وظروف اجتماعية وسياسية، ودينية واقتصادية.. الخ، هي التي منعت المرأة من التفلسف، وليس بسبب «نقص» أو «خلل» في قدرتها العقلية! الظروف التي مرت بها المرأة هي التي مكنت الرجل من استعبادها ووضعها في زاوية منعزلة من الدار، ليطلق عليها لفظ «الحريم»، وعندما خضع الرجل لطغاة عبر التاريخ حرموا عليه التفلسف على نحو ما فعل الإمبراطور الروماني «نيرون» وغيره- اختفت الفلسفة أيضاً حتى بالنسبة للرجال، ومعنى ذلك أن

الرجل لو كان في وضع المرأة، ولو مر بهذه الظروف نفسها، لكان هو الأدنى والأقل عقلية أو العاجز عن التفلسف!.

بقيت نقطة أخيرة وهامة في حديث «العقاد»، وهي أن مجرد «فهم الفلسفة» هو وحده دليل على قدرة عقلية متقدمة. ومعنى ذلك أننا إذا وجدنا من النساء نماذج استطاعت أن تفهم الفلسفة، وأن تناقش موضوعاتها، وأن تدلي برأي في قضاياها- فذلك دليل قوي على قدرتها العقلية، حتى ولو لم تبدع لنفسها فلسفة مستقلة ! .

الواقع أنه رغم خضوع النساء الطويل للرجال، واستعبادهن وعزلهن عن الحياة العامة، ونقص فرص التعليم أمامهن، بل عدم إتاحة الفرصة على أي نحو للمشاركة في ثقافة العصر- رغم ذلك كله فإنك تستطيع أن تجد هنا وهناك نساء لامعات، لهن دور في «البحث عن الحكمة» منذ فجر الفلسفة، صحيح أنه دور صغير وبسيط، لكنه يثبت- على أية حال- قدرتهن على القيام بدور أكبر إذا ما لاحت الفرصة، وتغيرت البيئة المناوئة التي تعمل على كبت قدراتهن، وتمنعها من الظهور.

سوف نجد في هذا الكتاب عبارات منسوبة إلى النساء الفلاسفة، في العالم القديم- لا سيما قبل ظهور المسيحية- وهي عبارات قليلة وبسيطة، أو قل: شذرات متناثرة هنا وهناك، لكنها تعبر عن فكر ورأي وموقف، ومن ثم فهي ضرب من التفلسف لا يمكن أن يحتج القارئ بأنها مجرد «عبارات» قليلة وبسيطة، فهكذا كانت الفلسفة في بدايتها: لم يعرف عن طاليس- أول الفلاسفة- سوى أنه قال «الماء هو أصل الأشياء جميعاً» وأن «العالم مملوء الآلهة» وقال غيره إن أصل الأشياء هو الهواء، أو النار، أو العناصر الأربعة. الخ مجرد عبارات قليلة وبسيطة، ومع ذلك كانوا فلاسفة وأصحاب مذاهب فلسفية «طبيعية» أحياناً و «ميتافيزيقية» أحياناً أخرى و «أخلاقية» أحياناً ثالثة.

وكما أنك تجد أنه كان هناك كتب للفلاسفة من الرجال لكنها

فقدت، ولم يبق منها سوى فقرات، فسوف تجد ذلك بالضبط مع النساء الفلاسفة، فلم يبق لنا مثلاً من كتابات «إيزارا Aesara» سوى شذرات قليلة من كتابها: «عن الطبيعة البشرية.. Om Human Nature» على نحو ما سنعرف فيما بعد.

وكما أن تاريخ الفلسفة الغربية يبدأ في اليونان في القرن السادس قبل الميلاد- بالمدرسة الأيونية (طاليس ومدرسته)- فكذلك يبدأ تاريخ النساء الفلاسفة في القرن السادس قبل الميلاد بالمدرسة الفيثاغورية (وقد ولد فيثاغورس في جزيرة ساموس samos في بحر إيجه المواجهة لمدينة ملطية). فقد حظيت المرأة الفيثاغورية بفرص هامة مكنتها من القراءة والكتابة، وقبل كل شيء من التفكير والمناقشة وإعمال العقل، ووقفت على قدم المساواة مع الرجل. وكان الاعتقاد السائد عند «الجماعة الفيثاغورية» أنه على الرغم من أن طبيعة المرأة تختلف عن طبيعة الرجل، فإنها لا تقل عنه أبداً، لا من حيث القدرة، ولا من حيث القيمة.

ومن هنا، فقد كانت النساء الفيثاغوريات مثقفات، لهن اهتمامات فكرية وأدبية بارزة، وقد عشن إبان تأسيس المدرسة الفيثاغورية الأولى، وكانت ثيانو Theano زوجة فيثاغورس Pythagoras أشهرهن جميعاً. وقد قامت مع بناتها الثلاث: أريجنوت Arignote، ومييا ..Myia، ودامو Damo، برئاسة المدرسة الفيثاغورية وإدارتها بعد وفاة مؤسسها: فيثاغورس (١).

وقد توحي بعض الأسطر الأولى من الشذرات المتبقية، أن الفيثاغوريات- أول النساء الفلاسفة في التاريخ- كتبن فقط في الاقتصاد المنزلي، أو أن الموضوعات التي كتبن فيها تدور حول رعاية الطفل وتربيته، ودور المرأة في المنزل والمجتمع.. الخ، غير أن القراءة النقدية

(١) Peter Gorman: «pythagoras: Alife» Routledge & Kegan Paul 1979 , p.120.

الفاحصة والمتأنية لهذه الشذرات تجعل القارئ يخرج بنتيجة مختلفة: فهؤلاء النسوة من الفلاسفة الفيثاغورية يحللن مفهوم «الهارمونيا.. Harmonia، والتناغم أو الانسجام في محاولة لبيان الطريقة التي يمكن بها تطبيق هذا المفهوم على بنية الدولة أو إدارتها، وعلى بنية الأسرة وإدارتها، بوصفها العالم الصغير بالنسبة للدولة. فإذا كان فلاسفة الفيثاغورية من الرجال قد اتجهوا بجهودهم نحو تفسير العالم الكبير Macroscosm، تفسيراً رياضياً يجعل نسيجه «العدد والنغم» فإن فلاسفة الفيثاغورية من النساء اقتصرت جهودهن على العالم الصغير microcosm، أعني: على الفلسفة بالمعنى الواسع للفظ الذي يشمل الأسرة والدولة في آن معاً، فقد ناقش كيف يمكن للمرأة أن تطبق «مبدأ الهرمونيا» (التناغم- الانسجام) على تنشئة الأطفال، ليصبحوا في مرحلة النضج منصفين فضلاء، وأفراداً متناغمين. كما درسوا الطريقة التي يمكن للمرأة أن تطبق بها هذا المبدأ على ميادين أخرى، في مجالات منوعة من حياتها اليومية، وليس في ذلك شيء من الاقتصاد المنزلي، كما ذهب بعض الرجال الذين يريدون التهوين من شأن الدور النسائي في الفلسفة الفيثاغورية، وإنما هو دراسة وتطبيق للنظرية الأخلاقية عند الفيثاغوريين، مع إكمالها بجوانب من علم نفس النمو الأخلاقي، فضلاً عن نظرية الالتزام الأسري، وموضوعات أخرى كثيرة.

ولم تكن الفيثاغوريات في المدرسة الأولى، أو في الفيثاغورية المتأخرة، هن النساء الفلاسفة الوحيدات في العالم القديم، بل هناك كثرة كثيرة، وقد قام جيل ميناج Gilles Menage (١٦١٢-١٦٩٢)- وهو محامٍ مثقف وباحث في اللغة والكلاسيكيات في القرن السابع عشر- بدراسة النساء الفلاسفة في العالم القديم، وذهب إلى أنه اكتشف منهن خمس وستين امرأة، وقد سجل هذا الاكتشاف في كتاب جعل عنوانه «تاريخ الفلاسفة»، ونشر عام ١٩٦٠ ثم عام ١٦٩٢م [1]، وهو كتاب كان

---

(١) وضعه «ميناج» باللغة اللاتينية»، وهي لغة المثقفين في القرن السابع عشر؛

بالغ الأهمية في عصره وفي عصرنا أيضاً، لأنه يشكل إسهاما مبكراً في جانب مهمل من تاريخ الفلسفة، ومن التاريخ العقلي للمرأة بصفة عامة. ولقد أصبح نقطة انطلاق في بحوث جديدة في هذا الموضوع(١).

وليس نيتنا أن نعرض لجميع النساء الخمس والستين اللاتي درسهن «ميناج» في كتابه : فليس المهم أن نقوم «بحصر» شامل لجميع «النساء.. الفلاسفة» طوال التاريخ، بل أن نقدم نماذج نهدم بها الفكرة الساذجة الشائعة التي تقلل من قدرات المرأة العقلية، بهدف أن تستعيد المرأة العربية ثقتها بنفسها، وتعمل إلى جانب الرجل في إعادة بناء

= بعنوان: «historia Muliecrum Philosopharum» وكأن «ميناج» عضواً بارزاً في معظم الصالونات الأدبية في باريس، حتى أنه كون لنفسه حلقة أدبية سميت باسم «لقاء الأربعاء» لأن أعضاءها كانوا يلتقون يوم الأربعاء من كل أسبوع، بل واصل أصدقاءه ومحبوه وأعضاء حلقته اللقاء بعد وفاته، وجمعت أحاديثهم وصدرت تحت عنوان «ميناجيات Menagrana». ولقد نشر أيضاً معجماً لغوياً عن أصول اللغة الفرنسية في باريس ١٦٥٠ م، وملاحظات حول اللغة الفرنسية في باريس ١٦٧٢ م، وفي ميدان الفلسفة كتب شروحاً مفصلة لكتاب «ديوجنز اللايرتي: «حياة مشاهير الفلاسفة» باريس ١٦٦٣، وقال في مقدمة الكتاب إنه ظل طوال حياته يتمتع بتاريخ الفلسفة الذي كان يسميه «بتاريخ العبقرية»، وبعد ذلك كتب «تاريخ الفلاسفة من النساء» الذي نشره أولاً في ليون عام ١٦٩٠ م تكملة لكتاب ديوجنز اللايرتي سالف الذكر. وقامت بياتريس هـ . زدلر Beatrice H.zelder بترجمته من اللاتينية إلى الإنكليزية مع مقدمة وتعليقات عام ١٩٨٤ م.

(١) أصدرت ماري ألن ويث ثلاث مجلدات بعنوان «تاريخ النساء الفلاسفة»، المجلد الأول يتناول حقبة تاريخية تمتد من ٦٠٠ ق.م. حتى ٥٠٠ ق.م والثاني من ٥٠٠ م حتى ١٦٠٠ م، والثالث من ١٦٠٠ حتى ١٩٠٠م. كما أصدرت إيثيل كيرزي كتابها «نساء فلاسفة» وأصدرت ليندا ماكلستر مجلة فلسفية نسائية بعنوان «هيباشيا».. الخ الخ.

مجتمعنا، إذ لا شك عندي أنه حدثت ردّة في عالم المرأة[١] نتيجة للانغلاق الفكري في عهد الثورة المصرية.

لن نتحدث مثلاً عن المرأة التي يعتقد ديوجنز اللايرتى «أنها أول امرأة يمكن ذكرها في سياق جهود الفلسفة اليونانية، واسمها كليوبولينا Cleobulina حوالي ٦٠٠ ق.م. وهي التي وضعت بعض الألغاز الفلسفية، وربما كانت هي أم الفيلسوف طاليس الذي يشير إليه الجميع على أنه أبو الفلسفة الكسمولوجية في القرن السادس ق.م..

ويشير ديوجنز إلى كليوبولينا على أنها «أحكم امرأة»[٢]، وقد نقل عنه «ميناج» في كتابه هذه المعلومات، وإن كان يضيف أنها كانت موجودة عند «بلورتارك» في كتابه «مأدبة الحكماء السبعة». ولن نذكر هيبو Hippo ابنة خيرون الحكيم[٣] ولا «ميرو Myro، التي يطلق عليها قاموس سويداس Suidas اسم «فيلسوفة رودس».. الخ الخ[٤]، ولا عشرات غيرهن، وإنما سوف نعرض لشخصيات أكثر أهمية.

لما كانت المدرسة الفيثاغورية هي التي أفسحت المجال لتعليم المرأة ومشاركتها في الحياة العقلية والمسائل الفلسفية، فسوف ينصب الفصل الأول في هذا الكتاب على هذه المدرسة: تأسيسها، وبنيتها، وقواعدها.. الخ، لكي ندرس في الفصل الثاني بعض فلاسفة الفيثاغورية المبكرة من النساء، في حين ينصب الفصل الثالث على «النساء..

(١) انظر النماذج التي قدمها لهذه الردة، أستاذنا المرحوم د. زكي نجيب محمود في كتابه «في مفترق الطرق» في ثلاث مقالات عامة بعنوان «ردّة في عالم المرأة» ١و٢و٣ من ص ١٣٩ حتى ص ١٦٥ دار الشروق بمصر عام ١٩٨٥.

(٢) Diogenes Laertius: «Lives of Eminent philosophers» Translated by R.D Hicks, Harvard University press 1979, P.27.

(٣) G. Menages: the History of Women philosophers p,5.

(٤) Ibid.

الفلاسفة من الفيثاغورية المتأخرة». أما الفصل الرابع، فسيكون عن امرأة خصص لها أفلاطون محاورة كاملة- وهذه المرأة هي إسبازيا، معلمة البيان «التي سعى إليها سقراط، واعترف أنها هي التي وضعت الخطاب الجنائزي لبركليز.. والذي ألقاه في ذكرى شهداء أثينا في حربها مع إسبرطة». وفي الفصل الخامس ندرس «ديوتيما.. معلمة سقراط»، ونظرياتها عن الحب، وخلود النفس على نحو ما عرضها أفلاطون في محاورة «المأدبة»، ونناقش الشخصية التاريخية لهذه المرأة.

في الفصل السادس ندرس «جوليادونا.. أو جوليا الفيلسوفة» ورعايتها للفلاسفة وعلماء الرياضة والأطباء، ومنهم الاسكندر الأفروديس وجالينوس الطبيب، وفلوستراتوس الفيثاغوري.. الخ. في حين ينصب الفصل السابع على «ماكرينا.. القديسة الزاهدة». أما الفصل الثامن والأخير، فسوف تخصصه للفيلسوفة المصرية التي ذاع صيتها في العالم القديم «هيباشيا.. فيلسوفة الإسكندرية».

وإذا شعر القارئ أن النصوص قليلة للنساء الفلاسفة في العالم القديم، فعليه أن يكون على بينة أن تلك هي الحال نفسها بالنسبة للفلاسفة من الرجال في الفلسفة القديمة، وأن سقراط نفسه لم يكتب حرفاً واحداً، وأننا عرفنا آراءه وأفكاره مما يقوله تلميذه أفلاطون بصفة خاصة. لكن ذلك لا يعني أننا لن نجد طوال التاريخ مؤلفات لنساء فلاسفة، فعندما تتاح الفرصة للمرأة سوف تكتب وتترك آثاراً فلسفية خالدة: على نحو ما نجد، مثلاً، عند سوزان ستبنج Susan Stebbing (١٨٨٥-١٩٤٣) الفيلسوفة وعالمة المنطق الإنكليزية، أو سوزان لانجر Susan Langer (١٨٩٥- ١٩٨٥) فيلسوفة الجمال وعالمة المنطق الأميركية، أو سيمون دى بوفوار Simone de Bea voir (١٩٠٨-١٩٨٦) الفيلسوفة الوجودية الفرنسية التي كتبت عن «الجنس الآخر»، وكتبت عن «الأخلاق»، كما كتبت عن الشيخوخة»، فضلاً عن الروايات، تماماً كما فعل سارتر. ومن الألمان حنه أرندت Hannah Arendt (١٩٠٦-١٩٧٥) الفيلسوفة الألمانية الأصل التي هربت من النازية إلى الولايات

المتحدة، وأصبحت مناظرة سياسية، فقد كتبت عن «أصول الحكم الشمولي» كما كتبت «عن الثورة» كما كتبت عن العنف، وعن الحرية، وعن حياة العقل .. الخ. وعشرات غيرهن.

إنني لآمل، بهذا الكتاب، أن يعيد القارئ النظر في الآراء الساذجة التي تنشر في مجتمعنا عن المرأة، كما آمل أن أكون قد قدمت ما يساعد المرأة العربية على أن تستيقظ من جديد، وأن تواصل عطاءها السابق قبل الثورة.

والله نسأل أن يهدينا جميعاً سبيل الرشاد

الكويت في يناير ١٩٩٦ — إمام عبد الفتاح إمام

الفصل الأول

«فيثاغورس .. ومدرسته»

(من واجب المرء أن يكون صادقاً بغير قسم..!)

فيثاغورس

أولاً: نبذة عن فيثاغورس

لما كانت المدرسة الفيثاغورية هي أول مدرسة في التاريخ أفسحت المجال للنساء للالتحاق بها، كما كانت بالتالي أول مدرسة نبغت فيها النساء، وظهر فيها «نساء.. فلاسفة»- فإن علينا أن نخصص لها الفصل الأول في محاولة للتعرف على فيثاغورس، والجماعة الفيثاغورية: نظامها، وفلسفتها.. إلخ.

يقول ديوجينز اللايرتي.. Diogenes Laertius نقلاً عن أرستيوس القوريناني في كتابة عن «الأطباء»: «إن فياغورس اكتسب اسمه لأنه «نطق بالحق» كشخص معصوم من الخطأ، كما تفعل عرافة دلفي المسماة- Pythian»[١]. ويقول ول ديورانت في هذا المعنى: «إن معنى كلمة فيثاغورس هو «الناطق الفيثى» بلسان مهبط الوحي في دلفي. وكان كثير من أتباعه يقولون عنه إنه هو أبوللو ونفسه»[٢]. ويزعم البعض أنه ابن مواطن له منزلته المرموقة، وهو منسارخوس Mnesarchos، في حين زعم آخرون أنه ابن الإله أبوللو. وسأترك للقارئ حرية الاختيار بين هذين البديلين، على حد تعبير راسل[٣]. وتقول الروايات المتواترة

(١) Diogenes Laertius: Lives of Eminent philosophers Vol. II Translated by R.D. Hicks. Harvard University press 1979, p.339.

(٢) ول ديورانت «قصة الحضارة» المجلد السادس. ترجمة محمد بدران ص ٢٩٣.

(٣) ب. راسل «تاريخ الفلسفة الغربية» الجزء الأول، ترجمة. د. زكي نجيب محمود، ص ٦١، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

أنه ولد في جزيرة ساموس.. Samos في بحر إيجة المواجهة لمدينة ملطية وازدهر شأنه نحو عام ٥٣٢ قبل الميلاد، تعزو إليه هذه الروايات أنه صرف ثلاثين عاماً في الأسفار. ويقول عنه هيراقليطس: «إن فيثاغورس كان أكثر الباحثين مثابرة..»(١) ويبدو أن هيراقليطس يشير هنا إلى كثرة أسفاره. ذلك أنه ولد أثناء حكم بوليقراطس polycrates طاغية ساموس، وأنه لهذا السبب هجر موطنه فراراً من الطاغية، فذهب أولاً الى ملطية حيث لقي «طاليس» و «انكمسندر»، واخذ عنهما العلم. كما ذهب إلى سيروس Syors- إحدى جزر بحر إيجة أيضاً- ليتعلم من فيلسوفها فيريكيدس.. pherekydes. وعن هؤلاء المعلمين الثلاثة تلقى فيثاغورس أول يقظة علمية وعقلية، وكان شاباً صغير السن عندما شرب من حكمتهم!(٢) ويروى ديوجينز اللايرتي أن الفيلسوف فيريكيدس كان يعيش في جزيرة ديلويس (وليس في سيروس) عندما ذهب إليه فيثاغورس، حيث يقول، كان فيثاغورس تلميذاً للحكيم فيريكيدس حكيم ديلوس Delos»(٣) ويبدو أنه ذهب إلى جزيرة ديلوس باعتبارها المكان المقدس لمولد الإله أبوللو(٤)، ولعل هذا هو السبب في أن هذا الإله أصبح الرمز الأعلى للفكر الديني الفيثاغورس، كما أن هذه الجزيرة كانت المركز الثقافي الديني لأيونيا.(٥)

---

(١) شذرة رقم ١٧.

(٢) Peter Gorman : Pythagoras : A Lif P.24.

(٣) Diogenes Laertius: Op. Cit. Vol. 2 P. 32.

(٤) أبوللو Apollo أحد آلهة الأولمبي الأثنى عشر في أساطير اليونان، وهو ابن كبير الإلهة زيوس Zeus والربة ليتو Leto. وقد أخرج «زيوس» جزيرة ديلوس Delos من أعماق البحر خصيصاً لتكون محلاً لميلاد د. أبوللو. وتقول الأسطورة إنه تحدث فور ولادته.. الخ». طالع قصته بالتفصيل في «معجم ديانات وأساطير العالم» د. إمام عبد الفتاح إمام، المجلد الأول، ص ١٠١ وما بعدها الناشر مكتبة مدبولي بالقاهرة.

(٥) peter Gorman: Pythagoras: A Life. Routledge & Kegan Paul . 1979, P.15.

ثم زار فينيقيا، ومنها توجه إلى مصر حيث أقام اثنتي عشر سنة فيما يروي يامبليخوس.. Lamblichus[1] وفي مصر رفض كهنة هليوبوليس قبوله ليكون تلميذاً يتلقى العلم على أيديهم. كذلك رفضه كهنة «ممفيسس» بل رفضوا استقبال أحد «البرابرة»[2] ليكون ضمن طلبتهم أو ليتعلم أسرارهم، ونصحوه أن يتجه شمالاً. وهكذا ظل فيثاغورس يتنقل بين المدن المصرية حتى وافق الكهنة عام ٥٣٥ ق.م. أن يكون تلميذاً على شرط أن يخضع لبعض الاختبارات- طبقاً لما يرويه فرفريوس- وإن كنا لا نعلم عن طبيعة هذه الاختبارات سوى أنها «طرق غريبة على الطرق الهلينية» وسوف يقوم بتطبيق اختبارات مماثلة في مدرسته بعد ذلك، ولقد كان على فيثاغورس أن يحلق شعر رأسه حتى يسمح له بدخول المعابد المصرية، كما كان عليه أن يراعي المحرمات المصرية، فمثلاً، هناك عدد من الحيوانات والطيور مقدس عند المصريين، ومن ثم يحرم ذبحه أو أكله، كذلك كان الكهنة المصريون يمتنعون عن أكل الفول لا نيئاً ولا مطبوخاً (لأنه عسير الهضم!) وربما نلمح هنا أصل المحرمات الشهيرة عند فيثاغورس[3]، كما كان الصمت والسرية من

(١) يقول بطرس جورمان «إنني أعتقد أن فيثاغورس مكث في مصر عشر سنوات فحسب، وليس اثنتي عشر سنة كما يروي يامبليخوس فقد وصل إليها عام ٥٣٥ ق.م. عندما كان في الثلاثين من عمره. وظل بها حتى عام ٥٢٥ ق.م. عندما غزا قمبيز ملك الفرس مصر فغادرها فيثاغورس مع الفرس سجيناً، وقد قضى هذه السنوات العشر في المعابد المصرية تعلم فيها الهندسة والملك والطقوس الدينية، راجع كتابه السالف ص ٤٣.

(٢) لفظ «البرابرة» هنا كان يعني- على الأرجح- الأمم الأخرى غير المصرية، وكان مستخدماً أيضاً عند اليونانيين ليصفوا به كل من ليس يونانياً.

(٣) يذكر براتراند راسل في كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية» بعض القواعد التي جاءت في مذهب فيثاغورس الديني على النحو التالي: -

١- أن تمتنع عن أكل الفول.

٢- ألا تلتقط ما قد سقط.

٣- ألا تمس ديكا أبيض.

=

خصال الكهنة المصريين أيضاً.[١]

ويروى فرفوريوس أن فيثاغورس تعلم اللغة المصرية القديمة حتى تمكن من قراءة كتبهم المقدسة، وأنه كان يشارك في الأسرار والطقوس التي تقام في المعابد المصرية.

ويبدو أن فيثاغورس تعلم أيضاً أشياء كثيرة على يد كهنة المجوس في فارس، ولا سيما التطهر من أدران الحياة السابقة، والطريقة التي يظل بها الحكيم طاهراً غير ملوث، كما أنه استمع إلى محاضرات عن الطبيعة تفحص المبادرة الميتافيزيقية للكون.

كما أنه عرف أشياء كثيرة عن الشر، وأنه لا يوجد شر مطلق، بل هو خير على نحو ما: لأنه يشكل انسجاماً جمالياً. وإن كان الشر في الكون مزعجاً، فإن السبب أنه يلوث النفس، ويصيبها بالمرض. كما زار «أبراج الصمت» الزرادشتية، ووقف على مغزاها[٢].

٤- ألا تكسر الخبز.
٥- ألا تخطو من فوق حاجز.
٦- ألا تحرك النار بالحديد.
٧- ألا تأكل من رغيف كامل.
٨- ألا تنزع الزهر من إكليل.
٩- ألا تجلس على مكيال.
١٠- ألا تأكل قلباً.
١١- ألا تمشي في الطرق العامة.
١٢- ألا تسمح للعصافير أن تبني أعشاشاً في دارك.

(١) P. Gorman: Pythagoras, P. 60.

(٢) طريقة في الديانة الزرداشتية للتخلص من جثث الموتى التي كانت تحرق في الديانة الهندوسية وتحنط عند المصريين القدماء. أما في الديانة الزرادشتية في فارس فقد كانت جثث الموتى تعرض فوق «أبراج الصمت» لتلتهمها الطيور الجارحة حتى تتجنب تلوث الأرض بالدفن أو تلوث الهواء بالإحراق، راجع «معجم ديانات وأساطير العالم» د. إمام عبد الفتاح إمام، المجلد الأول، ص ٢٧٣- مكتبة مدبولي بالقاهرة.

ثانياً: إنشاء المدرسة

لا يروي لنا كتاب السير القدماء كيف أسترد فيثاغورس حريته من الأسر الفارسي «فيامبليخوس» يقول إنه كان «رهينة ولم يكن بالضرورة عبداً، أو أنه كان سجين حرب (أي عبد مؤقت) يستطيع أن يفك أسره. وأن يشتري حريته في أي وقت. وقد يكون فيثاغورس قد فعل ذلك. أو ربما مارس تأثيره الكارزمي Gharisma. ويبدو أنهم يفضلون التفسير الأخير[1].

عاد فيثاغورس إلى جزيرة ساموس- على اختلاف بين المؤرخين حول تاريخ العودة، وإن اتفقوا أن عودته كانت فيما بين ٥٢١ ق.م. و ٥٢٩ ق.م. وأنه كان في ذلك الوقت في الأربعين من عمره (ويرى البعض أنه عاد في الخمسين أو في السادسة والخمسين من عمره!)[2]- ولم يلبث أن ترك ساموس وذهب إلى ديلوس وكريت، وأخيراً استقر في كروتون Croton في جنوب إيطاليا حيث افتتح مدرسته.[3]

وعلى الرغم من أن أفلاطون كان يرغب في إنشاء مدينة فاضلة تجمع حكاماً من الرجال والنساء على حد سواء، فإنها لم تتحقق، ولم تخرج قط إلى حيز الوجود رغم محاولاته المتكررة. ومغامراته الثلاث التي قام بها في سبيل تنفيذ هذا الحلم عند ديونسيوس طاغية سيراقوصة

---

(١) P. Gorman: Pythagoras, P. 69.

(٢) د. أحمد فؤاد الأهواني «فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط»، عيسى البابي الحلبي عام ١٩٥٣- ص ٧٢.

(٣) المرجع السابق في نفس الصفحة.

الابن ثم الأب[1] وظلت الأكاديمية الأفلاطونية مقصورة على الخاصة من التلاميذ فحسب. ثم حاول أفلوطين (٢٠٤-٢٧٠م) بعد ذلك أن ينشئ في عهد الإمبراطور الروماني جالينوس Gallienus (إمبراطور روما من ٢٥٣- ٢٦٨ م) مدينة فيثاغورية للفلاسفة، لكن الحكومة الرومانية عارضت تحقيق هذا الحلم، كما أن مجلس الشيوخ المحافظ رفض هذه الفكرة، فاكتفى أفلوطين بإنشاء مدرسة كانت تستقبل النساء أيضاً.

ومن هنا كانت المدرسة التي أنشأها فيثاغورس في كروتون بجنوب إيطاليا هي أول مدرسة باستقبال المرأة وتعليمها، مع اعترافه بوجود فروق خاصة بين الجنسين، نظراً للاختلاف الطبيعي بينهما، ومن هنا فقد كان يعلم المرأة الفلسفة والآداب، كما كان يعلمها تدبير المنزل، والأمومة حتى اشتهرت المرأة الفيثاغورية في الزمن القديم بأنها أفضل نساء الإغريق، ولما كانت المدرسة تستقبل الرجال والنساء على السواء، من جميع الطبقات- فقد كانت لهذا السبب أشبه ما تكون بالمجتمع المثالي.[2]

لقد كان للمدرسة الفيثاغورية نظام من الأخوة، كأنها دير أو معبد، فجميع الطلبة يرتدون زياً واحداً هو الملابس البيضاء، ويعيشون معيشة واحدة هي حياة الزهد والتقشف والبساطة، ولا ينتعلون- في الأعم الأغلب- بل يمشون حفاة الأقدام على نحو ما كان يؤثر عن سقراط الذي كان متأثراً- فيما يبدو- بتعاليم الفيثاغورية تأثراً شديداً على نحو ما يتضح في محاورة «فيدون» ولا يحلفون بالآلهة «لأن من واجب المرء أن يكون صادقاً بغير قسم»، كما كانوا يحاسبون أنفسهم في نهاية اليوم على ما فعلوه طوال النهار، فيسأل كل واحد منهم نفسه عن الشر الذي

---

(١) راجع القضية بالتفصيل في كتابنا: «الطاغية» ص ٨٩ وما بعدها. وكذلك «أفلاطون والمرأة» العدد الأول من سلسلة: «الفيلسوف.. والمرأة» مكتبة مدبولي بالقاهرة.

(٢) Peter Gorman: Pythagoras, p. 70.

ارتكبه، والخير الذي قدمه، والواجب الذي أهمل في أدائه.

ولم يكن التعليم كتابة، بل: سماعاً، وتلقيناً، ومشافهة من الأستاذ إلى التلاميذ، ولم يؤثر عن فيثاغورس أنه ألف كتاباً. وكانت تعاليم المدرسة سرية يعاقب من يفشيها بالطرد، ولهذا التزم الأعضاء بالسرية التزاماً دقيقاً، إلى حد أن أسرارهم لم تعرف إلا في عصر سقراط وأفلاطون، عندما كتب فيلولاوس Philolaus الفيلسوف الفيثاغوري في القرن الخامس قبل الميلاد كتاباً من ثلاثة أجزاء- تحت إلحاح الحاجة إلى المال فيما يقال- واشتراه منه «ديون»، حاكم سراقوصة استجابة لنصيحة أفلاطون. كما كان «الصمت» من آداب المدرسة، حتى لقد ذهبوا على أن التلميذ الجديد مطالب بالصمت خمس سنوات، ويريدون بذلك قبول التعاليم بغير أسئلة أو جدال.

غير أن ذلك كله ليس سوى فكرة عامة عن مدرسة فيثاغورس التي جمعت- لأول مرة- بين الرجال والنساء في معهد واحد، وأعطت المرأة قدراً قليلاً من الفرص لكي تظهر قدرتها العقلية وسط ما يسمى بالجماعة الفيثاغورية، فما هي هذه الجماعة؟ وما بنيتها وقواعدها؟.

٢)

ثالثاً: الجماعة الفيثاغورية

استقر فيثاغورس في كروتون Croton- بعد الأسر الفارسي- وهي مستعمرة يونانية في جنوب إيطاليا، ومركز تجاري هام، وميناء للتجارة الخارجية. وربما انتشرت فيها الديانة الأورفية لهذا السبب[1].

وإن كانت الحياة الدينية فيها أكثر جموداً من المدن اليونانية، إذ لم يسمعوا قط عن المذهب العقلي عند فلاسفة أيونيا، ولكن سرعان ما أصلح لهم فيثاغورس هذا النقص.[2]

ولقد ثار جدال طويل بين الباحثين حول الجماعة التي أسسها فيثاغورس في جنوب إيطاليا عندما وصل إلى كرتون. واختلفوا في صفة هذه الجماعة: أكانت جماعة سياسية؟ وهل اشتغل فيثاغورس بالسياسة؟ لكن الواقع هو أنه يصعب القول بأن الجماعة الفيثاغورية كانت منظمة

---

(١) الديانة الأورفية Orphism ديانة يونانية قديمة تنسب إلى Orpheus، وهو شاعر وموسيقار- ابن ألإله أبوللو وكاليوبي- في الأساطير اليونانية. كان عازفاً ملهماً تطرب الآلهة والناس، والحيوانات- حتى الوحوش الضارية- والأشجار والصخور- من أنغام قيثارته، ثم أصبحت الأورفية ديانة تذهب إلى أن الروح جوهر إلهي، وأنها لا تبلغ درجات حياتها الحقيقية، إلا بعد وفاة الجسد. كما ذهب إلىَ أن الأرواح تتناسخ، متخذة أشكالاً أدنى أو أعلى تبعاً لأعمال صاحبها في الدنيا.. والأورفية تزدري الجسد، وتمجد الحياة الآخرة، وتحث على النقاء الأخلاقي، مركزة على مسؤولية الفرد عن الإثم. وقد تأثر بها فيثاغورس في كثير من أفكاره، ونقل عنه أفلاطون.

(٢) P. Pythagoras, P. 86.

سياسية، وإنما هي بالأحرى جماعة صوفية فلسفية على غرار النحلة الأورفية التي انتشرت في اليونان وايطاليا. وربما كانت هناك بعض النتائج السياسية لتعاليم الفيثاغورية على أعضاء الجماعة، لكنها نتائج غير مقصودة، فهي لم تسع قط إلى حكم كروتون أو أية مدينة إيطالية أخرى، ومع ذلك كله فقد ظل فيثاغورس بعيداً تماماً عن الانخراط في مجال السياسة(١).

يقول «يامبليخوس»: «إن فيثاغورس أسس جماعته بعد وصوله إلى كروتون مباشرة».. فقد كانت مدينة كروتون أول مكان ظفر فيه فيثاغورس بعدد من التلاميذ، وتخبرنا وقائع التاريخ أنهم كانوا أكثر من ستمائة تلميذ شاركوا حياة واحدة طبقاً لتعاليمه. وكان هؤلاء التلاميذ فلاسفة، كما كان هناك مستمعون آخرون يطلق عليهم اسم Acousmatics (٢).

ولا شك أن هذا الوصف ينطوي على كثير من المبالغة، فليس من المعقول أن يؤسس فيثاغورس جماعته فيتوافد عليه التلاميذ في الحال، لدرجة أن يظفر بعدة مئات منهم، فضلاً عن عدة آلاف من المستمعين(٣).

وإن كان مما لا شك فيه أن خطبه وأحاديثه كانت ذات تأثير قوي، لما يتمتع به فيثاغورس من شخصية كارزمية charismatic (٤).

---

(١) Ibid, P. 113.

(٢) Ibid , p.114.

(٣) يروى يامبليخوس في كتابه « حياة فيثاغورس «De Vita Pythagoras أن أكثر من ألفين من أهالي كروتون استمعوا إلى حديثه فسحرهم حتى أنهم رفضوا العودة إلى منازلهم، بل بقوا مع زوجاتهم وأولادهم في مدرسة فيثاغورس!

(٤) بطرس جورمان: فيثاغورس ص ١١٥. والكارزمية مصطلح استعاره ماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) من الكتاب المقدس، حيث كان يعني

والجماعة الفيثاغورية- على نحو ما وصفها يامبليخوس- هي جماعة دينية وفلسفية وليست منظمة سياسية. ومن هنا كانت لها قوانينها وقواعدها الخاصة كما لو كانت «دولة داخل الدولة»، إذ ينفصل أعضاؤها عن بقية سكان كروتون. والمصطلح الذي استخدم في وصف هذه الجماعة هو «هوماكيون Homikoeion» أي: المكان الذي يجتمع فيه الناس جنباً إلى جنب ليستمعوا إلى آراء فيثاغورس الذي كان منذ البداية قائداً لهذه الجماعة.

وليس ثمة شك في أن فيثاغورس كان منذ البداية رأس هذه الجماعة، وأن أعضاءها كانوا أتباعا له وتلاميذ لفلسفته، وأنهم كانوا يضفون عليه صفة القداسة التي يعودون بها أحياناً إلى الإله أبوللو نفسه.

ويبدو أن فيثاغورس كان يقوم بتدريس ديانة فلسفية، تعتمد في بعض جوانبها على عبادة الإله أبوللو. وربما كان ذلك هو السبب في أن «كروتون» سَكَّتْ عُمْلَةً نُقش عليها اسم الإله أبوللو. ولا بد أن نتذكر أن الإله الراعي لهذه المدينة هو «هرقل» كما أشار فيثاغورس في خطبته إلى الشباب[1].

ولقد ازدهرت هذه الجماعة في حياة فيثاغورس، لكنها تطورت أيضاً بعد وفاته. والواقع أنك لن تجد مدرسة فلسفية في العالم القديم انتشرت بالسرعة والقوة التي انتشرت بها الفيثاغورية، والتغيرات والتعديلات في النظريات الأصلية اندمجت في جسد المعتقدات الفيثاغورية نتيجة لأنها تتكيف مع روح فيثاغورس الحاضرة دوماً. وفي النهاية تشعبت التطورات واختلفت. أو قل ضاعت «الهرموني»

=

«عطية» أو «موهبة» ليعني به القدرة التي يتمتع بها شخص ما تمكنه من التأثير في الآخرين إلى الحد الذي يجعله في مركز سلطة، بحيث يمنحه الواقعون تحت تأثيره حقوقاً تسلطية عليهم.

(١) خطبة طويلة ذكرها اوفيد في مسخ الكائنات- وانظر ترجمة د.ثروت عكاشة ص ٣٢٢ وما بعدها- الهيئة المصرية العامة للكتاب- عام ١٩٨٤.

Hormonia» القديمة في سلسلة من المنازعات والانشقاق داخل الجماعة. وأدت فلسفة العدد إلى نتائج مختلفة، حتى أفشى بعض الأعضاء أسرار الأستاذ وكونوا حركات خاصة بهم: فظهر ما نسميه بالفيثاغورية المتأخرة التي كان على رأسها الفيلسوف الفيثاغوري فيلولاوس، ثم ظهرت بعد ذلك مرة أخرى في مدينة الإسكندرية .. الخ.

رابعاً: بناء الجماعة وقواعدها

علينا الآن أن نفحص بنية الجماعة والقواعد التي كانت تحكمها. لقد كان النظام في الجماعة الفيثاغورية نظاماً هيراركياً تصاعدياً يقف على قمته فيثاغورس نفسه، ثم يسير سفلاً إلى القاعدة، وهو ينقسم إلى قسمين متمايزين: الفلاسفة كانوا قلة- قليلة في عددهم إذا ما قورنوا بالمستمعين. وأغلب الظن أنهم كانوا يمثلون الشباب القادر على دراسة رياضيات فيثاغورس، أما المستمعون فقد كان من بينهم الشيوخ وعائلاتهم. ولم يكن القبول في المدرسة مقتصراً على الرجال، بل كان يشمل أيضاً عدداً كبيراً من النساء، ومن هنا كان من التسميات الخاطئة أن يقال عن الجماعة الفيثاغورية أنها كانت جماعة من «الإخوان»- أي الرجال الإخوان- فقد كان الفيثاغوريون- وتطويراتها من الفيثاغورية المحدثة حتى الأفلاطونية المحدثة- هي الفرقة الفلسفية الوحيدة التي أخرجت للعالم نساء فلاسفة ذائعات، ابتداءً من ثيامو Theano زوجة فيثاغورس وبناتها الثلاث: أريجنوت Arignote، وميا.. Myia، ودامو.. Damo، اللاتي قمن برئاسة المدرسة الفيثاغورية بعد وفاة مؤسسها، حتى هيباشيا Hypathia، فيلسوفة الإسكندرية الشهيرة على نحو ما سنعرف فيما بعد. والفيثاغورية كانت المدرسة الفلسفية الوحيدة التي سمحت للنساء، على هذا النحو، بالالتحاق بها، والمشاركة في حياتها، وإعطائهن فرص التعليم.. الخ، مما جعل باحثاً مثل إ. ليفي.. I. Levy يسعى في كتابه «بحوث حول مصادر أسطورة فيثاغورس» إلى المقارنة بين أتباع فيثاغورس من النساء وأتباع المسيح ولا سيما النساء الثلاث المسميات باسم مريم[1].

---

(١) راجع كتاب بطرس جورمان السالف ص ١٢٠- وأيضاً كتابنا «الفيلسوف =

يقول يامبليخوس حول تقسيم الجماعة الفيثاغورية:

«.. دعني الآن أخبرك كيف كان فيثاغورس يقسم أعضاء الجماعة بعد أن تم اختيارهم لجدارتهم (وبعد اجتيازهم الاختبارات المطلوبة): لم يكن من المناسب في رأيه أن يشترك أعضاء الجماعة بالتساوي في نفس الأمور، ولا حتى أن يشاركوا في جميع الأفكار ذات المكانة السامية، بينما يترك آخرون تماماً، لأن ذلك لن يكون عدلاً ولا إنصافاً. ولا حياة جماعية. أما توزيع حصة مناسبة من النظريات الأساسية على كل عضو، فإن ذلك يفيد الجميع بقدر المستطاع. كما أنه يمكّنه من أن يستخدم الوسيلة العادلة، ويمنح كل عضو التعاليم التي هو أهل لها. ومسايرة لهذا الخط من التفكير، نراه يطلق على بعض الأعضاء اسم «الفيثاغوريين على الأصالة». ويعتقد أن هؤلاء ينبغي أن يشاركوا في كل شيء على المشاع، وأن يعيشوا حياة فيها قدر من الشيوعة طوال الوقت. أما الآخرون فقد سمح لهم بملكية خاصة، وأن يأتوا «في نفس المكان للاجتماع بعضهم مع بعض».[(١)]

وفضلاً عن ذلك، فقد كان فيثاغورس يطلق على «الفيثاغوريين الحقيقيين» من الرجال والنساء اسم: «المنتظمين» أما الأعضاء الآخرون فيطلق عليهم اسم «المستمعين» الفريق الأول يعيش حياة جماعية، ولا يملكون أشياء خاصة بل الملكية مشاع فيما بينهم، في حين أن الفريق الثاني من حقه أن يملك ملكية خاصة (وتلك هي جذور الفكرة التي سيعرضها أفلاطون في الجمهورية فيما بعد)[(٢)]- الفريق الأول يعيش

=

المسيحي.. والمرأة» وهو العدد الثالث من هذه السلسلة (مكتبة مدبولي بالقاهرة) ولا سيما الصفحات من ٤٣ حتى ٤٨.

(١) يامبليخوس «حياة فيثاغورس» ص ٤٦ (نقلاً عن بطرس جورمان في كتابه سالف الذكر ص ١٢٠- ١٢١).

(٢) راجع كتابنا «أفلاطون.. والمرأة» العدد الأول من هذه السلسلة- مكتبة مدبولي بالقاهرة- ص ٥٩ وما بعدها.

داخل المدرسة، والفريق الثاني يملك بيوتاً خاصة يذهبون إليها بعد انتهاء المحضرات (وكان المستمعون يشكلون الغالبية العظمى من الأتباع). وهكذا كان هناك فريقان أو قسمان واضحان منذ البداية في المدرسة الفيثاغورية، ثم ظهرت بعد ذلك فئات أخرى، فقد كان بعض أتباع فيثاغورس يكرسون وقتهم للفكر النظري، وكان كل عضو يلقب بلقب «المهيب» أو «الجليل» في حين كان البعض الآخر يشغل وقته بدراسه شؤون البشر.

«أما الفريق الأول (الذي يهتم بالفكر النظري) فقد كان يشغل نفسه بالرياضيات والهندسة. والفلك، ولهذا السبب أطلق عليه اسم «المنتظمين»، ولقد كان من هذا الفريق أعضاء هم تلامذة مباشرين لفيثاغورس كان يطلق عليهم لقب الفيثاغوريين.. الخ»[1].

وربما كانت هذه التقسيمات مقتبسة من مراحل تالية في تطور الجماعة: إذ لا شك أن تسمية تلاميذ فيثاغورس باسم الفيثاغوريين مسألة تنتمي إلى مرحلة متأخرة من تطور الجماعة بعد وفاة فيثاغورس، وتولى تلاميذه شؤون المدرسة، وقل نفس الشيء بالنسبة للفيثاغوريين السياسيين الذين اهتموا بشؤون البشر، فقد ظهرت هذه التسمية عندما بدأ الفيثاغوريون يهتمون بالسياسة. في حين أن «الوقورين» أو «المبجلين» كانوا هم قادة الجماعة في الحلقة الداخلية. فقد كانت هناك حلقة داخلية من المقربين الذين يسمح لهم أن يكونوا خلف الستار، بحيث يمكن أن يروا فيثاغورس وأن يستمعوا إليه. إذ يبدو أن فيثاغورس كان يختفي وراء ستار عندما كان يلقي دروسه على المستمعين، والمبتدأين، والأعضاء الجدد، ولم يكن مسموحاً لهم برؤيته رؤية مباشرة. أما أعضاء الحلقة الداخلية، فهم وحدهم الذين يسمح لهم برؤيته وسماعه. وعندما يجتاز المبتدئ جميع الاختبارات التي تفرض عليه يسمح له أن يجلس خلف الستار، ويصف يامبليخوس هذه

(١) p. Gorman: Pythagoras ... p. 120.

الاختبارات، وعملية الترسيم[١]، على النحو التالي:

«... لما كان فيثاغورس ينشغل، على هذا النحو، بتعليم تلاميذه، فإنه لم يكن يسمح للشباب بالالتحاق المباشر بالجماعة الفيثاغورية إلا بعد اجتياز عدد من الاختبارات»[٢]. ثم يصدر حكمه على مستواهم بعد ذلك. وكان السؤال الأول الذي يوجه إليهم هو: ما هي الطريقة التي سوف ترتبطون بها بوالديكم، وبأقاربكم؟؟! ثم يراقبهم أثناء الإجابة عن أسئلته: هل يضحكون في وقت لا يناسب الضحك، أم أنهم كانوا طوال الوقت هادئين ساكنين؟ هل يكثرون من الكلام؟ ثم ماذا عن الثرثرة والهذر؟[٣].

ثم يسألهم فيثاغورس عن أصدقائهم، وماذا يفعلون معهم في أوقات فراغهم؟ وماذا يفعلون: ما مسعاهم طوال النهار؟ ما هي الأمور التي تدخل على قلبهم السرور أو الحزن؟!

وهو- أثناء ذلك كله- يراقب مظهرهم، وحركاتهم وسكناتهم، وهيئة الجسم، وطريقة المشي، وجميع الإيماءات.. وهو يحكم على خلق الشاب من ملامح وجهه، ويفسر خصائصه النفسية غير المرئية من صفاته الخارجية التي يلاحظها.

وكل من يجتاز هذا الاختبار يظل تحت المراقبة ثلاث سنوات، لاختبار اتزانه واستقراره، ورصانته وحبه للعلم، ثم ليعرف: هل هذا المبتدئ لديه استعداد للانصراف عن الدنيا والزهد في الأمور الحسية، ومنها المجد الدنيوي؟! ثم هو يفرض على المبتدئ الصمت خمس سنوات، ليرى مدى قدرته على التحكم في نفسه، وضبط سلوكه،

---

(١) الترسيم initiation: الاحتفال بدخول عضو في سلك جماعة دينية عن طريق تأدية طقوس معينة.

(٢) ربما اقتبس هذه الطريقة مما كان يفعله الكهنة المصريون، ولقد سبق أن ذكرنا أنهم اشترطوا أن يمر ببعض الاختبارات حتى يقبل تلميذاً لديهم.

(٣) P. Gorman: Pythagoras. P. 122.

والسيطرة على تصرفاته، فقد كان فيثاغورس يعتقد أن ضبط اللسان أشد صعوبة من جميع الأنواع الأخرى لضبط النفس. وخلال هذه الفترة يقوم أتباع فيثاغورس بتحديد واجبات المبتدئ. وبعد هذه السنوات الخمس من الصمت، فأن المبتدئ يدخل ضمن الحلقة الداخلية.

والطريف أن فيثاغورس كان يحكم على المبتدئين من خلال الاختبارات التي يجريها عليهم، بغض النظر عن نبالة المولد أو وضع الأسرة في المجتمع، ومن ثم يخطئ من الكتاب والباحثين من يذهب إلى أن الجماعة الفيثاغورية كانت أرستقراطية. كما يخطئ من يظن أنها كانت جماعة من «الأخوة» أو «الإخوان» دون أن يضيف إليها الأخوات أيضاً.

لقد كانت مهمة الاختبارات أن تجعل السالك أو المبتدئ، يتكيف مع أخلاق فيثاغورس، فالمشهور أن للجماعة قواعد صارمة منها، «السرية» و «الكتمان» و «الخفاء» و «الصمت» و «الامتناع عن الضحك»، و«الكف عن الصخب والضجيج» و «ممارسة ضبط النفس».
كما أنه ينبغي ألا يراه أحد وهو يمارس الجنس، أو وهو يقوم بوظائفه الطبيعية، أو حين يلبي نداء الطبيعة. ومن الواضح أن فيثاغورس كان يريد أن يخلق في تلاميذه «الإنسان الأعلى» أو أن يجعلهم في مستوى أعلى من الطبيعة البشرية المألوفة. فالصمت لمدة خمس سنوات (ونحن لا نعرف هل كان صمتاً تاماً وشاملاً، أم أنه كان استرخاء من القواعد) كانت له أهمية خاصة، لأنه مران للسالكين على ممارسة الاحتفاظ بنظريات المعلم سرية وفي كتمان، وعدم البوح بها لأحد مهما علا شأنه.

لقد كانت فلسفة فيثاغورس ذات مسحة دينية سرية كما لاحظ مؤرخ الفيثاغورية «يامبليخوس»، ويتجلى ذلك في التنبيه على أعضاء الجماعة بعد إفشاء أسرار تعاليم فيثاغورس. ولقد كانت الجماعة، من هذه الزاوية، على النقيض من المنظمات السياسية التي كان مبرر وجودها يكمن في الدعاية والإعلان عن أفكارها وانتشار الآراء التي

تدعو إليها. غير أن الفيثاغورية في هذا «الصمت» تخالف حتى الديانات العلنية التي تعظ الناس وترشدهم بأفكارهم وآرائها علانية. اللهم إلا إذا قلنا إن «الصمت» يرجع إلى أن كثير من النظريات الفيثاغورية كانت ذات طابع ثوري، وأن الغالبية العظمى من الناس لن يستطيعوا فهمها. ومن ثم فإن إذاعتها وإعلانها للجميع سوف يجلب متاعب سياسية، واجتماعية، وهو ما حرصت الجماعة على تجنبه(١).

وما أن يدخل العضو الجديد سلك الجماعة، حتى يكون عليه مراعاة قواعدها وقوانينها، وربما كانت القاعدة التي تثير مشكلات للعضو الجديد هي «المشايعة»، ولا سيما بالنسبة لأعضاء الحلقة الداخلية، إذ لا يجوز لهم أن يملكوا شيئاً، فقد كان فيثاغورس يعتقد أن الملكية أو المقتنيات الخاصة تعوق الفكر النظري والتأمل العقلي للحقائق الإلهية، ولا تجعل ذهن الفيلسوف «صافياً» نقياً، بل قد تزرع الشقاق بين الأعضاء(٢).

سوف نعرض بعد قليل ليوم في حياة عضو الجماعة الفيثاغورية. وإن كانت معظم أوقاتهم مكرسة، بصفة عام، للدراسة النظرية، فأساس فلسفة فيثاغورس هو «الرياضيات»، ومعظمها ليست رياضيات تطبيقية، بل نظريات رياضية، ومن هنا اهتموا بدراسة خصائص العدد. فقد أصبح العدد واحد Monas رمزاً للثبات والدوام في الكون. ومن الواحد يأتي كل شيء طيب في هذا العالم، لأن الواحد هو أصل الأعداد الفردية. أما العدد اثنان Dyad فهو رمز للنقص في الكون: فالعالم لا بد له من تناغم الأضداد، فلا يمكن أن نفسره بوجود الخير وحده، أعني «الواحد» بل لا بد من وجود عنصر الشر الذي يقاوم نشاط الخير. ويقال إن فيثاغورس

---

(١) P.Gorman : Pythagoras, P.124.

(٢) قارن ذلك بما يقوله أفلاطون المتأثر بالفيثاغورية «شهوة التملك الجامحة هي أصل كل بلايا الدول والأفراد» الجمهوري ٢٧٣. وانظر أيضاً كتابنا «أفلاطون.. والمرأة» ص ٦٥ مكتبة مدبولي.

استمد هذه الثنائية الكونية من ثنائية المجوس. ويقول أرسطو أن الفيثاغوريين- لهذا السبب- وضعوا قائمة من الأضداد عددها عشرة أضداد على النحو التالي:

١- المحدود- واللامحدود.
٢- الفرد- الزوج.
٣- الواحد- الكثير.
٤- اليمين- الشمال.
٥- الذكر- الأنثى.
٦- السكون- الحركة.
٧- المستقيم- المتعرج.
٨- النور- الظلمة.
٩- الخير- والشر.
١٠- المربع- المستطيل.

والملاحظ أنها عشرة أضداد، وأن العدد عشرة هو أكمل الأعداد[١].

ونتيجة لدراسة الفيثاغورية لخصائص العدد أن أصبح العدد ٤ رمزاً للعدالة، والعدد ٦ رمزاً للزواج.. إلخ[٢].

وعلينا أن نلاحظ، في النهاية، أن الحلقة الداخلية عند الفيثاغوريين تشبه طبقة الحراس عند أفلاطون، معه فارق واحد هو أن الفيثاغوريين لم يكن لهم دور في السياسة، وحراس أفلاطون يهبطون من برجهم العاجي، لكي يطبقوا نظرياتهم في الحياة السياسية والاجتماعية، وهذا ما لم تفعله الفيثاغورية الأولى- أي المبكرة.

ومع ذلك، فلم يكن الفيثاغوريون مثل رهبان العصور الوسطى، فقد تزوجوا، وكانت هناك عناصر نسائية كثيرة في الجماعة، ولم يكرسوا

---

(١) Peter Gorman: Pythagoras, P. 141.
(٢) Ibid, P. 127.

حياتهم للصلاة، بل للبحث الفلسفي. وأفضل نموذج للفيثاغورية هو ما قام به أفلاطون في القرن الثالث الميلادي، عندما جمع في روما حلقة من أتباعه على غرار «الجماعة الفيثاغورية الشيوعية». وهكذا عاش أفلوطين وسط المدينة العاصمة في ظروف غريبة، فهو يعيش في بيوت الآخرين، ويتناول طعامهم. ومن حسن الحظ أنه كان نباتياً، فلم يأكل إلا أقل القليل، لكنه كان يرى أطفالهم!.

خامساً: يوم في حياة الفيثاغوري

كان فيثاغورس هو قائد الجماعة، فهو الذي يوجه سلوكها. ويضع لها الخطط، كما كان على جميع الأعضاء أن يمتثلوا لأوامره وتعليماته. فكيف أعد لهم فيثاغورس يومهم؟!

«تستيقظ الجماعة عند الفجر، ويقوم كل عضو، بمفرده. بجولة في أماكن تكون هادئة أو ساكنة بطبيعتها، أعني يلفها الصمت التام، وذلك بأن يسير مثلا حول المعابد، أو يتجول في الأيكات المقدسة، والسبب أنه لا ينبغي عليه أن يقابل أحداً في الصباح الباكر، أو الالتقاء بالناس، إلا عندما يتهيأ ذهنه لذلك، فسكون الفجر وهدوء الأماكن المتطرفة تنسجم مع الحالة الذهنية الجيدة، في حين أن الانخراط في دنيا الناس، والانغماس وسط الجماهير بعد اليقظة مباشرة، إنما يكون مزعجاً للنفس. ولهذا فمن الأفضل للفيثاغوري باستمرار أن يختار في هذا الوقت المبكر من الصباح الأماكن المقدسة التي يمنع فيها الضجيج والصخب، ويستحب الهدوء والصمت وينتهزون هذه الفرصة لتثبيت دعائم الفضائل الأخلاقية.

يعود العضو الفيثاغوري من هذه الجولة الصباحية التي اعتنى فيها بالنفس ليقوم بالعناية بالجسد، فبعضهم يقوم بمسح جسمه بالزيت ويجري قليلاً، في حين يقوم البعض الآخر بألعاب المصارعة في حديقة المدرسة، بينما يقوم البعض الثالث بالقفز.. الخ. وهم بصفة عامة يمارسون التمرينات الرياضية التي تقوى البدن.

بعد ذلك يتناول العضو طعام الإفطار المكون من الخبز والعسل، ويحرم عليه تناول النبيذ أثناء النهار. وبعد الإفطار يكرس وقته لدراسة المسائل الاقتصادية والسياسية.

ثم يقوم الأعضاء بجولات المشي، لكن في جماعات هذه المرة، وليس فرادى على نحو ما كانت نزهات الفجر! فالجماعة الصغيرة قد تتألف من عضوين أو ثلاثة، وهم يستعيدون دروسهم ويستذكرونها أثناء المشي.

بعد عودتهم من جولة المشي الجماعية يستحمون، ويلتقون بعد الاستحمام في غرف ضيقة- لا تتسع الغرفة الواحدة لأكثر من عشرة أشخاص- بهدف الدراسة، حتى يتم دعوتهم للمشاركة في الوجبة العامة، وجبة الغذاء، فيقومون أولاً بحرق البخور وتقديم القرابين إلى الآلهة من الحيوانات، ثم يذهبون لتناول طعام الغذاء- وعليهم أن ينتهوا منه قبل غروب الشمس- ولهم أن يتناولوا النبيذ، وفطيرة من الشعير والنباتات الطازجة والمطبوخة، وهم قليلاً جداً ما يأكلون السمك، ثم يسكبون الخمر تكريماً للآلهة. ويأتي بعد ذلك موعد القراءة، وقد جرت العادة أن يقوم أصغر عضو بالقراءة، أما أكبر الأعضاء فهو الذي يختار الموضوع الذي ينبغي قراءته والطريقة التي تتم بها هذه القراءة.

وعندما يأتي موعد رحيل الأعضاء إلى بيوتهم، فإن أكبر أعضاء الجماعة يتلو العبارة الآتية، وهي أشبه بالتعليمات والتحذيرات:

«عليك ألا تؤذى أحداً، ولا تقتلع نباتاً مزروعاً، ولا تخرب شجرة من أشجار الفاكهة، ولا تؤذي حيواناً لا يكون هو نفسه مؤذياً للبشر.

وفضلاً عن ذلك فإن عليك احترام الآلهة، وأن تتخذ منهم موقفاً نبيلاً، وكذلك لا بد أن يكون هذا هو موقفك تجاه الأبطال، ومن الوالدين والمحسنين، كما أنه ينبغي عليك مساعدة القانون، ومحاربة الخارجين عليه»[1].

وبعد أن تتلى هذه العبارة، يذهب كل عضو إلى بيته وهو يرتدى الملابس البيضاء النظيفة الطاهرة (ويبدو أن هذا الزي هو ما كان يرتديه الكهنة المصريون). أما في منازلهم فلا بد أن تكون لهم أسرة بيضاء

(١) P., Gorman: Pythagoras. P. 129.

نظيفة، ويكون فراشها من التيل: إذ لا يسمح لهم باستخدام الصوف[١].

هذا هو وصف المؤرخ الفيثاغوري يامبليخوس ليوم في حياة العضو الفيثاغوري، لكن يبدو أن هذا الوصف ينطبق على فئة المستمعين دون طبقة الفلاسفة في الجماعة الفيثاغورية، لأن طبقة الفلاسفة لا يأكلون اللحم ولا يشربون الخمر، وليس عليهم استذكار دروسهم، كما أنهم يعيشون معاً داخل المدرسة الفيثاغورية، على خلاف المستمعين الذين يجتمعون أثناء النهار، ثم يعودون إلى بيوتهم أثناء الليل[٢].

ولهذا كان من الصواب أن نقول إن الوصف السابق ليوم في حياة العضو الفيثاغوري إنما يقتصر على المستمعين فقط دون الفلاسفة الذين كانوا يعيشون حياة فكرية وروحية أفضل من ذلك. ويقومون بالنزهات الفردية ليتأملوا ما أنجزوه من أعمال في اليوم السابق، وليتدبروا نظريات المعلم، وربما التقوا بعد ذلك لمناقشة تعاليم فيثاغورس، ولتناول طعام الإفطار من العسل والخبز (لأن فيثاغورس كان مغرماً بالعسل) كما كانت التمرينات الرياضية جانباً هاماً من برنامجهم اليومي، كما كانوا يتناولون الطعام في صالات فسيحة، وهي فكرة اقتبسها فيثاغورس من الاسبرطيين والكريتيين، وبدلاً من تقديم القرابين من الحيوانات يبدوا أن الفلاسفة كانوا يقتصرون على البخور الذي كان فيثاغورس مغرماً به أيضاً فيستخدمه كوسيلة- كما يقول فرفريوس- للوحي والتنبؤ. وكانت الوجبة الرئيسية لهؤلاء الفلاسفة نباتية، فلا يسمح حتى بلحوم الضحايا والقرابين. وبعد انتهاء اليوم يظل الأعضاء في المدرسة، حيث يكون كل شيء بينهم مشتركاً، ومن ثم فإن الوصف السابق هو وصف لطبقة المستمعين، وربما أنطبق أيضاً، مع تصحيح بعض التفصيلات الدقيقة، على المنتظمين[٣].

---

(١) Ibid.

(٢) Ibid.

(٣) P. Gorman : Pythagoras. P.130.

خاتمة

بعد هذه الجولة العامة في المدرسة الفيثاغورية، لا بد لنا أن ننتبه جيداً إلى ما يأتي:

١- كل ما سبق أن ذكرناه عن «العضو» الفيثاغوري ينطبق على الرجال والنساء معاً.

٢- تشير المصادر القديمة إلى أن النساء كن نشطات للغاية في المدرسة الفيثاغورية، وقد لعبن دوراً أساسياً في تطور الفيثاغورية الأولى.

٣- يشير ديوجينز الايرتي في كتابه «عن حياة مشاهير الفلاسفة» إلى تأثر فيثاغورس ببعض الشخصيات النسائية. فضلاً عن تأثره بالمدرسة الأيونية، ثم بالمصريين والفرس على نحو ما سبق أن ذكرنا بالتفصيل- يقول في ذلك:-

«يؤكد أرستونكسوس Aristonexus أن فيثاغورس قد استمد الجزء الأكبر من نظرياته في الأخذ من ثمستوكليا The mistoclea [١] التي كانت تعمل كاهنة للإله أبوللو في دلفي..[٢]

وسوف نتبين في الفصل القادم دور النساء الفيثاغوريات في المرحلة الأولى أو المبكرة، ثم ندرس في الفصل الثالث نساء الفيثاغورية المتأخرة.

---

(١) يعتقد ديوجينز اللايرتي في كتابه، وسويداس في قاموسه، أنها شقيقة فيثاغورس.

(٢) Diogenes Laertius: Lives of Eminent Philospher. Trans by R.D. Hicks Vol. II. P. 327- Loeb Classical Library 1925.

الفصل الثاني

نساء.. فلاسفة من الفيثاغورية المبكرة

- ثيانو.. Theano
- أريجنوت.. Arignote
- ميا.. Myia

(لأن تكوني فوق ظهر حصان جامح،
خير لك من أن تكوني امرأة لا تفكر..!)

ثيانو .. Theano

تمهيد

سوف نعرض في هذا الفصل لثلاثة من النساء الفلاسفة من الفيثاغورية المبكرة أو الأولى أو الأصلية التي ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد وهي:-

- ثيانو.. Theano
- أريجنوت.. Arignote
- ميا.. Myia

حاولت الأولى أن تفسر عبارة فيثاغورس «العالم عدد ونغم» التي أساء العالم اليوناني فهمها، حتى ذهبوا إلى القول بأنها تعني خلق الأشياء المادية من الأعداد! وهو قول ظاهر البطلان في رأيها، لأن فيثاغورس كان يعني أن الأشياء خلقت على غرار الأعداد، ومن ثم اهتمت بتصور «المحاكاة» الذي سيهتم به أفلاطون أيضاً فيما بعد.

أما الثانية «أريجنوت» فقد حاولت دراسة طبيعة العدد، أو الماهية الأزلية للعدد التي هي العلة الأولى لما يوجد في الأرض والسماء وما بينهما. لكن العدد هنا لا يعني سوى الهرمونيا أو الانسجام بين الأشياء، أو قل العلاقات أو النسب الرياضية بين الأشياء، فهي التي تمكننا من التمييز بين الأشياء والتفرقة بينها، ومن ثم كان «العد» أو «الإحصاء»!.

أما الثالثة «ميا» فقد حاولت تطبيق الهرمونيا نفسها في عالم الأسرة ولا سيما في تربية الطفل، وهي الفكرة التي لخصتها في تصور «الاعتدال» أو «الوسط»، فرأت أننا في تربيتنا للطفل ينبغي أن نراعي الوسط في كل شيء في مأكله، وملبسه، وفي درجات الحرارة.. الخ،

وهـذا واضـح مـن رسـالتها إلـى «فيـتس» التـي تسـودها نغمـة قويـة مـن الاعتـدال العملـي، وكأنهـا تسـتبق فكـرة أرسـطو الشـهيرة فـي ميـدان الأخلاق، والتي سميت بالوسط الذهبي أو القاعدة الذهبية التي تقول: خير الأمور الوسـط Nothing too much فلا إفراط ولا تفريط، أو أن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين». وكانت «ميا» تشرح فكرتها في بساطة، وتطبقها على مثال عملي حي هو كيفية العناية بالوليد الجديد.

أولاً: ثيانو Theano

(حوالي ٥٠٠ ق.م)

أول فيلسوفة فيثاغورية نعرض لها هي «ثيانو» التي التحقت بمدرسة فيثاغورس طالبة تدرس الفلسفة مع زميلاتها وزملائها ثم، أصبحت زوجة للمعلم، كما أصبحت هي نفسها معلمة في المدرسة ومديرة لها بعد وفاة زوجها المفاجئ أثر حريق شب في بيت أبنتها مييا Myia.

كانت ثيانو ابنة «برونتينوس Brontinus، وهو أرستقراطي أورفي من مدينة «كروتون» وهبت نفسها لدراسة الفلسفة الفيثاغورية وشرحها والتعليق عليها. ويبدو أنها كتبت شيئاً عن «التقوى» لم يبق منه سوى شذرات قليلة. ولقد عالجت في هذا الكتاب التطورات الميتافيزيقية عن «المحاكاة» و «المشاركة»، وهي الأفكار التي أصبحت بالغة الأهمية بعد ذلك عند أفلاطون- ولقد ترجمت فيكى هاربر Vicki Harper النص المتبقي على النحو التالي :

«بلغني أن كثيراً من اليونانيين يعتقدون أن فيثاغورس ذهب إلى أن كل شيء (في العالم) نشأ من العدد. غير أن مثل هذا القول يثير مشكلة هو على النحو التالي: كيف يمكن للأعداد التي لا توجد (على نحو حسي) أن ينشأ عنها شيء ما..؟ غير أن فيثاغورس لم يقل أبداً إن الأشياء (الحسية) نشأت عن الأعداد، أو إنها مصنوعة من العدد، وإنما ذهب إلى أن الأشياء صنعت وفقاً للعدد، على اعتبار أن النظام بمعناه الأولي إنما يوجد في العدد، وأنه عن طريق المشاركة في الأعداد فإن الأشياء التي ظهرت أولاً ثم ظهرت ثانياً وما تلاها- قد تعينت بأنها

يمكن أن تعد..»[١]

ومن الواضح أن «ثيانو» في هذا النص تحاول أن تشرح فكرة فيثاغورس التي تقول: «إن العالم عدد» فهي لا تعني أن الأشياء خرجت من الأعداد، على نحو ما خرج العالم من الماء عند طاليس- فذلك يثير صعوبة بل مشكلة حادة وهي صلة الأعداد بالأشياء الحسية، فهل تقوم هذه الصلة على أساس المحاكاة itationim، أم أن الأشياء متحدة مع الأعداد، أم أنها مباطنة لها؟!

وإذا كان أغلب المفسرين قد رجّحوا أن تكون الصلة بين الأشياء الحسية والأعداد هي صلة المحاكاة فهي أسبق من صلة الاتحاد أو المباطنة «فإنهم قد استندوا في ذلك إلى ما تقوله ثيانو Theano زوجة فيثاغورس التي ينسب لها رسالة ذكرت فيها أن الإغريق قد رووا عن فيثاغورس أنه قال إن الأشياء مصنوعة من الأعداد، في حين إن ما قاله هو أن الأشياء مصنوعة وفقاً للأعداد[٢] أو على غرار الأعداد فحسب.

وتواصل «ثيانو» شرح الفكرة نفسها بقولها: «عندما تسأل عن طبيعة الشيء ففي استطاعتنا أن نجيب إما بتخطيط رسم يشبه الشيء أو بتعريف هذا الشيء». ولقد أراد فيثاغورس، بعبارته السابقة، أن يعبر- في رأي ثيانو- عن التشابه بين الأشياء والأعداد. وهذا هو التصور الميتافيزيقي للمحاكاة أو «التشابه»، فالأشياء «تشبه» أو «تحاكي» الأعداد. والشيء يشارك فيما يوجد في العالم من نظام وتناغم أو «هارمونيا»، فإنه سواء أكان مادياً أم غير مادي، يمكن أن يتعاقب في ترتيب ونظام مع غيره من الأشياء الأخرى، ويمكن أن نعده. وإذا كان من الممكن عد الأشياء أو إحصاؤها طبقاً للعدد «فإن المعنى الأول

---

(١) Quited by: Mary Ellen Waithe: A History of Woman Philosophers. Vol. I.

(٢) د. أميرة حلمي مطر، «الفلسفة عند اليونان»، دار الثقافة بالقاهرة، عام ١٩٨٦، ص ٧٢.

لذلك هو أنها منظمة، وأنها تشارك في النظام العام الموجود في الكون».

ويبدو أن أرسطو لم يكن يعلم شيئاً عن النصوص التي اكتشفت عن «ثيانو» زوجة فيثاغورس: لأنه يقول عن الفيثاغوريين إنهم: «ركبوا الأجسام الطبيعية من الأعداد، فالأشياء الثقيلة والخفيفة قد خرجت من أشياء لا هي خفيفة ولا ثقيلة..»(١).

ولو أننا قرأنا بدقة شروح «ثيانو» وتفسيراتها للأفكار الأساسية في الفلسفة الفيثاغورية، لتبين لنا بوضوح أن ما تقصده هذه المدرسة لم يكن القول بأن الأشياء المادية أو الفيزيقية قد نشأت أو خرجت إلى الوجود من الأعداد ذاتها، لأن الأعداد- في نهاية الأمر- ليست مادية، بل إن العدد هو بالأحرى الذي يمكننا من التمييز بين شيء وآخر، وعن طريق إحصاء الأشياء أولاً، وثانياً، وثالثاً.. الخ، فإننا نستطيع أن نزعم أننا قادرون على تحديد الجوانب الثابتة في الشيء، فهو يبدأ هنا وينتهي هناك، وبين البداية والنهاية يوجد موضوع واحد، وهكذا نجد أننا عندما نحصي الأشياء فإننا نصفها ونحدد معالمها كذلك. وفي استطاعتنا ان نقول عن شيء ما إنه موضوع، لأن من الممكن عده(٢).

غير أن «ثيانو» لم تقتصر على شرح وتفسير الفلسفة الفيثاغورية وموقفها من الرياضيات والعالم، بل هناك أيضاً عبارات تنسب إليها تتعلق بنظريتين معروفتين عن الفيثاغورية:

- الأولى: خلود الروح.
- الثانية: تناسخ الأرواح.

تذهب «ثيانو» إلى أن الفيثاغوريين يؤمنون بوجود «عدالة إلهية» في الحياة الأخرى، كما يؤمنون «بتناسخ الروح» بعد الموت في جسد جديد قد لا يكون بالضرورة جسداً بشرياً.

---

(١) Mary E. Waithe: Op.cit. P.13.

(٢) Ibid.

وهذه الأقوال تعطينا صورة مبسطة لعملية التناسخ التي يستعيد الكون بواسطتها «الهرمونيا» أو التناغم الذي فقده. عندما يقوم الفرد بإفساد هذا التناغم بعصيانه للقانون الخلقي طوال حياته.

وهكذا تقوم «ثيانو» بالربط بين الأخلاق على نحو ما تظهر في عالم الإنسان، والكسمولوجيا وما فيها من نظام- والأساس في هذا الربط هو التأكيد على خلود الروح. وتقول ثيانو:

«ما لم تكن الروح خالدة فسوف تكون الحياة مجرد وليمة لمرتكبي الشر، أولئك الذين يموتون بعد أن يكونوا قد عاشوا حياة جائرة غير شريفة..»[١]

وترى ثيانو أن كل شيء في الكون منظم ومرتب، فلكل شيء مكانه المحدد، ودوره المرسوم، ووظيفته التي يقوم بها طبقاً لقانون ما، في كون «متناغم» تسوده «الهرمونيا» وتحكمه قوانين الطبيعة، والمنطق وقوانين الأخلاق والدين، أما الشر أو الأفعال اللاأخلاقية فهي تعارض هذه القوانين، وهي تسبب اضطراباً وشقاقاً في العالم.

وعند ثيانو «أننا لو قلنا إن الروح ليست خالدة، ولو أنها كانت تفنى بفناء الجسد، لكان معنى ذلك أن أولئك الذين يتسببون في الاضطرابات، ويفسدون النظام بسوء سلوكهم أثناء حياتهم. لا يعاقبون على ما ارتكبوه، بل يجنون ثمار رحلة مجانية في حياتهم، لكنهم أيضاً يمزقون نظام الكون. ولو أننا اردنا استعادة «الهرومونيا» أو التناغم بين الأشياء، والتوازن بين ظواهر الكون، فلا بد من البرهنة على خلود الروح، فليست المسألة أخلاقية فحسب، بل كسمولوجية أيضاً، أننا نستطيع أن نستعيد النظام و «الهرمونيا» لو تم آنذاك توقيع العقاب على العاصي للقانون الخلقي، أو الآثم في حق غيره، أو الشخص اللاأخلاقي عموماً. والعقاب هنا يعني أن يولد من جديد لكي لا تتقمص روحه أو

---

(١) Quoted by: Mary E waithe. Op. cot p. 14.

تتجسد هذه المرة في جسد بشري، بل تتناسخ في موجود أدنى من الموجودات البشرية كالحيوان مثلاً، وهكذا يكون عليه أن يعيش في الحياة الأخرى عيشة دنيا كما يقضي قانون الأخلاق.(١)

وفضلاً عن ذلك فهناك عبارات أخرى بقيت لنا من أقوال ثيانو تكشف عن موقف الفيثاغوريين من المرأة يمكن أن نوجزها في النقاط الآتية(٢):

١- إن النشاط الجنسي للمرأة ينبغي أن يقتصر على إمتاع الزوج، ومن ثم فلا ينبغي أن يكون لها عشاق آخرون.
٢- ينبغي ألا تتحد العفة والفضيلة- أثناء الزواج- مع التقشف أو الإمساك عن ممارسة الجنس، فهذا تأويل خاطئ للعفة.
٣- ذات يوم سألت امرأة فيثاغورية المعلمة «ثيانو»: كم يوماً لا بد أن يعقب المعاشرة الجنسية للمرأة حتى تعود «طاهرة» مرة أخرى؟! أجابت ثيانو : إذا ما كانت المعاشرة الجنسية مع زوجها فهي تظل «طاهرة» على الدوام، لكن إذا مارست الجنس مع شخص آخر فإنها لا تعود طاهرة أبداً.
٤- وذات يوم سألتها امرأة أخرى: ما هي الواجبات المفروضة على المرأة المتزوجة ؟!

   أجابت ثيانو: «إمتاع زوجها، وإسعاده».
٥- تذهب « ثيانو» إلى أن الحب الرومانسي ليس شيئاً آخر سوى «الميل الطبيعي لنفس خالية جوفاء».

والواقع أن عبارات «ثيانو» الأخلاقية، وأقوالها عن فضائل الزوجة وعلاقتها بزوجها- ربما فهمت على نحو أفضل على ضوء أقوال: «نساء.. فلاسفة» من الفيثاغورية المتأخرة، أمثال: فينتس Phintys، وثيانو

---

(١) M.E. Waithe: Op. cit. p.13.

(٢) Ibid.p.14.

الثانية، وبركتيوني Perictione، وإيزارا اللوكانية.. الخ، فمن كتاباتهن يتبين لنا أن النظريات الفيثاغورية قد طبقت على الحياة العائلية والشخصية. فإذا كانت الفضيلة المناسبة للمرأة هي العفة، فإن عليها تقع مسؤولية دعم القانون، وتأكيد العدالة، وتحقيق الهرمونيا (أو التناغم) داخل المنزل وبين أعضاء الأسرة، وطبقاً لما تقوله إيزارا اللوكانية، فإن المنزل هو العالم الصغير.. Microcosm بالنسبة للدولة، ومن ثم فإن المرأة تتحمل مسؤولية هائلة لخلق الظروف المواتية التي تحقق الهرمونيا، والنظام والتآلف والقانون، والعدالة في الدولة. ولا شك أن المرأة التي لا تعي جيداً هذه الحقيقة، فإنها تشارك في الفوضى والاضطرابات والشقاق وإحداث العناء Chaos في الكون.

يكفي أن نختتم هذا القسم بعبارة توجهها «ثيانو» إلى المرأة، وهي دعوة لكل أنثى أينما كانت:

«لأن تكوني فوق ظهر جوادٍ جامح، خير لك من أن تكوني امرأة لا تفكر!».

ثانياً: أريجنوت .. Arignote

فيلسوفة فيثاغورية (حوالي ٥٠٠ ق.م) يروى «ميناج- Menages، في كتابه النساء الفلاسفة، أنها ابنة فيثاغورس من ثيانو. تعلمت في مدرستها في كروتون Croton بجنوب إيطاليا. وهو يروي أنها ألّفت العديد من الكتب من بينها، أقوال مأثورة عن الآلهة سيرس Ceres»[1]، وكذلك «أسرار الإله باخوس»[2]، وأيضاً عن «ديونسيوس». وطبقاً للاعتقاد الفيثاغوري الذي يرى أن طبيعة الكون في جوهره رياضية، وأنه منظم ومرتب ومتناغم- فقد راحت «أريجنوت» تبحث جوهر هذا العالم تقول:

«الماهية الأزلية للعدد هي العلة الأساسية للسماء والأرض، وما بينهما، كما أنها هي الجذور الأولى للوجود المتصل للآلهة والأرواح، ولجميع الرجال المقدسين أيضاً..»[3].

وشرح أريجنوت لماهية العدد يتسق مع الشروح التي سبق أن ذكرتها أمها «ثيانو»، من حيث أن كل ما هو موجود، وكل ما هو واقعي يمكن أن نفرق بينه وبين غيره من الأشياء عن طريق العد، ذلك لأن الماهية الأزلية للعدد ترتبط كذلك- على نحو مباشر- بوجود الأشياء المختلفة ولكنها متناغمة. وفي استطاعتنا أن نعبر عن هذا التناغم بالعلاقات الرياضية. وبهاتين الطريقتين يتبين لنا أن الأعداد هي علة كل

---

(١) آلهة القمح عند الرومان، وهي نفسها الآلهة ديمتر عند اليونان.

(٢) إله الخمر عند اليونان، وهو نفسه ديونسيوس.

(٣) Quoted by Mary E. Waithe op. citt. P 15.

شيء، فبدونها لا نستطيع «العد» ولا «الإحصاء». ولا نتمكن من العدد ولا من الوصف، أو التخطيط، أو تحديد ملامح الشيء أو التمييز بين الأشياء، فهي تعبر على نحو منتظم عن العلاقات بين الأشياء[1].

(١) Ibid.

ثالثاً: ميا.. Myia

فيلسوفة فيثاغورية (حوالي ٥٠٠ ق.م) يذكر «ميناج» في كتابه تاريخ النساء الفلاسفة أنها كانت إحدى بنات فيثاغورث وثيانو.. تزوجت أحد الأبطال الرياضيين «ميلو Milo»، وهو بطل كرتون الرياضي.

كتبت «ميا» كغيرها من النساء الفلاسفة في الفيثاغورية عن الهرمونيا Harmonia، أو التناغم والتآلف في حياة المرأة. ولقد كتبت رسالة طويلة إلى فيليس Phyllis تناقش فيها أهمية التناغم، وكيف أنه ينطبق على رعاية الطفل وتربيته، وأهمية تلبية حاجات المولود الجديد طبقاً لهذا المبدأ. ويبدو أن النقطة الهامة التي أشارت إليها هي أن المولود الجديد يرغب- بطبيعته- فيما يتلاءم مع حاجاته، وما يحتاج إليه هو الاعتدال أو الوسط، لا الكثير ولا القليل من الطعام، ولا الخفيف ولا الثقيل من الثياب، ولا من الحرارة أو البرودة أو الهواء.. الخ.

والواقع أن ما نجده ممتعاً حقاً في رسالتها هو تصورها للمولود المعتدل الذي لا يرغب في شيء فيه زيادة أو نقصان، وكأن المولود الجديد يطلب الاعتدال في كل شيء ويرغب في الحد الأوسط من كل شيء ولهذا السبب فإن الأم- حديثة العهد بالأمومة- عليها أن تعهد برضيعها إلى مرضعة أو مربية معتدلة أيضاً في سلوكها، فعلى هذه المربية ألا تكون مسرفة لا في النوم، ولا في الأكل، ولا في الشراب... الخ، كما أنها لا بد أن تقلل من الممارسة الجنسية مع زوجها (ربما لأن الحمل سوف يمنع الرضاعة وسوف يقلل من إدرار اللبن)، وباختصار: إن عليها أن تقوم بكل شيء على نحو جيد، وفي وقته المناسب، كما أنها لا بد أن تعمل ما فيه صلاح الطفل، ولا بد أن تخفف من حاجاتها

حتى تسهم تغذيتها للمولود الجديد في تنشئته وتربيته تربية جيدة.

نصوص من رسالة ميا Myia إلى فيليس Phyllis.

«من ميا إلى فيليس ...

تحياتي

اسمحي لي أن أقدم لك النصيحة الآتية بمناسبة أنك أصبحت أماً:

«عليك أن تختاري للمولود الجديد مرضعة أو مربية تتسم بالنظافة، وحسن النية، ولا تريد له سوى الخير. اختاري امرأة تكون متواضعة، بل أكثر النساء تواضعاً، فلا تسرف في نومٍ أو شراب. وامرأة من هذا النوع سوف تكون أفضل من تأتمنين على تنشئة أطفالك بطريقة مناسبة لمراحل العمر، بشرط أن تكون، بالطبع، لديها اللبن الكافي لتغذية الطفل الرضيع، كما ينبغي أن تكون امرأة غير مغلوبة على أمرها مع زوجها بحيث تشاركه الفراش كلما أراد، إذ لا شك أن المربية تلعب دوراً هاماً في هذه المرحلة الأولى من حياة الطفل مما يؤثر في حياة الطفل بأسرها، فالمفروض أن تقوم بتغذيته، وفي ذهنها أن ينشأ على أفضل صورة ممكنة، فلا تقوم بتغذيته وفقاً لمقتضى الحال، بل طبقاً للروية والتدبر وإعمال الفكر، وبذلك تقود الطفل إلى الصحة والعافية، ولا ينبغي عليها أن تستسلم عندما يداعب النوم جفونها، وإنما عندما يرغب المولود في الراحة، ولا ينبغي أن تكون حادة الطبع، سريعة الغضب، ثرثارة كثيرة الكلام. ولا ينبغي عليها أن تكون شرهة في تناولها للطعام فتأكل أي شيء وكل شيء وإنما عليها أن تكون منظمة في أوقات التناول معتدلة في كمية الطعام، وحبذا أن تكون يونانية لا أجنبية لو أمكن ذلك. ومن الأفضل أن تجعل الرضيع يخلد إلى النوم، بعدما تناول الرضاعة، وشبع من لبنها، لأن الراحة، عندئذ ستكون متعة له. وسيكون من السهل هضم الغذاء، وإذا كانت هناك أنواع أخرى من الغذاء، فعليها أن تقدم له الطعام البسيط بقدر الإمكان، أو أن تخلطه بلبن المساء، وعليها ألا تقوم باستمرار بجعل الطفل يستحم، فالاعتدال

في الاستحمام هو الأفضل. وإلى جانب ذلك كله فإن الهواء لا بد أن يكون معتدلاً، لا هو حار ولا هو بارد، كما أن المنزل ينبغي ألا يكون مفتوحاً على مصراعيه، ولا مغلق تماماً، كما أن الماء ينبغي ألا يكون ساخناً ولا بارداً، وملابس النوم ينبغي ألا تكون خشنة، بل أن يتقبلها الجلد بقبول حسن. وفي جميع هذه الأمور تميل الطبيعة إلى ما هو مناسب وملائم ومعتدل، لا إلى ما فيه إسراف أو مبالغة.

تلك هي الأشياء التي يبدو لي أنه من النافع، ومن المفيد أن أكتب لك اليوم عنها، وأن تقومي أنت بالبحث عن مربية أو مرضعة حسب هذه الموصفات. وبعون من الله فإننا سوف نقدم لك مذكرات مناسبة، وإرشادات سهلة تتعلق بتنشئة الطفل في مراحل أخرى مقبلة من عمره..»[1].

وربما اندهش القارئ من قدرة «ميبا Myia» على تطبيق فكرة الاعتدال على هذا النحو في مجال التربية، فهي تختم رسالتها بهذه العبارة:

«تلك هي الأمور التي يبدو من المفيد أن أكتب لك عنها في الوقت الحاضر، ويكفي ما قلت، فهناك اعتدال حتى في تقديم النصيحة..» لكنها وعدت بالكتابة إليها مرة أخرى، عندما تجد أنه من المناسب أن تذكر فيليس Phyllis بتفصيلات أخرى عن الهرمونيا والانسجام في تربية الطفل!

وهذه العبارة الأخيرة تلخص ما كانت النساء الفيثاغوريات تقمن به، بالفعل، من خلال الرسائل والنصوص. وهناك فكرة معينة توجه رسائل «ميبا» التوجيه الصحيح- وتلك هي الحال نفسها في رسائل ثيانو الثانية، وكذلك شذرات بركتيوني الأولى، وفينتسي Phintys هي أن من واجبهن كنساء فلاسفة، أن يُعلمن بقية النساء الأخريات ما يحتجن إليه،

---

(١) Mary E. Waithe: Op. Cit. p. 16.

وأن يرشدنهن في أمور التربية، وأن يعرفنهن كيف يمكن «أن يعشن حياتهن في هرمونيا وتناغم». أو كما ستقول «إيزارار» فيما بعد: «كيف يخلقن العدالة والانسجام والتناغم في أرواحهم، وفي بيوتهن».

وكذلك فإن مهمة الفلاسفة من الرجال أن يعلموا الرجال الآخرين ما يحتاجون إلى معرفته، لكي يعيشوا حياة متناغمة ويخلقوا العدالة، والانسجام، والتناغم في أرواحهم وفي دولتهم. وتلك هي المهمة التي تفسر في جانب منها- كما تصف في جانب آخر- مبررات المنظور «الواقعي» للفلسفة الخلقية عند نساء الفلاسفة الفيثاغوريات، والمنظور «المثالي» الذي أخذ به الرجال. فقد اتخذ كل فريق منظوراً مختلفاً. لأن طبيعة النساء تختلف عن طبيعة الرجال. وهو ما تعترف به الفيثاغورية دون أي تقليل من أهمية المرأة، أو إلغاء لدورها، أو حط من قيمتها.

خاتمة

لا بد أن ينتبه القارئ جيداً في ختام هذا الفصل إلى عدة أمور هامة، ربما أجابت عما يعتمل في داخله من أسئلة:

١- إننا الآن في القرن السادس قبل ميلاد المسيح حيث لا نجد كتباً ولا مؤلفات للفلاسفة، بل نجد فقط شذرات هي كل ما تبقى لنا من فلسفاتهم.

٢- إذا تساءل القارئ: لكن هل تعد هذه العبارات البسيطة فلسفة؟ كان جوابنا ذا شطرين :

أ- إن فيثاغورس نفسه عبر عن فلسفته في عبارات بسيطة مثل : «العالم عدد ونغم» .. إلخ.

ب- إن المدرسة الأيونية (طاليس ومدرسته) لم يتبق لهم سوى عبارات غاية في البساطة مثل: «الماء هو أصل الأشياء»، أو «الهواء هو المبدأ الأول لكل شيء».. الخ

٣- عندما تقوم «ثيانو» بتوضيح وشرح وتفسير عبارة زوجها «الأشياء نشأت من العدد». وتزيل ما في هذه العبارة من لبس، لتنفي أنها تعني «خلق» الأشياء المادية من الأعداد، التي هي موجودات عقلية غير حسية، وتذهب إلى أن ما يريده «فيثاغورس» هو أن الأشياء صنعت على غرار الأشياء، أو وفقاً لها، أو أنها تحاكيها.. الخ فليس ذلك مجرد عبارات عامة وعابرة، وإنما هي فلسفة بمعنى الكلمة.

٤- عندما تمد «ثيانو» فكرة «الهارمونيا» أو الانسجام من الكون إلى عالم الإنسان، وتذهب إلى أن الإنسان الشرير إنما يهدم نظام العالم

ويدخل فيه الفوضى، فهي تعبر بذلك عن ميتافيزيقا شاملة تجمع الطبيعة والإنسان في فكرة أساسية واحدة.

٥- حاولت «ثيانو» أيضاً أن تقيم «خلود الروح» على أساس الفكرة نفسها، فمن الضروري أن تكون النفس خالدة أو الروح خالدة لا تفنى بفناء الجسد، حتى يعاقب الآثم ونستعيد بذلك النظام أو «الهارمونيا» إلى العالم، وهي التي أفسدها بعصيانه للقانون الخلقي.

٦- إذا كانت النفس خالدة، وإذا كان الهدف هو معاقبة الآثم العاصي، فلا بد أن نسلم بتناسخ الأرواح، أي انتقالها بعد الموت من جسد إلى جسد آخر، فالمجرم يمكن أن تتعذب روحه بأن تنتقل بعد موته إلى بدن كلب مثلاً!

إذا لم تكن هذه فلسفة كاملة تجمع بين الطبيعة، والإنسان والدين، وإذا لم تكن صاحبتها «فيلسوفة» فبماذا نسميها إذن؟!

الفصل الثالث

نساء.. فلاسفة من الفيثاغورية المتأخرة

- إيزارا اللوكانية Aesara of Lucania
- فينتس الإسبرطية Phintys of Sparta
- بركتيوني الأولى Perictione

(إذا قمنا بتحليل النفس، فسوف نفهم القانون، والعدالة على المستوى الفردي، والأسري، والاجتماعي)

إيزارا .. Aesara

تمهيد

سوف نعرض في هذا الفصل لثلاثة من النساء الفلاسفة من الفيثاغورية المتأخرة التي ظهرت بعد نحو قرنين من الفيثاغورية المبكرة، وهي:

١- «إيزارا اللوكانية» التي مدت فكرة القانون الطبيعي ليشمل ثلاثة مجالات هي: مجال الفرد، ومجال الأسرة، ثم مجال المؤسسات الاجتماعية. كما أننا سوف نستعرض بعض النصوص من كتابها «عن الطبيعة البشرية» لنرى محاولتها لتطبيق القانون الأخلاقي في المجالات الثلاثة السابقة معتمدة على التقسيم الثلاثي للنفس البشرية.

٢- كما أننا سنعرض أيضاً لفيثاغورية أخرى هي «فينتس الاسبرطية» التي ألفت كتاباً عن «الاعتدال عند النساء» لم يبق لنا منه سوى شذرتين- كما يحدث في كثيرٍ من الحالات بالنسبة للفلاسفة الرجال الذين فقدت كتبهم ولم يبق منها سوى شذرات قليلة- وهي تهتم في الشذرات المتبقية من كتابها بتوجيه المرأة إلى الاعتدال في كل شيء سواء في الطعام، أو الشراب، أو اللياقة البدنية، أو حتى في الطقوس والشعائر الدينية.

٣- والفيثاغورية الثالثة هي «بركتيوني الأولى» التي كتبت كتاباً بعنوان «هارمونيا النساء»، وهي غير «بركتيوني الثانية» التي كتبت كتاباً بعنوان «سوفياس Sophias، أي عن الحكم، وربما كان الموضوع الرئيسي في هذا الكتاب هو واجبات المرأة في الأسرة ولا سيما تجاه والديها أو زوجها وأولادهما.. الخ.

وقد يندهش القارئ من إقرار النساء الفيثاغوريات الفلاسفة لوضع المرأة المتدني الذي كان قائماً في المجتمع اليوناني، من خضوعها للرجل، وتغاضيها عن «هفواته» حتى أصبحت المرأة الفيثاغورية «نموذجاً للزوجة المثالية، والمرأة الفاضلة عموماً، لكن ربما تزداد الدهشة لو قلنا إن أرسطو وافق أيضاً على الوضع المتدني للرجل عندما وضع نظرية « عن الرق» ولم يمنعه ذلك من أن يكون أعظم فيلسوف في العالم القديم.

إن الهدف من استعراض هذه النماذج هو بيان قدرة المرأة على التفلسف، بغض النظر عن الموضوع الذي تجعله موضوعاً لتفكيرها. وفي اعتقادي أن القارئ سوف يلمح ما لدى المرأة- حتى في هذه الأوضاع المتردية- من قدرة عقلية. ويكفي ان نقول إن «بركتيوني الثانية» كانت تدعو في كتابها عن «الحكمة» إلى التأمل النظري في الكون. كما أن ثيانو الثانية كانت تقرأ محاورات أفلاطون وتناقشها مع زميلاتها ولا سيما محاورة «بارميندس» البالغة الصعوبة.

أولاً: إيزارا Aesara

١- حياتها ومؤلفاتها:

فيلسوفة فيثاغورية يونانية (حوالي ٤٠٠- ٣٠٠ ق.م) ولدت في لوكانيا Lucania وهو إقليم قديم في الجزء الجنوبي من إيطاليا، خضع لسيطرة اليونان قبل أن يغزوه اللوكانيون في القرن الخامس قبل الميلاد. وتقول الحفريات الحديثة إن هذا الإقليم بلغ شأواً في الحضارة غير يسير.

لا نعرف شيئاً عن حياتها، وكل ما نعرفه أنها ألّفت كتاباً بعنوان «عن الطبيعة البشرية On Human Nature، لم يبق لنا منه سوى شذرات قليلة، وإن كانت هذه الشذرات تزودنا بمفاتيح هامة لفهم فلسفات: فينتس الإسبرطية، وبركتيوني، وثيانو الثانية.

تأخذ «إيزارا» بنظرية حدسية في القانون الطبيعي، تذهب فيها إلى أننا عندما نستبطن أنفسنا أو عندما نتأمل داخلياً طبيعتنا البشرية ولا سيما طبيعة «النفس» البشرية، ففي استطاعتنا كذلك أن نتعرف على البنية الأخلاقية، وعلى القانون الوضعي، والطب.

ونظرية القانون الطبيعي عند إيزارا» تدور حول القوانين التي تحكم مجالات ثلاث هي: مجال القانون الأخلاقي، بالنسبة للفرد أو ما يسمى بالأخلاق الخاصة، ومجال القانون الأخلاقي في نطاق الأسرة، ومجال القانون الأخلاقي الذي يحكم المؤسسات، فسوف نفهم طبيعة القانون، وطبيعة العدالة، على المستوى الفردي والأسري والاجتماعي.

وسوف نعرض فيما يلي النص الذي تبقى من كتابها.

٢- نص من كتاب «عن الطبيعة البشرية»:
بقلم الفيلسوفة الفيثاغورية
«إيزارا اللوكانية»

«يبدو لي أن الطبيعة البشرية تزودنا بمعايير عن القانون والعدالة في آن واحد في مجال المنزل والدولة، فمن يبحث داخل ذاته فإنه سوف يكتشف القانون بداخله، وسيعرف أن العدالة بداخله أيضاً، فهذا القانون هو الترتيب المنظم للنفس. ولما كانت النفس البشرية ثلاثية الجوانب. فإنها ترتب طبقاً لوظائف ثلاث هي: وظيفة العقل أو الذهن Mind، وهي التي تختص بالحكم والتفكير، ووظيفة الروح العليا التي تختص بالقدرة والمقدرة، وأخيراً وظيفة الرغبة، وهي التي تختص بالحب والعطف. وقد رتبت هذه الوظائف بحيث تكون الوظيفة الأدنى مأمورة أو محكومة. أما الوظيفة التي توضع في مكان وسط فتكون حاكمة ومحكومة في ذات الوقت.

وهكذا نجد أن الله خلق هذه الوظائف ورتبها طبقاً لمبدأ يكمل المقام البشري: لأنه أراد للإنسان وحده أن يكون هو الذي يتسلم القانون والعدالة دون غيره من الموجودات والحيوانات الأخرى. إن وحدة الترابط المركبة لا يمكن أن تظهر من شيء مفرد، ولا من أشياء متعددة على نمط واحد. (إذ طالما أن الأشياء مختلفة، فلا بد أن تكون أجزاء النفس مختلفة أيضاً، كما هي الحال في البدن، حيث نجد أن أعضاء اللمس والبصر، والسمع، والذوق والشم مختلفة: لأن هذه الأعضاء ليست لها علاقة واحدة بكل شيء آخر).

كلا ولا يمكن لهذه الوحدة أن تظهر من أشياء غير متشابهة- كيفما اتفق- بل بالأحرى من أجزاء تشكلت طبقاً لملائمة كل منها للكل بأسره، وانتظامها معه، وإكمالها له، وليست النفس وحدها هي التي تتركب من أجزاء متعددة غير متشابهة، بل إن ذلك يحدث متطابقاً مع الكل، وفضلاً عن ذلك فإن هذه الأجزاء لا تترتب عشوائياً، أو كيفما اتفق، بل طبقاً لوعي عقلي.

ذلك لأنه لو كان لهذه الأجزاء نصيب متساوٍ من القوة والشرف، رغم أنها هي نفسها غير متساوية- فجزء منها أدنى، وجزء أعلى، وجزء ثالث يقف في الوسط- أقول على الرغم من أن أجزاء النفس غير متساوية على هذا النحو؟، فإن الترابط بينها لا يمكن أن يكون متكافئاً أبداً. لكن حتى لو كان لكل منها نصيب غير متساو بحيث يكون للأسوأ وليس للأفضل النصيب الأكبر- فسوف يؤدي إلى إحداث اضطراب في النفس، وحتى إذا ما كان للجزء الأفضل النصيب الأكبر، والجزء الأدنى النصيب الأقل، لكن إذا لم يحدث ذلك بنسب سليمة فلن يكون ثمة إجماع ولا صداقة ولا عدالة داخل النفس، وطالما أنه حين يرتب كل عضو بالنسب المناسبة عندئذ أستطيع أن أؤكد أن مثل هذا النوع من الترتيب سوف يحقق العدالة.

والواقع أن هناك إجماعاً معيناً واتفاقاً في المشاعر يصاحب هذا الترتيب. وقد يطلق على هذا النوع من الترتيب اسم «النظام الخير» وهذا حق، بسبب أن الجزء الأفضل من النفس يكون حاكماً، والجزء الأدنى يكون محكوماً، وسوف تنبت الصداقة، والحب، والعطف، من هذه الأجزاء، لأن الفحص الدقيق يظهر على أن العقل يقنع، والرغبة تحب، والروح الأعلى مليئة بالقدرة والقوة، وهي ما إن تحتدم بالبغض حتى تصبح عدوة للرغبة».

يتضح لنا من هذا النص أن بنية النفس ثلاثية عند «إيزارا» والأجزاء الثلاثة التي تتألف منها هي: العقل، والحيوية أو الهمة، والرغبة، والعقل مهمته التفكير والحكم، ولا بد أن تفهم كلمة التفكير هنا بمعنى تحليلي خالص، لا أثر فيه للعاطفة أو الانفعال، أما الحيوية أو الهمة ففيها القوة والقدرة والمقدرة، في حين أن الرغبة ترتبط بالحب والعاطفة والرقة. وهذه الأجزاء الثلاثة تشكل وحدة ترابطية مركبة»، ولقد أراد الله لهذه الأجزاء الثلاثة من النفس أن تعمل معاً طبقاً لمبدأ عقلي، وهو مبدأ التناسب الملائم، ويعتمد هذا التناسب في جزء من أجزاء النفس في ملائمته لجزء آخر- على نوع المهمة التي بين أيدينا، أعني أنه يعتمد

على ما تسميه «إيزارا» الأعمال المختلفة المتنوعة التي يكون علينا القيام بها. وهذا المبدأ- بما هو كذلك- ليس مبدأ رياضياً ولا عقلياً أو إلهياً فحسب، وإنما هو أيضاً مبدأ وظيفي.

٣- طبيعة القانون والعدالة ...

ما الذي يمكن أن نستنتجه عن طبيعة القانون وبنيته، وكذلك عن طبيعة العدالة، من تحليل إيزارا «لطبيعة النفس وبنيتها..»؟!

١- في استطاعتنا أن نصل إلى أن القانون والعدالة هما نتاجان لمبدأ عقلي رياضي إلهي وظيفي هو «مبدأ النسبة والتناسب».

٢- القانون والعدالة هما معاً ثلاثيان في بنيتهما، وهي بنية تناظر بنية النفس البشرية.

لقد ذهبت «إيزارا» في البداية إلى القول بأن المبدأ الذي يسم بسماته بنية النفس، وطبيعة القانون والعدالة هو مبدأ بالغ البساطة، فليس ثمة جزء من أجزاء النفس (ولا من أجزاء القانون والعدالة) يمكن أن يسوده وحده.

وترى «إيزارا» أن مبدأ «النسبة والتناسب» يلغي أي مبدأ جزئي آخر، خذ مثلاً قانون «ضريبة المساكن» وما إلى ذلك من قوانين متعلقة بالضرائب، تجد أنه يقوم على أساس أن على جميع السكان أن يتحملوا بالتساوي نفقات الحكم. ومعنى ذلك أنه يقوم على أساس مبدأ يقول: إن على القانون أن يراعي أيضاً الحاجات الخاصة للأفراد، ويضعها في اعتباره عندما يوافق على القول بأن على الأفراد أن يتحملوا نفقات أو تكاليف الحكم، والمبدأ الكامن وراء ذلك كله هو «النسب والتناسب» الذي يقضي بأن يقوم نظام الضريبة على مبدأ لا يؤدي- على المدى البعيد- إلى شقاق أو نزاع بين المواطنين. تلك هي القضية الأولى التي تنادي بها «إيزارا»[١]

(١) Mary Ellen Waithe: Ahistory of Womaen Philosophers. Vol. P.22.

أما القضية الثانية فهي تقول بأن القانون والعدالة هما ثلاثيان البنية، وأن هذه البنية تناظر بنية النفس البشرية. والقانون والعدالة تستغرقهما فكرة القانون الخير، والعدالة الحقة تنظر بعين الاعتبار إلى جميع الأفكار والحجج والمبادئ المناسبة، وفضلاً عن ذلك فالقانون الجيد أو الخير، وخصوصاً العدالة الحقيقية، صائبان في حكمهما: فهما يصدران القرارات حول أمور الواقع، وموضوعات الإلزام، ومسائل الواجب، وهذه السمات الخاصة بالاستغراق في التفكير والحكم الصائب بالنسبة للقانون والعدالة، تناظر عند «إيزارا» القدرة العقلية.

إن قوة القانون وتأثير النظام القضائي، مثل قواعد ونظام الأسرة، والمبادئ الشخصية، والضمير- تناظر الجزء الخاص بالهمة والحمية من النفس عند «إيزارا» إذ يمكن للقانون أن يكون محركاً قوياً، أو عائقاً قوياً أيضاً. فهو يمكن أن يكون محركاً قوياً عندما يعبر عن الهرمونيا أو التناغم والاستقرار، فيعمل على دعم القيم، والفضائل عند الفرد، وفي الأسرة، وفي الدولة. ومن ثم كان القانون والعدالة، كالجزء الخاص بالحمية والهمة من النفس البشرية- مؤثرين ومحركين، وقد يكونا عائقين، وقد يكونا مرشدين للسلوك. ولهذا كله فإننا نستطيع أن نقول إن القانون والعدالة يفسران ويدعمان قيم الشخص وفضائله، وكذلك القيم والفضائل في الأسرة والمجتمع[١].

وفضلاً عن ذلك فإن القانون الاجتماعي، والقانون الأسري، والقانون الأخلاقي تتسم جميعاً بسمة الحب، سواء في صورة الشفقة على الآخرين أو الرحمة بهم، والعطف عليهم، أو في صورة احترام الإنسان لنفسه. وهذا الحب يشبه- في نظر إيزارا- ما ينتجه الجزء الثالث من النفس وهو الرغبة. هذا العامل المؤثر في القانون والعدالة منصف، وهو يراعي مشاعر الآخرين، كما يراعي الحاجات والاهتمامات، فالعدالة رحيمة ومتسامحة، وهي تؤمن بأن الفرد مقدم على الجماعة،

---

(١) Ibid.

بمعنى أنها تضع في اعتبارها الظروف والملابسات والأعذار المختلفة التي تجعل الفرد يخرج عن طاعة القانون أو يرفض الامتثال له. وقل مثل ذلك في حالة الأسرة التي تسودها الهرمونيا أو الانسجام، فهي تتسم بسمة «الإجماع والاتفاق في المشاعر» وهي أسرة منصفة وتراعي مشاعر الأعضاء وحاجاته الخاصة، وهي أيضاً رحيمة ومتسامحة. أما على المستوى الشخصي فإن الفرد الذي لا يعاني من انفصام في الشخصية، فإنه يتسم كذلك بسمة «الإجماع والاتفاق في المشاعر» ومثل هذا الشخص يضع لنفسه معايير أخلاقية تتناسب وقدراته العقلية. ومثل هذه الشخصية تسامح نفسها، ولا تكتنفها الوساوس حول نقائصها الأخلاقية. ومرة أخرى تقول : إن القانون الاجتماعي، وقانون الأسرة، وقانون الأخلاق الشخصية تتسم جميعاً بسمة الحب، سواء في صورة الرحمة بالآخرين والشفقة عليهم أو احترام الذات. وهذا الحب يشبه ذلك الذي ينتجه الجزء الثالث من النفس، وأعنى به: الرغبة[1].

٤- إيزارا .. وسيكولوجيا الأخلاق:

توصي الشذرة المتبقية من كتابها «عن الطبيعة البشرية» باستبطان النفس، وتمتدح التأمل الذاتي لطبيعة النفس البشرية. على اعتبار أن ذلك هو الطريق للكشف عن المجالات الثلاثة التي يطبق فيها القانون البشري وهي: مجال الأخلاق الفردية وقوانين الأخلاق الشخصية، ومجال القوانين التي تعبر عن الأساس الأخلاقي للأسرة. والقوانين التي تعبر عن الأساس الأخلاقي للمؤسسات الاجتماعية. وفي استطاعتنا أيضاً أن ننظر كيف حللت «إيزارا» بنية النفس، وكيف رأت أن ذلك يسهم في فهم قوانين «سيكولوجية الأخلاق البشرية». وقوانين الطب الفيزيفي، فمثلاً قد يكون من المناسب أن ننظر إلى العقل أو جانب الذهن في النفس البشرية عند «إيزارا» على انه يناظر- في شيء من الغموض- فكرة الأنا Ego في علم النفس الحديث. فالعقل عند «إيزارا» يفكر،

---

(١) Ibid.

ويقيم ويكشف عن المبادئ ويدعم الحجج ويساندها، كما أنه يقوم بعمليات الاستقراء والاستنباط معاً. والجزء الخاص بالحمية والهمة في النفس البشرية عند «إيزارا» يشبه الإرادة في التحليل النفسي، فهو ينتج ما تسميه هي «بالشجاعة»، والباعث على الفعل، والرغبة نفسها، يمكن أن تكون مرادفة لغريزة اللذة التي تتجسد في الحب بأشكاله المختلفة، بما في ذلك ما تسميه إيزارا «بالعطف» و «الصداقة» و «الرقة» ...الخ، غير أننا ينبغي ألا نبالغ في بيان أوجه التشابه بينها وبين « فرويد»، وربما كان الأدنى إلى الصواب أن نقارن بين تقسيمها الثلاثي للنفس، وتقسيم أفلاطون لقوى النفس الثلاث، النفس الشهوانية ومقرها البطن تحت الحجاب الحاجز، وهي غارقة في صفات الحس من شره وجشع، وميل إلى الشهوة وممارسة الغريزة.. إلخ، ثم «النفس الغضبية» ومقرها الصدر، وتغلب عليها الحمية والانفعال، وتميل إلى الاندفاع نحو حماية المقدسات والقيم.. إلخ، ولهذا كانت فضيلتها «الشجاعة، أما الثالثة- وهي أعلى الأنفس جميعاً- فهي النفس العاقلة ومقرها الرأس، وهي مصدر الاتزان والتعقل والفهم والحكمة.

والغريب أن أفلاطون أيضاً يمد هذا التقسيم الثلاثي إلى المجتمع فيقسمه ثلاث طبقات: الطبقة المنتجة أو الطبقة العاملة أو «مجتمع الشهوة»، ثم طبقة الجند الذين يدافعون عن الدولة ويتميزون بالشجاعة والإقدام، وأخيراً طبقة الحكام الذين يتميزون بصفات الفلاسفة ويعرفون مثال العدالة ويطبقونه في المجتمع[(١)]. وإن كان الاختلاف بين نظرية «إيزارا» في التقسيم الثلاثي للنفس وانعكاسه على الحياة الاجتماعية، وبين نظرية أفلاطون- كبيراً في حقيقة الأمر.

غير أننا لا بد أن نقول في النهاية إن لنظرية القانون الطبيعي عند «إيزارا» مضامين نسائية. فلو أننا افترضنا- كما يقول الفيثاغوريون عادة-

---

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام «أفكار.. ومواقف» ص ٦٨٢- ٦٨٣ مكتبة مدبولي بالقاهرة.

إن النساء يتحملن مسؤولية خلق الهرمونيا، والعدالة في البيت، في حين يتحمل الرجال مسؤولية إحداث الهرومونيا في المدينة أو الدولة- لكان عمل البناء هو المرادف الأخلاقي لعمل الرجال، وذلك لأن العدالة في المجالين تحمل نفس الأساس الطبيعي الذي يضرب بجذوره في طبيعة النفس البشرية، إن المدن (أو الدول) التي تسودها العدالة والانسجام (الهرمونيا) تحتاج إلى رب المنزل العادل الذي يسود الانسجام جوانب شخصيته أيضاً. ومن ثم فإن العدالة الاجتماعية تعتمد على النساء اللاتي يقمن بتربية الفرد العادل المنصف الذي يسود الانسجام شخصيته، وتذهب الفلسفة الفيثاغورية إلى أن المرأة ليست هامشية بالنسبة للعدالة الاجتماعية، بل إنها هي التي تجعلها ممكنة[1].

---

(١) Mary Ellen Waithe: Ahistory of Woman philosophers. Vol . 1. P.26.

ثانياً: فينتس الإسبرطية ..

Phintys of Sparta

1- حياتها ومؤلفاتها:

فيلسوفة فيثاغورية يونانية (حوالي ٤٠٠ ق.م) لا نعرف عن حياتها سوى أنها ابنة أحد قادة الأسطول اليوناني الذي مات في المعركة عام ٤٠٦ ق.م على نحو ما يروي ثيوكيديدز، وبلوتارك، وهذه المعلومات هي التي تجعلنا نقول إنها من اسبرطة ويروي المؤرخون أنه ألفت كتاباً عنوانه «عن الاعتدال عند النساء» لم يبق لنا منه سوى شذرتين، وهاتان الشذرتان تجسدان تصورات المدرسة الفيثاغورية عن النساء والرجال. وعلى الرغم من أن هناك عناصر مشتركة بين هاتين الشذرتين، فإنه يوجد بينهما بعض الاختلافات الجوهرية.

٢- الشذرة الأولى من كتاب «الاعتدال عند النساء»:

«لا بد أن تكون المرأة على الدوام منظمة وخيرة، وهي لن تصبح كذلك قط بدون امتياز أو فضيلة. والفضيلة المناسبة لكل شيء هي التي تجعل من يتلقاها في وضع أعلى، الفضيلة المناسبة للعينين تجعلهما عينين على الأصالة، والمناسبة للسمع تجعل ملكة السمع حادة، والمناسبة للحصان هي التي تجعله حصاناً أصيلاً، والمناسبة للرجل هي التي تجعله رجلاً تام الرجولة. وقل مثل ذلك في الفضيلة المناسبة للمرأة هي التي تجعلها امرأة ممتازة، والفضيلة المناسبة للمرأة هي: الاعتدال، لأنها عن طريق هذه الفضيلة سوف يكون في استطاعتها أن تحترم زوجها، وأن تحبه.

وربما ظن كثير من الناس أنه ليس من المناسب للمرأة أن تتفلسف، كما أنه ليس من المناسب لها أن تمتطي ظهور الخيل، أو أن تتحدث في جمع من الناس، أو تخطب في الجمهور علانية. لكني أعتقد

أن هناك أشياء خاصة بالرجل. وهناك أشياء خاصة بالمرأة وأشياء تنتمي للمرأة أكثر من الرجل. أما ما هو مناسب للرجل أكثر، أو يخص الرجل على الأصح فهو الاشتراك في المعارك، والانخراط في العمل السياسي، والخطب العامة للجمهور. أما ما هو خاص بالمرأة أكثر فهو البقاء في المنزل، والترحيب بزوجها ورعايته، لكني أعتقد أن الشجاعة، والعدالة، والحكمة هي أمور مشتركة بينهما، كما أن فضائل البدن تناسب الرجل كما تناسب المرأة، وقل مثل ذلك في فضائل النفس. وكما أنه من المفيد للبدن عند كل منهما أن يكون سليماً من الناحية الصحية، فكذالك من المفيد لكليهما أن تكون النفس سليمة . وفضائل البدن هي: الصحة، والقوة، وحدة الإدراك، والجمال. وبعض هذه الفضائل من المناسب للرجل أن تكون لديه أكثر من المرأة مثل: تكوين بدنه، قوة روحه، في حين أن ما يناسب المرأة أكثر- من هذه الفضائل- هو: الاعتدال.

ولذلك يستطيع المرء أن يكتشف طبيعة المرأة التي تمرست على الاعتدال، ويعرف عدد الأشياء ونوعها التي أضفت هذا الخير على المرأة. وأنا أقول إن ذلك يأتي من خمسة أشياء هي على النحو التالي:

أولاً: احترام فراش الزواج.

ثانياً: مراعاة اللياقة في جسدها.

ثالثاً: السير في ركاب أولئك الذين هم من أهل بيتها.

رابعاً: ألا تنغمس في الطقوس السرية، والاحتفاء بعيد الإلهة سبيل Cybele.[1]

خامساً: أن تكون عابدة قانتة ورعة، وأن تقوم بتقديم القرابين الصحيحة للآلهة.

---

(١) آلهة الأرض: أو الآلهة الأم، وقد عرفت بهذا الاسم عند اليونان والرومان وفي آسيا الصغرى حتى القرن الخامس قبل الميلاد، ثم عرفت بأسماء أخرى كثيرة منها: عناة، وعشتار، وإيزيس.. الخ د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم»، المجلد الأول، ص ٢٧٦، مكتبة مدبولي، بالقاهرة.

تلك هي أسباب الاعتدال والمحافظة عليها، والمرأة التي تحققها لا يمكن لزواجها أن يفسد، أو أن تخالط رجل غريب. والمرأة التي تبغي أو تتجاوز حدودها فإنها تقوم بالتجديف على آلهة جنسها، وتجلب لأسرتها ولبيتها حلفاء مزيفين، كما أنها تقوم أيضاً بالتجديف على آلهة الطبيعة الذين تقسم بهم، كما أنها تؤذي أسلافها وعشيرتها، ومشاركتها في الحياة العامة، وإنجاب أطفال شرعيين، كما أنها تؤذي وطنها.. كما أنها سيكون من رأيها ارتكاب الخطيئة، والإقدام على الأعمال الشائنة من أجل اللذة وحدها، ولن تستحق أدنى رحمة. غير أن انتهاك القانون لا بد في النهاية من تدميره.

٣- النساء والفضيلة...

تذهب فينتس إلى أن هناك فضائل مشتركة بين الرجال والنساء، بينما هناك فضائل أخرى ينفرد بها هذا الجنس أو ذاك، فالشجاعة، والعدالة، والحكمة هي فضائل مشتركة بين الجنسين، رغم أنها ترى أن الشجاعة والحكمة تناسب الرجال أكثر من النساء. وليس واضحاً تماماً ما تعنيه فينتس بذلك، ربما كانت تعني بعبارة «تناسب الرجال أكثر» أنها «تناسب ذلك النوع من النشاط الذي ينخرط فيه الرجال. وتبين لنا «فينتس» لماذا تحتاج النساء إلى حقائق وضعهن الاجتماعي عندما يمارسن الفلسفة الأخلاقية كما يمارسها الرجال، ويضعن النظريات عن الدولة المثالية أو الدولة الكاملة. وتسلم فينتس بأن النظام الاجتماعي قائم على ما هو عليه. وتطرح سؤالاً هو: أي النظريات الأخلاقية تتبع؟ أتكون من مسؤوليتنا الأخلاقية أن نعيش حياتنا تبعاً للنظرية الأخلاقية التي تراعي ظروفنا الخاصة أفضل من غيرها..؟ وتقول «فينتس»: «إننا إذا أخذنا بنوع الحياة التي يسير عليها الرجال في الأسواق، وفي الأماكن الحكومية، فإن الشجاعة والحكمة ستكونان هما الفضائل الأخلاقية الأساسية في هذه الحالة: لأن هذه الفضائل إذا لم تمارس فسوق يعاني المجتمع من موجات العنف ومن الصلف، والخداع سواء من جانب المدن الأخرى أو من جانب أعضائه أنفسهم، ومن ناحية أخرى إذا ما

أخذنا بنوع الحياة الضيقة التي تعيشها النساء في المنازل، حيث تكون عليهن مسؤولية شخصية في تنشئة الذكور الذين سيدعمون الانسجام (الهرمونيا) في المدينة (الدولة)، ومع جيرانهم- كانت الفضائل الأساسية هنا هي: الاعتدال وضبط النفس، إذ بدونها لن تكون النساء صبورات مع الأطفال، ولن يبذلن الكثير من الجهد والطاقة في رعاية الآخرين»[١].

لكن هناك رأياً آخر تعرضه «ماري ويث» إذ تقول إن فينتس عندما ذهبت إلى أن العدالة والحكمة تناسب الرجال أكثر «فربما كانت تقصد أن غرس فضائل العدالة والحكمة في نفوس النساء محدود بسبب الدور الاجتماعي المسموح لهن القيام به في المجتمع. وتعكس تلك الأدوار الاجتماعية فهماً كلياً عاماً (في تلك الثقافة) يذهب إلى أن نفوس النساء لها هذه الطبيعة، أما نفوس الرجال فلها تلك الطبيعة، فالمجتمع يبني أطواره بتلك الطريقة التي لا تتيح للرجال الفرصة لمعرفة الكثير عن تطوير الفضائل في النساء، والعكس صحيح أيضاً»[٢].

٤- النساء والعدالة في المنزل:

تصف «فينتس» كثيراً من ألوان الأذى التي تحدثه المرأة غير المخلصة، إذ المفروض أنها تقسم يميناً عند زواجها مع والديها وأقاربها. والقسم موجه إلى آلهة جنسها، وإلى آلهة الطبيعة: وذلك بغرض حماية الأسرة. ثم تأتي الخيانة- أو عدم الإخلاص عموماً- لتعرض هذه الحماية للخطر، وبالتالي، تعرض الأسرة للهلاك أو الضياع، وفضلاً عن الأذى الذي تلحقه هذه المرأة بالأسرة عندما تعرض حمايتها الإلهية للخطر، فإنها ترتكب جريمة مدنية ضد الدولة. فالزواج ينقل وصاية المرأة من والديها إلى زوجها، ثم تأتي المرأة بخيانتها لتنتهك هذه الوصاية، وتلك جريمة أسوأ من الجرائم التي تكون عقوبتها

---

(١) Mary Ellen Waithe: op. cit. P. 28.

(٢) Ibid, p.19.

الإعدام، فلا يمكن للمرأة الخائنة أن تأمل في الرحمة، لأن الباعث الذي دفعها إلى الخيانة هو أسوأ الدوافع، ألا وهو :اللذة.

٥- الشذرة الثانية من كتاب «الاعتدال عند النساء»:

تقول فينتس Phinty في كتابها سالف الذكر:

«لا بد للمرء أن يتدبر هذه النقطة أيضاً، وهي أن المرأة لن تجد علاجاً مطهراً لتلك الغلطة، بحيث تعد عفيفة ومحبوبة من الآلهة بعد أن دنست المعابد والمذابح، ففي حالة هذه الخطيئة- ربما أكثر من غيرها- فإن الروح القدس لا يكون رحيماً قط، بل في غاية القسوة. إن أعلى مجد للمرأة المتزوجة، وأنبل شرف، أن تأتي بشهود على فضيلتها واحترامها لزوجها من خلال أطفالها كلما كانوا يحملون خاتم الشبه مع أبيهم. وذلك هو معنى الاعتدال بخصوص الزواج.

أما موضوع الاعتدال بخصوص اللياقة البدنية فرأيي فيه هو على النحو التالي:

على المرأة المعتدلة أن ترتدي ملابس بيضاء بسيطة ونظيفة، فلا ينبغي عليها أن ترتدي الملابس الشفافة أو المزركشة أو المطرزة بالحرير، بل الثياب البسيطة المحتشمة، والنقطة الأساسية أن تكون محتشمة، وأن تتجنب مظاهر الترف والبهرجة، وعلى النحو فإنها لن تثير الغيرة أو الحقد أو الحسد عند النساء الأخريات. وهي بالطبع لن تزين نفسها بالذهب والزمرد، لأن ذلك يعني أن يبدو عليها مظاهر الثراء والعجرفة تجاه النساء العاديات.

أما المدينة المنظمة تنظيماً حسناً، فسوف تنظم نفسها عن منظور الكل، بحيث يقوم التنظيم على التعاطف والإجماع، بل إن عليها أن تحرم وجود الحرفيين في المدينة، الذين يقومون بصناعة الزينة والزخارف، فالمرأة المعتدلة ينبغي عليها أن تزين نفسها لا بزينة أجنبية مستوردة بل بالجمال الطبيعي للجسد، وبالنظافة والاستحمام بالماء. لا

بد أن تتحلى بالتواضع لا بهذه الزخارف. وها هنا تجلب للرجل الذي تعيش معه وتشاركه حياته، الشرف والاحترام، وكذلك لنفسها أيضاً.

كما أن على المرأة أن تشارك في الاحتفالات التي تبدأ من البيت لتقديم القرابين للإله المؤسس لمدينتها، وذلك لصالحها وصالح زوجها وأهل بيتها، فضلاً عن ذلك فعندما يظهر نجم المساء- وليس في الظلام الحاد- فإن على المرأة أن تعد نفسها للذهاب إلى المسرح، وكذلك يمكنها القيام بشراء السلع وأدوات منزلها، وعليها أن تقوم بذلك بطريقة محتشمة، ومن الأفضل أن تصحبها إحدى وصيفاتها.

«كما أن عليها أن تقوم بتقديم الصلوات للآلهة، وإن كان عليها الامتناع عن الطقوس السرية في المنزل والاحتفال بالإلهة «سبيل... Cybele». إن القانون الشائع يمنع النساء من الاحتفال بهذه الشعائر: لأن مثل هذه الممارسات الدينية تؤدي إلى السكر والخبل، في حين أن ربة الدار لا بد أن تكون معتدلة، ومقتصدة في كل شيء..»(١).

«وهكذا يكون في استطاعة المرأة أن تحقق مبدأ الانسجام (الهرمونيا Harmonia) بممارسة فضيلة الاقتصاد والاعتدال في كل شيء ملابسها، و مظهرها وسلوكها العام، وممارساتها الدينية: فالترف، والبهرجة، والتكبر، والعجرفة، والظهور بمظهر الثراء كلها أمور ينبغي تجنبها: لأنها تهدد الانسجام في المدينة وتخلق الغيرة والحسد في النساء الأخريات، والتباهي باختلاف الطبقات. ولا بد للمرأة المعتدلة أن تعي مدى تأثر المدينة ككل بثيابها ومظهرها غير المعتدل.

وحتى الحرفيين الذين يقومون بصناعة الزركشة والزخارف التافهة على ملابس النساء، ينبغي منعهم من القيام بهذه الأمور في المدينة، بل ينبغي أن تمنع مظاهر التباهي بالفروق بين الطبقات، بأن تستعرض المرأة مجموعة من الخدم في صحبتها، وهي تسير في الشوارع.

---

(١) Mary E. Waithe: Op. Cit. P.30.

ثالثاً: بركتيوني Perictione

فيلسوفة يونانية فيثاغورية حوالي عام ٣٠٠ ق.م). لا بد لنا من التفرقة بين سيدتين تحملان نفس الاسم، ولهذا يطلق عليهما المؤرخون عادة بركتيوني الأولى، وبركتيوني الثانية. الأولى كتبت كتاباً بعنوان «هارمونيا النساء Harmony of Woman » بينما ألفت الثانية كتاباً جعلت عنوانه «سوفياس.. Sophias» أي»عن الحكمة». ولقد بقيت لنا شذرات من الكتابين، وهناك روايات تذهب إلى ان بركتيوني الأولى هي أم أفلاطون، وإن كانت الأدلة ليست قاطعة، مع الاعتراف، بأن بركتيوني الأولى عاشت في أثينا زمن أفلاطون.

لكن المتفق عليه أن الشذرات المتبقية من الكتابين تنسبان إلى سيدتين مختلفتين، لقد كانت بركتيوني الأولى تشجع النساء على التفلسف، فإذا مارست النساء الحكمة وضبط النفس، كان في استطاعتهن استلهام الفضائل ألأخرى بما في ذلك العدالة والشجاعة. ويبدو أن هذه الفيلسوفة كانت تأخذ بمنظور نفعي تجاه الفضيلة: فالمرأة يمكن أن تمارس فضائل معينة لتكون قادرة على تطوير فضائل أخرى، وفضائل أعلى، عندئذ سوف تجلب هذه الفضائل بدورها السعادة والانسجام لهذه المرأة ولأسرتها.

١- ترجمة نص من كتاب «هارمونيا النساء»[١].

«لا ينبغي للمرأة أن توجه إلى والديها كلاماً نابياً، ولا أن تسبب

---

(١) قامت بترجمة هذا النص إلى الإنكليزية: فيكي لين هارير Vicki Lynn Harper.

لهما أذى، بل أن تطيعهما في جميع الأمور الصغيرة والكبيرة، في كل خلجات النفس وحركات البدن، في الحياة الداخلية، والحياة الخارجية، في الحرب والسلم، في الصحة والمرض، في السراء والضراء، في المواقف العامة والخاصة، ينبغي أن تكون المرأة معهما ولا تهجرهما أبداً. ذلك هو طريق الحكمة، والاستقامة والشرف. لكن إذا ما احتقرت المرأة والديها، وركبها شر من أي نوع، فسوف تلعنها الآلهة، وترميها بارتكاب الخطيئة حية وميتة، وسيكرهها الجنس البشري إلى الأبد، مع الأشرار الراقدين في باطن الأرض، وستهاجمها الشياطين المكلفة بهذه الأمور.

فمنظر الوالدين مقدس ومحبوب، وكذلك توقيرهما ورعايتهما. ولا يمكن أن تقارن طلعتهما لا بالشمس، ولا بنجوم السماء، ولا بما يمكن أن يتخيل المرء أنه أعظم من ذلك، ولهذا كان من الضروري احترامهما أحياءً أو أمواتاً. ولا يمكن أن تكون هناك خطيئة أفظع من إهانة المرء لوالديه..»[١]

هذا واحد من النصوص التي بقيت لنا من كتاب «بركتيوني» «هارمونيا النساء» تعرض فيه لمبدأ أخلاقي هو واجبات المرأة تجاه والديها، وتنبهها إلى أن هذا المبدأ يخرق وينتهك لو أنها عصتهما، أو لم تبدِ نحوهما الاحترام والتوقير الواجبين. أما إبداء شيء من البغض أو التذمر أو التلفظ بكلمات نابية، فتلك أمور لن تغفر أبداً، غير أن الطاعة العمياء ليست مطلوبة، فإذا ما ضل الوالدان فإنه يمكن لها أن تحثهما نحو الطريق الصحيح والفعل الحق. وفي جميع الحالات فعصيانهما، وعدم الوفاء نحوهما يقلب موازين الهرمونيا (الانسجام) رأساً على عقب، ويجعل الانسجام الأزلي بين الأجيال منعدماً، وذلك شيء لا يمكن أن تغفره الآلهة ولا الناس[٢].

---

(١) Mary E Waithe: Op. Cit. P.38.

(٢) Ibid, p.39.

والواقع أن هناك وشائج قربى بين كتاب «فينتس» «الاعتدال عند المرأة» الذي سبق أن تحدثنا عنه، وبين كتاب بركتيونى «هارمونيا النساء» فهما معاً يركزان على ألأوضاع الاجتماعية، والأمور الأخلاقية للنساء في المجتمع. وهما معاً يعترفان بالوضع القائم في المجتمع، ويجعلانه المصدر الأساسي للإلزام الأخلاقي عند المرأة فالإنسان يولد في أسرة لها دين، وفي مدينة لها دستور، وتلك هي العلاقات التي لا سيطرة للمرء عليها، ومع ذلك فهي تصلح كمصدر للواجب تجاه الوالدين، والآلهة، ثم يتزوج الإنسان ويشكل أسرة، ويخلق علاقات جديدة يكون له عليها بعض السيطرة، وها هنا تضاف إليه مسؤولية أخلاقية جديدة. وهناك الالتزامات الأخلاقية والاجتماعية التي تلحق بجميع هذه العلاقات، وهي واجبات على المرء أن يراعيها إذا أراد لهذه العلاقات أن تكون منسجمة، أو إذا شاء أن يحدث الانسجام، وتعم الهرمونيا جميع جوانب المجتمع.

٢- الشذرة الثانية من «هارمونيا النساء»:

«لا بد للمرء أن يتخيل أن المرأة التي يسودها الانسجام، وتتحقق عندها الهرمونيا، لا بد أن تكون مليئة بالحكمة وضبط النفس، ولا بد أن يزداد وعي النفس بالخير حتى تكون امرأة حكيمة شجاعة منصفة تتحلى بامتلاء النفس، وتنفر من الآراء التافهة الفارغة، إن الأشياء القيمة تأتي إلى المرأة من هذا المصدر: من نفسها، ومن زوجها، ومن أولادها، ومن بيتها، وربما أيضاً من مدينتها، لو أن مثل هذه المرأة حكمت المدينة أو القبيلة على نحو ما نرى في المدن الملكية.

وعندما تسيطر المرأة على شهوتها، ومشاعرها العنيفة، سوف تكون امرأة مستقيمة تسودها الهرمونيا، ولن تشدها أية رغبات غير مشروعة، بل سوف تحتفظ بحبها لزوجها ولأولادها ولبيتها بأسره. وعندما تصبح المرأة عشيقة لرجل غريب فإنها تصبح في الحال، عدوة لآل بيتها جميعاً، وللطبقات العليا والدنيا في المجتمع على حدٍ سواء. ومثل هذه

المرأة تختلق الأكاذيب، وضروب من الغش والخداع لزوجها حول كل شيء، في محاولة لتبدو متفوقة وذات إرادة خيرة، ورغم أنها تحب الكسل، فإنها تريد أن تظهر وكأنها تحكم بيتها.

ولا بد للمرأة أن تدرب نفسها على المعايير الطبيعية للغذاء، والملابس، والاستحمام، ومسح الجلد بالزيت، وتصفيف شعرها، ووضع زينتها من الذهب والأحجار الكريمة. إن المرأة التي تبالغ في الطعام، والشراب، وتسرف في الملبس، والتحلي بكل زينة، تكون جاهزة لارتكاب الخطيئة، وممارسة كل رذيلة، سواء بالنسبة لفراش الزوجية، أو بقية الأفعال الخاطئة الأخرى، لكن من الضروري فحسب تخفيف حدة الجوع والعطش حتى لو تم ذلك بأرخص الوسائل؟، فقد تكتفي في حالة البرد بثوب خشن، أو حتى بجلد الماعز.

إن ارتداء العباءات الأرجوانية الفاخرة، ذات الألوان الفاقعة، حماقة لا حد لها، لكن في حالات الجهل البشري ترى المرأة تسرع إلى العبث والمبالغة. ومن هذه الزاوية لا ينبغي على المرأة التي يسودها الانسجام أن تقيد نفسها بالذهب والأحجار الكريمة الآتية من الهند أو غيرها من البلدان، ولا أن تدهن جسمها بالطيب الآتي من بلاد العرب، ولا أن ترسم وجهها بالأبيض والأحمر، ولا أن تسود حواجبها أو رموشها، أو أن تصبغ شعر رأسها، إن الجمال الذي يأتي من الحكمة، وليس من هذه الأمور، هو الذي يرضي المرأة الأصيلة ويشبعها.

لكن المرأة ينبغي عليها ألا تظن أن نبالة المحتد، أو الثراء، أو القول بأنها أتت من مدينة كبيرة- هي أمور ضرورية أو لازمة لها، أو لأصدقائها، أو للآراء الطيبة من الرجال المرموقين عنها، ولو فعلت ذلك فلن يصيبها أي أذى، وإن لم تفعل فإن روحها لن تسعى إلى ما هو عظيم، إن هذه المسائل في الواقع تضرها أكثر مما تنفعها، وتجرها إلى سوء الحظ، وإلى الخيانة، والحسد، وسوء الطوية، ومثل هذه المرأة لن تكون أبداً صافية النفس.

لا بد للمرأة أن تحترم الآلهة، وأن تطيع قوانين الأسلاف وقواعدهم. وبعد احترام الآلهة فإن عليها احترام الوالدين وتوقيرهم، فهما من حيث التأثير، يتساويان مع الآلهة، بالنسبة للنسل.

أما بالنسبة لزوجها فلا بد أن تعيش معه حياة مشروعة ومحترمة، ولا تنظر لأية شيء على أنه خاص، بل عليها أن تحافظ على زواجها، وأن تصونه، وعلى المرأة أن تتحمل ظروف زوجها حتى ولو كان غير موسر، ولو سقط نتيجة للجهل في عادة الشراب، أو طريح الفراش، أو كان يعاشر نساء أخريات، فإن هذا الخطأ يمكن أن يغفر للرجال، لكنه لا يغفر أبداً للنساء. إن عليها أن تحافظ على القانون، وألا تحسد الرجال على ذلك. كما أن عليها أن تتحمل غضب زوجها أو بخله، أو هفواته، أو ألفاظه التي يتفوه بها أحياناً، أو غيرته، أو شتائمه، أو معاملته السيئة، أو أية صفة أخرى تكون فيه بحكم الطبيعة، إذ يجب عليها أن تكون متحفظة وكتومة، وأن تعالج جميع صفاته بطريقة تسعده، فإذا ما أحبت المرأة زوجها وفعلت ما يرضيه، وعملت على إسعاده، سادت الهرمونيا وتحقق الانسجام... فإذا لم تحبه فإنها لن تجد الأمان لا في بيتها ولا لأطفالها، ولا لخدمها، ولا لممتلكاتها، بل ستصبح كما لو كانت العدو الذي يسعى إلى الخراب، بل ربما راحت تصلي للآلهة ليموت زوجها على أساس أنه رجل كريه، ولتجد لنفسها الأعذار لتعاشر رجالاً آخرين.. بل أنه سوف تكره كل ما يسعده، ويدخل السرور على قلبه.

لكنني أعتقد أن المرأة يمكن أن تحقق الهرمونيا إذا امتلأت بالحكمة، وأظهرت ضبط النفس، وذلك لن يفيد زوجها فحسب، بل أطفالها أيضاً أو عبيدها، وأقاربها، والبيت بأسره بما في ذلك الأصدقاء والضيوف- وببساطة سوف تحافظ على بيتها، فلا تسمع ولا تقول إلا ما هو عدل ومنصف. وأن تطيع زوجها في حياتهما المشتركة، وتمتدح من الأقارب والأصدقاء من يمتدحهم هو، وتفكر في الأشياء حلوها ومرها على نحو ما يفكر- وإلا فسوف تصبح ناشذاً في علاقتها بالكل..»).

ونحن في هذا النص نجد أن بركتيوني- مثل ثيانو الثانية وفنتس الاسبرطية- تتخذ- في النظرية الأخلاقية- منحىً مختلفاً عن الفلاسفة الرجال، فهي لا تهتم بالنظريات المثالية، ولا تفحص ما الذي ينبغي أن يكون عليه المجتمع، بل إننا نجد الفلسفة الأخلاقية عندها مغروزة في البرجماتية، فهي تسلم أن المجتمع قائم على نحو ما هو عليه، وبالتالي تبحث في الطريقة التي تستطيع بها المرأة أن تحقق مبدأ الهرمونيا.

٣- برجماتية الأخلاق.. والزوجة المخلصة:

لقد طبقت بركتيوني برجماتيتها الأخلاقية على الخيانة الزوجية بالنسبة للنساء فهي مثل الفيلسوف الواقعي الذي يذهب إلى أن مفتاح التشريع هو ما تفعله المحاكم بالفعل، فإن بركتيوني تشير إلى الأحكام التي يصدرها المجتمع فعلاً بوصفها قواعد لا بد أن تعيش المرأة الفاضلة طبقاً لها، بالغاً ما بلغت نتائجها التي تعارض تحرر المرأة. فنحن نجد أنها نتجت من مقدمة فلسفية تقول بأنه يجب تطبيق مبدأ الهرمونيا المعياري على ظروف الحياة البشرية، وعلى الرغم من أن آراءها (وكذلك النساء الفيثاغوريات الآخريات) تعرض دور المرأة على نحو يرفضه معظم المفكرين المعاصرين، فلا بد أن نفهم أن نظرتها هي استجابة برجماتية لمشكلة المسؤولية الأخلاقية في مواجهة الوضع القائم وما فيه من تجاوزات.

٤- الجمال الفيزيقي والفساد الأخلاقي للمرأة:

لا شك أن في آراء بركتيوني عن المرأة نغمة واضحة تساير أوضاع المرأة التي كانت موجودة في ذلك الوقت، بمعنى أن تكون تابعة للرجل تماماً ومخلصة له متبنية آراءه عن العلاقات الاجتماعية بحلوها ومرها. ولهذا نراها تحذر المرأة من أن الإفراط في العناية بجمالها الفيزيقي- أو جمال الجسد- قد يسهم في الفساد الأخلاقي عند النساء، ذلك لأن الجمال الحقيقي ينبع من الحكمة، لا من الزينة أو الملابس أو

المجوهرات، إذ تقف البساطة في معارضة الغرور، والعناية بالمظهر، واللياقة في مقابل الإفراط في المأكل والملبس، وربما استنتج القارئ من آراء بركتيوني أنها كانت تملك العديد من الجواري والخدم. والواقع أن النص بأسره يحمل لهجة مألوفة تماماً لمعايير الحياة التي كانت قائمة في ذلك الوقت. ومن ثم كان وقوع المرأة في شباك المظاهر هي الخطوة الأولى نحو الخطيئة، ونحو ارتكاب كل رذيلة، ولهذا كان الاعتدال أو ضبط النفس هما الفضائل التي تسعى إلى تطوير جميع الفضائل الأخرى، وعدم الاعتدال هو الرذيلة التي تفتح الباب- على مصراعيه- أمام جميع الرذائل الأخرى.

٥- المثالية في مقابل البرجماتية[١]:

لقد كان هدف بركتيوني- في الواقع- كما تكشف عنه الشذرات المتبقية من كتابها هو أن تحدد المطلوب من المرأة في المجتمع القائم بالفعل، لكي يمتدح الناس أخلاقياتها، ولم تستهدف أبداً الكشف عن الدور الذي يمكن أن تقوم به النساء في مجتمع مثالي، أو افتراضي، أو حتى يختلف اختلافاً واسعاً عن المجتمع الموجود فعلاً. وإن كانت قد ذكرت في إشارة عابرة أن الأوضاع يمكن أن تكون مختلفة، فالخيانة الزوجية يمكن أن تغفر بالنسبة للرجل، لكنها لا يمكن أن تغفر للمرأة أبداً. وها هنا نرى بركتيوني تعلق قائلة: «إنه من الضروري للنساء أن تأخذ بهذا القانون دون أن تحسد الرجال على ما لهم من حرية أعظم».

ويتضمن هذا الرأي وصفاً حياً للمعاملات السيئة، التي كان على المرأة أن تتحملها، لكن من الواضح أيضاً أن المجتمع الذي كانت تعيش فيه المؤلفة كان يحد من الطرق التي تستطيع المرأة أن ترضى عن

(١) هذا التعليق كتبته فيكي لين هارير Vicki Lynn Harper مترجمة الشذرات المتبقية من كتاب بركتيوني «هارمونيا النساء». راجع مثلاً كتاب «ماري إلين ويث» تاريخ الفلاسفة من النساء» المجلد الأول ص ٣٧.

المبدأ المعياري للهرمونيا. ولا تتأمل بركيتوني، نظرياً، ما يمكن أن يكون عليه حال المرأة في مجتمع مفترض أو مثالي، أو حتى يختلف اختلافاً واسعا عن المجتمع القائم، بل هي بالأحرى تنظر في أوضاع المجتمع الحالي والطريقة التي تستطيع المرأة بواسطتها أن تحقق الانسجام أو الهرمونيا.

خاتمة

عرضنا في هذا الفصل لثلاث نساء هن «إيزارا اللوكانية» و«فينتس الاسبرطية» و «بركتيونى الثانية». ولا شك أن تحليل النصوص أو الشذرات المتبقية يكشف عن أمرين هامين:

١- القدرة العقلية على التفلسف، ومحاولة لتطبيق مبدأ الانسجام الفيثاغوري على الفرد، والأسرة، والمجتمع. كما يكشف لنا عن المرأة الفيثاغورية أو النموذج الحي «للمرأة الفاضلة» التي كانت تعد «المثل الأعلى» للمرأة في العالم القديم، إذ كان يضرب بها المثل للزوجة المثالية. وهذا واضح من الشذرات التي تتحدث عن اهتمام المرأة بتربية الطفل، وعلاقتها بزوجها، وبالمجتمع بصفة عامة.

٢- إن النساء الفلاسفة من الفيثاغورية كانوا أكثر واقعية، وأشد التصاقاً بمشكلات الحياة، فلا تجد عندهن التحليق النظري في عالم المثال، بل الوقوف على أرض الواقع والقدرة على ضبط النفس، والعفة، والربط بين الجيل الحالي وبقية الأجيال المقبلة، والماضية.. الخ، حتى أننا نجد باحثة مثل ماري إلين ويث تعتبرها نزعة «برجماتية» في حين يعتبرها غيرها فلسفة واقعية.

بقي أن نقول إن هذه نماذج من النساء الفلاسفة في الفيثاغورية، وليس حصراً لكل النساء في ذلك الوقت، وإلا ففي استطاعتنا أن نذكر «ثيانو الثانية Theano II» وهي غير «ثيانو الأولى» زوجة فيثاغورس، وقد عاشت في زمن متأخر، ربما عام ٣٠٠ ق.م (أي بعد ثيانو الأولى بثلاثة قرون) وقد بقي لنا منها عدة رسائل أرسلتها لأم شابة توجهها إلى تربية أطفالها في غير ترف، حتى يشبوا على الفضيلة، والاعتدال عند

البلوغ. ومن الطريف أن هناك رسالة ترشد فيها ثيانو الثانية امرأة شابة تدعى كاليستو Kallisto للطريقة التي تعامل بها عبيدها، وهي لا تزال في بداية زواجها.

غير أن الأطرف من ذلك كله رسالتها إلى امرأة تدعى رودوبي Rhodope للطريقة التي تبدأها بقولها «من ثيانو إلى رودوبي الفيلسوفة..» وهي تسألها فيها عما إذا كانت غاضبة منها لأنها «لم ترسل لها كتاب أفلاطون المسمى بارمينيدس»!! ومن الخطاب نفهم أنه كانت هناك قراءات لمحاورات أفلاطون، بل «لمحاورة بارمينيدس»، التي تعتبر من أصعب محاوراته، وهذا يدل مرة أخرى على قدرة عقلية عند المرأة في العالم القديم.. فإذا ما أتيحت لها الفرصة في العالم الحديث، فإنها سوف تشكل فلسفة كاملة على نحو ما سنعرف في الكتاب القادم.

هناك أخيراً «بركتيوني الثانية Perictione» التي ألفت كتاباً عنوانه «عن الحكمة .. Sophias» والشذرة المتبقية لنا من هذا الكتاب تبدأ بقولها: «لقد ظهر الجنس البشري إلى الوجود لكي يتأمل مبدأ طبيعة الكل. إن وظيفة الحكمة هي امتلاك هذا المبدأ، ولكي يتأمل الإنسان الغرض من وجود الأشياء. صحيح أن الهندسة والحساب، وبقية العلوم تدرس الأشياء الموجودة. لكن الحكمة تدرس أجناس الأشياء جميعاً. إذ تتعلق الحكمة بكل ما هو موجود، تماماً كما يتعلق البصر بكل ما هو مرئي، والسمع بكل ما هو مسموع.. إن من اختصاص الحكمة أن ترى وتتأمل الخصائص التي تنسب إلى الأشياء على نحو كلي، أما ما يتعلق ببعضها فقط فذلك ما تختص به العلوم الطبيعية.. فالحكمة تبحث عن المبادئ الأساسية لكل شيء في الوقت الذي تبحث فيه العلوم الطبيعية عن مبادئ الأشياء الطبيعية. والهندسة والحساب والموسيقى تختص بالكم وبالهرمونيا..»(١)، وهذه الفقرة الموجزة مليئة بالأفكار الفلسفية، بل وتفرق بين الفلسفة وغيرها من العلوم الجزئية، وفقاً لمجال الدراسة.

---

(١) Mary. E Waithe: Op. cit p.55-56.

الفصل الرابع

«إسبازيا .. معلمة الخطابة»

(تبرهن المرأة على أمومتها بأن ترضع صغراها ..
كذلك تبرهن بلادنا على أمومتها بأن تنتج لأبنائها
القمح والشعير ..!)

أرشميدس، القبيادس، أنكساجوراس، أفلاطون، إسبازيا، بركليس، سقراط بولينوس، ايتكس، أنتستين، سوفكليس، فيداس

صالون إسبازيا

أولاً: حياتها

لا نعرف شيئاً عن ميلادها، لكنها ماتت على الأرجح عام ٤٠١ ق.م. وهي مواطنة من ملطية في أيونيا، وصلت إلى أثينا حوالي عام ٤٥٠. وافتتحت فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة، وأخذت تشجع بجرأة عظيمة- فيما يقول ول ديورانت- خروج النساء من عزلتهن، واختلاطهن بالرجال، وتربيتهن تربية عالية، والتحقت بمدرستها كثيرات من فتيات الطبقات العليا، وأرسل كثير من الأزواج زوجاتهم ليدرسن معها[١].

ويبدو أنها كانت تلقي محاضرات كان يستمع إليها الرجال أيضاً، ومن بينهم بركليز، وسقراط، وأكبر الظن أن انكساجوراس نفسه نفسه، ويوربيدس، والقبيادس، وفيدياس المثال كانوا يستمعون إليها، أو كانوا يحضرون صالونها الأدبي- كما تدل الصورة التي سوف نتحدث عنها بعد قليل، وحين التقى بركليز بإسبازيا كان قد مضى على زواجه زمن طويل، وكانت هي من ذلك الطراز الذي تحاول خلقه في بلاد اليونان، طراز النساء اللاتي أصبح لهن- بعد قليل من الوقت- شأن كبير في الحياة الأثينية[٢].

ويروي «ديورانت» أن بركليز وجد الفرصة سانحة أمامه للارتباط بإسبازيا، «إذ أحبت زوجته رجلاً آخر، فلم يكن منه إلا أن عرض عليها

---

(١) ول ديورانت «قصة الحضارة» المجلد السابع، ترجمة الأستاذ محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ١٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٩.

أن تستمتع بحريتها نظير استمتاعه هو بحريته، فرضيت بذلك، وجاء بركليز بإسبازيا إلى بيته، غير أن القانون الذي سنه بركليز نفسه عام ٤٥١ يحرم على الأثيني الزواج من أجنبية حتى ولو كانت يونانية(١).

ويروي المؤرخون أن بيتها كان منتدى للشخصيات الكبيرة في أثينا، حتى أن شعراء الكوميديا كانوا يسمونها «هيرا» أو الإلهة الملكة، زوجة رب الأرباب، على اعتبار أن بركليز هو زيوس نفسه(٢). وكان سقراط يعجب بفصاحتها ويدهش منها ويقول إنها هي التي علمته فن البيان، ويعزو إليها الفضل في إنشاء الخطبة الجنائزية التي ألقاها بركليز بعد الخسارة الأولى في حرب البلبونيز. وما لبثت إسبازيا أن أصبحت ملكة أثينا غير المتوجة، تشيع فيها آخر أنماط الحياة الاجتماعية، وعنها تأخذ نساء المدينة «مثل الحرية العقلية والأخلاقية التي يتطلعن لها، والتي تثير حماسهن»(٣). وكان ذلك كله صدمة قوية لمشاعر المحافظين من الأثينيين، فأخذوا ينددون ببركليز أولاً، ثم بأعضاء الصالون ثانياً، فاتهموا فيدياس باختلاس بعض ما عهد إليه من ذهب لصنع تمثال الإلهة أثينا من الذهب والعاج، ووجهوا إلى أنكساجوراس تهمة تتعلق بالدين، ففر الفيلسوف خارج البلاد اتباعاً لمشورة بركليز، ووجهوا تهمة دينية أخرى إلى إسبازيا نفسها، مضمونها أنها لا تخضع لأوامر الدين، وأنها جهرت بعدم تعظيم آلهة اليونان، وقدمت للمحاكمة ونظرت قضيتها أمام ألف وخمسمائة من القضاة، ودافع عنها بركليز دفاعاً مجيداً استخدم فيه كل ما وهب من بلاغة وأصدرت المحكمة حكمها بالبراءة.(٤)

---

(١) James Donaldson: Woman: «Her Position and Her Infleunce in Ancient Greece and Rime». N.Y 1973 . p.61.

(٢) المرجع السابق نفسه. وانظر أيضاً د. إمام عبد الفتاح إمام «أفلاطون.. والمرأة» ص ٤٠-٤١ مكتبة مدبولي بالقاهرة.

(٣) ول ديورانت «قصة الحضارة» المجلد السابع ص ١٩.

(٤) ول ديوارنت : المرجع السابق ص٥. وانظر كتاب ماري إلين ويث: =

ولقد خلدتها الوثائق التاريخية في عملين بارزين:

الأول: هو محاورة مينكسينوس Menexenus لأفلاطون: حيث يقول سقراط: «عندي معلمة ممتازة في البيان (الخطابة). ولقد علمت كثيراً من الخطباء الممتازين، على رأسهم أفضل الخطباء جميعاً ألا وهو بركليز، ولقد سمعت بالأمس أنها دبجت خطاباً جنائزياً عن موتانا هو الذي ألقاه بركليز في الحفل الجنائزي الشهير. ولقد حفظت منها هذا الخطاب عن ظهر قلب. وكانت هي على استعداد لأن تجلدني بالسياط إن نسيت منه شيئاً»[1].

الثاني: اللوحة الزيتية من الجص البارز الموجودة الآن على بوابة مكتبة جامعة أثينا، واللوحة تصورها في صحبة سقراط، وفيدياس Phidias المثال وهو يمسك في يده بالأزميل، وسوفكليس، وبركليز قائد حرب البلبونيز، وأفلاطون عندما كان شاباً، وأنتستين، وأنكساجوراس، والقبيادس الوسيم.. الخ. وإن كان من الواضح أن بعض شخصيات هذه اللوحة لا يمكن لهم أن يجتمعوا معاً في وقتٍ واحد. وبعضهم مثل أرشميدس لم يكن قط من بين أعضاء صالون إسبازيا الشهير.

=

«تاريخ الفلاسفة من النساء» المجلد الأول ص ٧٥.

(١) Plato: Menexenus: 235c- 136 B.

ثانياً: خطاب بركليز الجنائزي

في عام ٤٣٢ ق.م اندلعت الحرب التي نطلق عليها اسم «حرب البلبونيز». واستمرت مرحلتها الأولى عشر سنوات (٤٣٢- ٤٤٢ ق.م) وانقسم فيها العالم الإغريقي قسمين : أحدهما: «دوري» تتزعمه اسبرطة. والآخر: تغلب عليه الصفة الأيونية وتقوده أثينا. ولقد قاد بركليز هذه الحرب، ووضع خططها معتمداً على قوة أثينا البحرية، وعلى التجمع خلف «الأسوار الطويلة»[1]

وبعد مرور عام على اندلاع الحرب اجتمع الأثينيون حسب عادتهم، خارج أسوار المدينة: ليستمعوا إلى خطاب جنائزي (مرثية) يعد خصيصاً في أمثال هذه المناسبات للاحتفال بذكرى الشهداء الذين استشهدوا في المعركة[2].

---

(١) اقنع بركليز الجمعية الوطنية في أثينا بصرف الأموال اللازمة لبناء أسوار لا يقل طولها عن ثمانية أمتار سميت «بالأسوار الطويلة» تصل أثينا وبيريه. ونظرت اسبرطة إلى هذا العمل على أنه عدائي، فسيرت جيشاً هزم الأثينيين عند تنجارا.. Tangara رغم ما أصاب الفريقين من خسائر فادحة. انظر.

- Thucydides: History of the Peloponnesian war. P. 98 Eng. Trans. By Rex Warmer. 1954. Pengguim Classics.

(٢) قبل الاحتفال بثلاثة أيام يقيم الأثينيون- على نفقة الدولة- خيمة يضعون تحتها عظام الشهداء، وفي أثناء الجنازة توضع العظام في توابيت مصنوعة من خشب السرو وتحمل على نعش، كما أنهم يحملون نعشاً فارغاً تغطيه سجف ويرمز إلى القتلى من الجنود الذين لم يعثر على جثتهم بعد

وكان بركليز هو الذي اختارته أثينا، فصعد منبراً عالياً أعد خصيصاً كي يسمعه أكبر عدد ممكن من الناس الواقفين بعيداً عن المنبر وقال:

«إن معظم الذين تكلموا في الماضي في مثل هذه المناسبة أثنوا ثناء عاطراً على هذه السنة المتبعة في الاحتفال بدفن الشهداء، على اعتبار أن هذا التكريم للشهداء الذين سقطوا في ساحة المعركة واجب مقدس. لكن لست أوافق على ذلك: فأولئك الذين برهنوا على بسالتهم بالفعل، يكفيهم فخراً في اعتقادي أن نعلن عن بسالتهم بالفعل أيضاً، كما شاهدتهم في هذا الاحتفال الجنائزي الذي نظمته الدولة، وهكذا لا يكون تكريمهم وقفاً على فصاحة الخطيب أو عدم فصاحته.. سأقول كلمة عن أجدادنا، إذ من المناسب ونحن نقيم مأتماً للشهداء أن نكرم ذكرى السلف. فلم تخل هذه الأرض يوماً من الأبطال الذين استطاعوا بشجاعتهم أن يورثوها لأبنائهم جيلاً بعد جيل.. وإن كنت لن أدبج خطاباً عن أشياء تعرفونها..»[1] ثم ترك بركليز شهداء المعركة وذكرى الأسلاف.. وراح يعدد مناقب المواطن الأثيني، ونظام حكمه بشكل عام، قال:

«..إنني أقول إن نظام الحكم عندنا ليس نسخة من المؤسسات

= المعركة. ويسير في موكب الجنازة من يشاء من الناس سواء أكان مواطناً أم أجنبياً يعيش بينهم. ويوجد القبر الرسمي في أجمل بقعة خارج الأسوار، وفيه تدفن عظام شهداء الحرب. وعندما يتم دفن بقايا الموتى في الأرض يقوم رجل مرموق معظم في أعين الناس تنتخبه المدينة ليلقى خطبة يؤبن فيها الشهداء. وبعد ذلك يتفرق الجمهور. وقد اختارت أثينا «بركليز» ليكون خطيب الاحتفال بذكرى الشهداء الأول الذين وقفوا في ساحة المعركة، راجع في ذلك تشارلز الكسندر روبنصن (الابن). «أثينا في عهد بركليس» ترجمة الدكتور أنيس فريحة مكتبة لبنان عام ١٩٦٦، ص ٧٢-٧٣.

(١) Thucydides: History of the Peloponnesian Warp.144.

السياسية عند جيراننا، فنحن لا نقلد أحداً، بل إننا مثال يحتذى. ودستورنا هو الديمقراطية. لأن نظام الحكم ليس في أيدي القلة، بل في يد الشعب كله. وإذا سأل سائل عن الطريقة التي تحسم بها المنازعات الشخصية، لكان من جوابنا أن كل مواطن يتساوى مع غيره أمام القانون. وإذا سأل من جديد عن الطريقة التي يعين بها شخص ما في منصب رفيع دون غيره، ولا سيما في مراكز المسؤولية العامة، لكان جوابنا: إن ما يوضع في الاعتبار ليس هو مكانة الطبقة التي ينتمي إليها ذلك الشخص، بل القدرات الفعلية التي يملكها. ولن تجد فرداً يقف بعيداً عن الأضواء في خدمة الدولة لأنه فقير، فالحياة السياسية عندنا حرة ومفتوحة، وليست احتكاراً أو وقفاً على فئة من الناس. ونحن لا نتدخل في حياة جيراننا، ولا نغضب منهم إذا ما استمتعوا بحياتهم بالطريقة التي يرتضونها لأنفسهم، ولسنا نزدري الرجل الذي لا يروق لنا طالما كان رجلاً لا ضرر منه[١]. ونحن في حياتنا الخاصة تغلب علينا روح الحرية والتسامح، أما في المسائل العامة فإننا نحافظ على احترام القانون».

«ونحن نطيع أولئك الذين وضعناهم في مراكز السلطة كما نطيع القوانين، ولا سيما تلك القوانين التي تحمي المضطهدين والمظلومين، والقوانين غير المكتوبة التي يعد انتهاكاً عاراً على المواطن».

«وهناك خاصية أخرى: إننا عندما ننتهي من أعمالنا نكون في وضع يسمح لنا بالاستمتاع بجميع أنواع الترويج عن أنفسنا، فعندنا تنافس في الألعاب الرياضية والأعياد المنتظمة التي نقدم فيها القرابين طوال العام، كما أننا نجد الجمال في بيوتنا، والمذاق الجيد الذي يبهجنا كل يوم ويبعد عنا الملل والسأم، وبسبب عظمة مدينتنا ترد إلى أسواقنا ثمار الأرض من كل فج، ومن حقنا- وذلك أمر طبيعي- أن نستمتع بمنتجات البلدان الأخرى، كما نستمتع بمنتجاتنا المحلية سواء بسواء».

---

(١) Ibid p.145.

«إننا نمجد الموهبة أياً كان مجالها: لأن التفوق الممتاز هو في حد ذاته، جدير عندنا بالتمجيد، إننا نحب الجمال في غير إسراف، ونحب الحكمة- أي نتفلسف- في غير ضعف أو تخنث، ودون أن تفقدنا شهامة الرجال، إن أحدا منا لا يستسلم لأحد في أمر يمس استقلاله الروحي وإبداعه المثمر، وإننا لنعتمد على أنفسنا اعتماداً كاملاً».

«أما المال والثراء ننفقهما في الوجوه الصحيحة، ولا نستخدمهما للمباهاة أو الادعاء الفارغ، ولا نرى عيباً في الاعتراف بوجود الفقر بين ظهرانينا، إنما العيب الحقيقي هو التقاعس عن محاربة الفقر، والمواطن الأثيني لا يغفل أمر بلاده لأنه يهتم بشؤونه الخاصة، بل إن الذين ينخرطون منا في التجارة تجدهم على علم جيد بشؤون بلادهم السياسية، وتلك خاصية أساسية من خواصنا، إننا لا نقول عن الرجل الذي لا يهتم بأمور السياسة إنه يهتم بأموره الخاصة بل إننا نقول إنه لا يهتم بشيء على الإطلاق. إننا نحن الأثينيين نتخذ قراراتنا ونضع خططنا بعد إخضاعها للمناقشات المناسبة: لأننا لا نعتقد أن ثمة تناقضاً بين الأقوال والأفعال، بل إن أسوأ الأمور هو الاندفاع إلى الفعل قبل مناقشة النتائج مناقشة جيدة..(١)

«لا بد لي أن أقول- في كلمة واحدة- إن أثينا هي معلمة بلاد اليونان ومدرستها، وإنني لأعلن أن كل فرد من مواطنينا، قادر في كل مناحي الحياة أن يظهر على أنه سيد نفسه أو مالك شخصه، وأهل لمعالجة مختلف الأمور والشؤون الطارئة في يسر ولباقة. وليس قولي هذا عبارة تمليها المناسبة، ولا هو قول فيه مداهنة، بل إنني أقول الحق وأشير إلى الواقع، والدليل على صدق قولي هو سمو المكانة التي بلغتها الدولة بسبب هذه الفضائل والسجايا التي جئت على ذكرها...»

«لقد أطلت الحديث عن عظمة أثينا، لأنني أود أولاً أن أؤكد لكم

---

(١) Thucydides: Ibid- 147-148.

أن ما نحارب من أجله أثمن جداً مما يحارب من أجله الآخرون: ولأبرهن لكم ثانياً لماذا استحق هؤلاء الشهداء مثل هذا التكريم، ومثل هذا الاحتفال الذي أقمناه... إنني بتقريظي لهذه المدينة، والحديث عن فضائلها فإنني أكون قد نوهت بتضحية هؤلاء الشهداء، وأمثالهم من الرجال الذين أقامت المدينة على أساس فضائلهم عزها وسؤددها..»(١)

حاولنا أن نختصر- قدر المستطاع- هذا الخطاب الجنائزي الطويل الذي ألقاه بركليز في حفل شهداء أثينا، الذين سقطوا في أول عام من أعوام حرب البلبونيز العشر. ولعل أهم عناصر الخطاب هي كما يلي:

١- يبدأ بركليز بامتداح السنة المتبعة في الاحتفال بتكريم الشهداء. لكنه يريد أن يكون في الحفل تكريم للأجداد أيضاً، الذين لم يبخلوا يوماً على الوطن بحياتهم.

٢- يقوم بركليز، في الواقع بالتركيز أساساً على خصائص «الشخصية الأثينية» الحقة، فمعظم الخطاب ينصب على صفات المواطن الأثيني، من ناحية، ومناقب أثينا بصفة عامة، من ناحية أخرى.

٣- بدأ يصف نظام الحكم في أثينا، وهو النظام الديمقراطي، الذي يفخر به المواطن الأثيني، ويعده نموذجاً تحتذيه الدول الأخرى. وهو يعني حكم الشعب لا حكم طبقة ولا جماعة ولا فئة.

٤- خصائص هذا النظام هي:

أ - كل الأفراد متساوون أمام القانون.

ب- جميع الفرص متاحة أمام الأفراد لاختيار صاحب الكفاءة للمناصب الشاغرة.

جـ- لا أهمية للطبقة التي ينتمي إليها الفرد، فليست هي التي تؤهله لشغل المناصب الرفيعة ذات المسؤولية.

---

(١) Thucydides: Ibid, p.149.

د- لا أهمية للثروة، فلا يكون الفرد بعيداً عن الأضواء أو محروماً من خدمة بلده بسبب فقره.

هـ- الحياة السياسية حرة ومفتوحة وليست احتكاراً لأحد.

و- لكل إنسان أن يستمتع بحياته التي يرتضيها لنفسه ما دامت لا تضر الآخرين.

ز- تغلب على المواطن الأثيني، في حياته الخاصة، روح الحرية والتسامح، وفي المسائل العامة طاعة القانون.

٥- يعود بركليز بعد ذلك إلى الحديث عن «المواطن الأثيني» الذي من خصائصه الاستمتاع والترويح عن النفس بعد عناء العمل.

٦- المواطن الأثيني يمجد الموهبة ويحب الجمال في غير إسراف، ويحب الحكمة دون أن تفقده شهامة الرجال.

٧- المواطن الأثيني لا يستسلم لأحد في أمر يمس استقلاله الروحي وإبداعه المثمر. وهو يعتمد على نفسه اعتمادا كاملاً.

٨- المواطن الأثيني، حتى إذا انخرط في أعمال تجارية، تراه ملماً إلماماً جيداً بشؤون بلاده السياسية.

٩- ثم يعود بركليز إلى التفاخر بأثينا معلمة اليونان ومدرستها، وأن ما تحارب من أجله أثينا- وهو الحرية- أثمن كثيراً مما يحارب الآخرون من أجله. ومن هنا جاء فضل الشهداء.

ونذكر هذه العناصر الأساسية في خطاب بركليز، لأننا سوف نجدها تتردد في خطاب إسبازيا الذي يرويه سقراط في «محاورة مينكسيونس» لأفلاطون...

ثالثاً: إسبازيا.. ومحاورة «مينكسيوس»

تدور المحاورة حول الخطاب الجنائزي» الذي سمعه سقراط من إسبازيا رفيقة «بركليز بن اكزانثيبس Xanthipus، وهي التي علمته فن الخطابة، كما علمت كثيرين غيره»، والخطاب تأبين لشهداء سقطوا في معركة، ولم يهتم أفلاطون بتحديد هوية المعركة ولا نوع الحرب.[1]

وتبدأ المحاورة بمقدمة تنطوي على سخرية من نفاق الخطباء حتى ليخيل إلى المرء أن «التملق والنفاق والمداهنة» هي موضوع محاورة مينكسينوس، وإن كل ذلك لا يظهر إلا في المقدمة فحسب حيث يقول سقراط ساخراً: «ربما كان من الأفضل للمرء أن يموت في المعركة: لأنه في هذه الحالة سوف يحظى بجنازة رائعة حتى ولو كان فقيراً، وسوف يمتدحه الناس بكلمات قد لا يستحقها، ويعلن الحكم عن فضائله، سواء أكانت لديه أم لم تكن، حتى يمسي المرء مسحوراً بهذه الكلمات، وقد يتصور نفسه وقد أصبح إنسان عظيماً، بل أعظم وأسمى وأنبل مما كان يظن! ويستمر معه هذا الشعور بالكرامة ثلاثة أيام (هي مدة الاحتفالات) وقد لا يفيق منه إلا في اليوم الرابع أو الخامس..»[2]

ويكون تعليق مينكسينوس: «إنك تسخر، على الدوام، من الخطباء

---

(١) The Dialogues of plato. Vol. I Trans. By R.E. Allen. Yale University Press. 1984. P. 319.

(٢) أفلاطون: محاورة مينكسينوس ٢٣٥- أ و ب. وانظر أيضاً الشرح الذي قدم به «ألن» لترجمته لهذه المحاورة في كتب «محاورات أفلاطون» السالف الذكر ص ٣١٩.

يا سقراط، وعلى أية حال، فقد اختاروا اليوم خطيباً لهذه المناسبة (وهو بركليز) ولا أظن أن مهمته ستكون سهلة: لأن عليه- فيما أظن- أن يرتجل الخطاب..!».

ويرد سقراط: إنه لا خوف على بركليز فقد علمته معلمة البيان «إسبازيا» فن الخطابة، وقد أعدت بالفعل الخطاب الجنائزي الذي سوف يلقيه قائد أثينا[1]. ولقد سمعته منها بنفسي، بل إنني حفظته عن ظهر قلب، وكانت هي على استعداد لأن تجلدني بالسوط إن نسيت منه شيئاً».[2]

(١) Plato: Menexenus. 236. B.

(٢) Ibid.230 c.

رابعاً: خطاب «إسبازيا».. الجنائزي

بعد ذلك يبدأ سقراط في رواية خطاب إسبازيا الجنائزي تحت إلحاح مينكسينوس، فيقول إنها بدأت الخطاب على نحو ما فعل بركليز في الخطاب الذي أسلفنا ذكره، في امتداح هذه السنة الحميدة التي جرت عليها أثينا في تأبين شهدائها «إذ من الضروري أن يكون هناك تأبين للشهداء، وخطاب يمتدح الأموات الأبطال، وينصح الأحياء خاصة الأخوة والأبناء أن يقلدوا ذويهم من الشهداء..»[1]. هكذا بدأت «إسبازيا» خطابها لسقراط، ثم استطردت متسائلة: لكن أي نحو يمكن أن يكون هذا الخطاب؟ وكيف نبدأ مديح هؤلاء الأبطال..؟ يبدو لي أنه من المناسب لطبيعة الأمور أن يمتدحوا لخيراتهم، وهم أخيار بالفعل، لأنهم انحدروا من أخيار، فتمتدح إذن، نبالة المحتد، وجودة التربية...»[2].

١- نبالة المحتد:

من حيث ولادة هؤلاء الأبطال، فإن أسلافهم لم يكونوا أجانب، بل كانوا أبناء هذه الأرض الطيبة، عاشوا عليها، وحملتهم وأرضعتهم، وتلقفتهم برعايتها، وكانت أمهم الحقيقة التي يستريحون في حضنها، ولهذا كان من المناسب أن نبدأ بتمجيد الأرض التي هي الأم، وتلك هي الطريقة المناسبة لتمجيد هؤلاء الأبناء، وهي بلاد جديرة فعلاً بالثناء، وذلك بسبب مناقب أثينا التي لا نمتدحها نحن فحسب، بل يمتدحها

---

(١) Plato: Menexenus. 236 D .

(٢) Ibid.

الجنس البشري كله، بل إنها لعزيزة حتى على الآلهة[١]، فهي كالأم الحانية على أبنائها، فكما أن المرأة تبرهن على أمومتها بأن ترضع صغارها (وليست أماً من لا تكون لديها هذا النبع) كذلك تبرهن بلادنا على أمومتها، بأن تنتج لأبنائها القمح والشعير، الذي يحتاج إليه الإنسان في طعامه، وتلك علامة على الأمومة أصدق من أمومة المرأة، لأن المرأة في حملها وولادتها تحاكي الأرض وليست الأرض التي تقلد المرأة ..»[٢].

٢- جودة التربية:

إن بلادنا التي كانت باستمرار حرة وطاهرة، احتضنت أبناءها وربتهم إلى أن أصبحوا رجالا، ثم منحتهم آلهة ليكونوا لهم حكماء ومعلمين، وهذه الآلهة هي التي نظمت حياتنا، وعلمتنا، وأرشدتنا في فنون حياتنا اليومية.

ولد أجدادنا وتعلموا، وشكلوا حكومة لأنفسهم، حكومة حكيمة وعاقلة للرجال الأخيار، وسمي هذا الشكل من أشكال الحكومة بالحكومة الديمقراطية- لبعض الوقت- وإن كان شكل حكومتنا هو «الأرستقراطية» لأنه في الواقع، أفضل نظم الحكم...»[٣].

«لقد كان شعبنا- على الدوام- يقدر الأعمال الجميلة، العامة منها

---

(١) هنا نجد اشارة إلى أسطورة النزاع بين الألهة- ولا سيما الإله يوزيدون إله البحر والإلهة أثينا إلهة الحكمة- على هذه المدينة. وتضيف إسبازيا «كيف يمكن للمدينة (أو الدول) التي يتنازع حولها الإلهة الا يمتدحها الجنس البشري بأكمله..؟!» محاورة مينكسينوس ٢٣٧- ج.

(٢) Plato: Menexenus: 237. D. 238. B.

(٣) هذا هو رأي أفلاطون الذي كان يعتقد أن الديمقراطية مرادفة للفوضى ولحكم الغوغاء. أما النظام الأمثل للحكم، في نظره فهو النظام الأرستقراطي، قارن د. إمام عبد الفتاح إمام «الطاغية» دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي» ص ١٠١ وما بعدها.

والخاصة على حد سواء، ويجد أنه من الضروري ان يقاتل من أجل الحرية، فمن أجلها قاتل الاسبرطيون، كما قاتل البرابرة على حد سواء.

«ولهذا فإنني أؤكد أن أولئك الرجال ليسوا آباءنا فحسب، بل هم آباء الحرية، وآباء حريتنا، وحريات الذين يقطنون في هذه القارة كلها.

لقد نظر الأثينيون جميعاً إلى ما فعله الأثينيون، وأصبحوا تلاميذ لأبطال الماراثون Marathon[١]، وهكذا أصبح الجنود الأثينيون في سهل الماراتون، كالبحارة في سلاميس Salamis[٢]، بأساتذة في الفنون العسكرية لهيلاس كلها».[٣]

وما يمكن أن يعيبه شخص ما- في رأي اسبازيا- على مدينتنا، أو يوجه إليها الاتهام- شيء واحد فقط، أو اتهام واحد فحسب هو: أنها كانت رحيمة وشفوقة أكثر مما ينبغي، وأنها تقف بجوار الضعيف، وتساعده أكثر مما ينبغي، وأنها لا تستطيع أن تنفض يدها عن مساعدة من أضرها حينما تراه مستعبداً، بل وأن تخفف عنه آلامه. ولقد ساعدت أثينا اليونانيين وحررتهم من العبودية، ولقد ظلوا أحراراً بعد ذلك إلى أن قاموا باستعباد أنفسهم[٤].

(١) الماراثون Marathon: سهل في الجزء الشرقي من وسط بلاد اليونان على بعد ٣٩ كم إلى الشمال الشرقي من أثينا. فيه هزم الأثينيون (سبتمبر ٤٩٠ ق.م) القوات الغازية، وأرسلوا احد الجنود يعدو إلى أثينا ليبلغهم نبأ النصر، وظل يجري على أن وصل وأبلغهم، ثم سقط ميتاً، وكانوا يحتفلون كل عام «بسباق الجري» باسم سباق الماراثون تخليدا لذكرى ذلك الجندي البطل!.

(٢) سلاميس Salamis: جزيرة تقع على خليج سارونيك إلى الغرب من العاصمة أثينا، دارت على مقربة منها عام ٤٨٠ ق.م- المعركة الحاسمة التي أعلنت انتصار اليونان نهائياً على الفرس.

(٣) أفلاطون: محاورة مينكسينوس ٢٤١- (أ) و (ب)

(٤) أفلاطون: محاورة مينكسينوس ٢٤٥ .أ.

تلك هي الخطوط الرئيسية في الخطاب الجنائزي الذي ذكره سقراط في «محاورة مينكسينوس» على لسان «إسبازيا»، ومن الواضح أن النظرة العجلى تلاحظ التشابه القوي بين هذا الخطاب وبين خطاب بركليز الذي سبق لنا أن أوردنا أهم عناصره. مما يؤكد قول سقراط بأن إسبازيا كانت معلمة فن الخطابة لبركليز ولغيره من خطباء أثينا.

خامساً: حجتان ضد «مينكسينوس»

لكن هناك مشكلتين يثيرهما بعض الباحثين على النحو التالي:

المشكلة الأولى: إن هذا الخطاب الذي أورده سقراط على لسان إسبازيا ليست له أهمية فلسفية: فهو مجرد ضرب من البلاغة، أو البيان أو الفصاحة اللغوية دون أن ينطوي على أية أفكار فلسفية بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ.

المشكلة الثانية: أنه على الرغم من أن أفلاطون هو الذي كتب محاورة مينكسينوس، وعلى الرغم من أن وجهة النظر التي نسبها إلى إسبازيا صحيحة، وهي خاصة بها فعلاً، فإن أفلاطون كان يسخر من الخطابة والخطباء، حتى أن المحاورة بأسرها يمكن أن تعد- في نظر البعض- قطعة من أدب «السخرية والتهكم»، ومن ثم فإن أفلاطون لم يكن جاداً عندما كتب هذه المحاورة!.

أما بالنسبة للمشكلة الأولى فإن أصحاب الرأي الذي يقول إن الخطاب ليست له أهمية فلسفية- مطالبون بالرد على الأسئلة الآتية:

١- كيف يتفق ذلك مع القول بأن أفلاطون هو صاحب المحاورة ؟ وبعبارة أخرى: كيف نفسر كتابة أفلاطون لهذه المحاورة رغم طابعها اللافلسفي الظاهر؟ كيف يمكن أن نقول إن هذه المحاورة هي العمل الوحيد «اللافلسفي» لأفلاطون ؟ وكيف تستقيم مع بقية محاوراته..؟

٢- ومن ناحية أخرى ألم يكن «فن الخطابة» فرعاً من الفلسفة؟ ألم يفرق أفلاطون نفسه في محاورة جورجياس بين نوعين من الخطابة

أحدهما يعتمد على النفاق والتملق وهو نوع رديء ومرفوض، والآخر وحده جميل ومطلوب وهو الذي يعمل على جعل نفوس المواطنين أفضل..»[1].

٣- ألم يكتب أرسطو كتاباً مستقلاً عن الخطابة، ويشير فيه بالفعل إلى «الخطاب الجنائزي» الذي ذكره سقراط على لسان إسبازيا ليقول بعد ذلك- في لمحة ذكية بارعة-: «ليس من الصعب أن نمتدح الأثيني في اسبرطة»[2] عدوة أثينا اللدود! ومن المحتمل أن أرسطو كان يقرر صدق محاورة مينكسينوس، كما أنه كان يتابع تراث الأكاديمية المبكر، وهو يزودنا بمفتاح لتفسير المحاورة..»[3].

٤- ألم تكن الخطابة من بين المجموعة الثلاثية.. Trivium- طوال العصور الوسطى- التي كانت تضم فقه اللغة، والخطابة، والمنطق، وكانت تسمى- بالعلوم العقلية-، لأنها تتناول أفعال العقل- ما يدل على الوضع «العقلي»- ومن ثم الفلسفي- للخطابة عند اليونان وفي العصور الوسطى؟!

والمشكلة الثانية: هي أن أفلاطون لم يكن جاداً، بل إن محاورة مينكسينوس ليست سوى قطعة من أدب السخرية والتهكم، فالخطابة في عصر أفلاطون بصفة خاصة كانت جزءاً من الفلسفة السوفسطائية، ولم تكن شخصية إسبازيا شخصية أدبية أو خرافية خلقها أفلاطون، بل إن العكس هو الصحيح، فقد تمتعت هذه المرأة بشهرة عريضة، ولهذا فإن الأدنى إلى الصواب أن نقول إن أفلاطون كان يضع في ذهنه إسبازيا معلمة الخطابة السوفسطائية، وإنها ساهمت مع غيرها في نمو الحركة السوفسطائية كما اسهمت إسهامات ملحوظة في تطور فن الخطابة،

---

(١) Plato: Gorgias 503 .A.

(٢) أرسطو «الخطابة» ترجمة د. عبد الرحمن بدوي- دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد عام ١٩٨٦ ص ٦٧.

(٣) The Dialogues of Plato Trans. By R.E. Allen: P.319.

وإنها كانت رسولاً لهذا الفكر الجديد الذي كان يعتقد افلاطون أن له نتائج سلبية على أثينا..»

ومعنى ذلك أن «محاورة مينكسينوس» كتبت لنقد إسبازيا السوفسطائية، وللسخرية مما تقول، والتهكم من فن الخطابة حتى مع اعتراف أفلاطون أن هذا الفن فرع من الفلسفة، ومع تسليمه بأن اسبازيا فيلسوفة، لكنها فيلسوفة سوفسطائية تستحق التهكم والنقد كغيرها من السوفسطائيين في عصره، وعلى الرغم من أننا في هذه الحالة نكون قد وصلنا إلى النتيجة التي نريد إثباتها، وهي قدرة «إسبازيا»- والمرأة بصفة عامة- على التفلسف حتى بغض النظر عن نوع هذه الفلسفة، فإننا نود أن نقف قليلاً عند «النتائج السلبية» التي كانت في ذهن أفلاطون؟.

سادساً: إسبازيا ..
وحركة الخطابة السوفسطائية

ما هي النتائج السلبية التي كانت في ذهن أفلاطون عندما أراد نقد حركة الخطابة السوفسطائية...؟!

لا شك أن أفلاطون كان في ذهنه، عندما كتب محاورة «مينيكسينوس»- الانتقادات التي سوف يوجهها بعد ذلك إلى النظام الديمقراطي في محاورة «الجمهورية». ولقد سبق أن رأيناه يجعل النظام الأرستقراطي هو الأفضل- حتى على لسان إسبازيا زوجة بركليز رائد الديمقراطية الأثينية. ولا شك أيضاً أن كراهية أفلاطون للديمقراطية جاءت في أنه تصورها ضرباً من الفوضى يكون فيه الإنسان حراً لا يقيده قيد، ولا يخضع لسيد.. الخ[1]. ففي الكتاب الثامن من «الجمهورية» يعتقد أن سمة الديمقراطية الإفراط في كل شيء في الحرية الفاسدة، والمساواة الفاسدة: «إذ يغدو العبيد الذين يشترون بالمال متساويين في حريتهم مع ملاكهم الذين اشتروهم»[2]. وفي محاورة القوانين يقول: «إن الحرية التامة والمطلقة من قيود جميع أنواع السلطة هي شيء أسوأ بكثير من الخضوع لحاكم محدود القوى...[3]، فليس ثمة تحرر كامل من كل نوع من أنواع السلطة.

---

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام : «الطاغية» دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي» ص ١٠٦.

(٢) أفلاطون محاورة «الجمهورية» ٥٦٣ (قارن ترجمة د. فؤاد زكريا ص ٤٨٤-٤٨٥)

(٣) أفلاطون: محاورة القوانين ٦٩٨-أ.

لكن ما علاقة ذلك بإسبازيا؟ وماذا نقول في أمر إسبازيا معلمة فن الخطابة..؟! نقول إن أفلاطون تعلم منها الكثير من «فن الخطابة» على نحو ما تعلم سقراط، ولكن ربما كان ما تعلمه أفلاطون هو الاضرار أو الآثار السيئة التي ينطوي عليها فن الخطابة كفرع من أفرع الفلسفة. ذلك لأن الفلسفة عنده نظام من المعرفة يسعى للكشف عن الحقيقة، كما يسعى لتنوير أذهان الناس، لكن الفلسفة، من ناحية أخرى، لديها القدرة على إقناع الناس بأشياء غير صحيحة، أو قل إن لديها القدرة على طمس الحقيقة ولا سيما إذا لم يكن المستمع على قدر كاف من الذكاء- مثل سقراط أو أفلاطون- يمكنه من اكتشاف ذلك. ومن هنا تأتي أهمية نقد «الخطاب الجنائزي» الذي حفظه سقراط عن إسبازيا، وما فيه من ادعاءات وتزييف للتاريخ، وألوان من البلاغة تدغدغ مشاعر الناس بغير حق. ولعل هذا هو ما جعل أفلاطون يبدأ المحاورة بافتتاحية تنطوي على سخرية من نفاق الخطباء الذين يمتدحون المواطن بخلال ليست فيه حتى «يمسي مسحوراً بهذه الكلمات» وقد يتصور نفسه وقد أصبح إنساناً عظيماً!

ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول إن ما حفظه سقراط هو «فن الخطابة السوفسطائية» وذلك يعني قوة التأثير في الجماهير، والحديث في أمور من شأنها أن تجعل الشعب ينخدع فيظن في نفسه شيئاً آخر غير ما يعرف!

إننا إذا ما وضعنا في أذهاننا صورة أثينا عام ٣٨٦ ق.م فلا ينبغي علينا أن نقول إن هذا «التشويه للتاريخ» نابع من تعظيم الديمقراطية الأثينية، فقد أدان الأثينيون أنفسهم هذه الديمقراطية. غير أن الموضوع الأول الذي ينبغي إدانته- وهو المصدر الرئيسي للخاطبة- هو إسبازيا: هذه الأيونية «المستنيرة» التي كانت العضو النسائي الوحيد في حلقة بركليز..[1]، على ما يقول أحد أنصار هذه الوجهة من النظر، إدموند بلودو Edmund Bloedow.

(١) Quoted by Mary Ellen Waithe Op. Cit. P.79.

الخاتمة

إننا إذا ما أخذنا بوجهة النظر التي تقول إن أفلاطون كتب محاورة «مينكسينوس» للسخرية والتهكم من إسبازيا، وما تمثله من فن الخطابة السوفسطائي- وهذا أمر جائز- فسوف يترتب على ذلك عدة أمور هامة على النحو التالي:

١- سوف يعني ذلك بوضوح أن اسبازيا كانت واحدة من المثقفين اللامعين، والمفكرين المؤثرين في حياة أثينا، وأنها صاحبة عقل لماح في الموضوعات السياسية التي تهم الشعب، فضلاً عن اهتمامها بفن الخطابة.

٢- إن معنى ذلك أن نأخذ بجدية واقعة أنها تعاونت مع بركليز في كتابة خطابه الجنائزي الشهير.

٣- إن اسبازيا كانت في ذلك الوقت في مركز الحلقة الفلسفية السوفسطائية، وهي حلقة كرست نفسها لتحليل البيان وشرح وكتابة فن الخطابة.

٤- معناه أيضاً أن أفلاطون نظر إليها على أنها مصدر تهديد، وليس تهديداً شخصياً، بل تهديد سياسي وعقلي في الحياة الثقافية الأثينية.

٥- يبدو أن أفلاطون اعتبرها ممثلة لسوء استخدام الفلسفة، بل وسوء استخدام الحكمة والحقيقة من خلال سيطرتها على البيان وموهبتها في فن الخطابة.

٦- يبدو أن تهمة الإلحاد التي وجهت إليها، والتي حوكمت بسببها أمام

ألف وخمسمائة من القضاة- كانت دليلاً آخر على أن الآخرين كانوا يعتبرونها أيضاً مصدر تهديد يضاف إلى ذلك تخليد ذكراها في لوحة الجص المرسومة على بوابة مكتبة الجامعة، والتي تدل على تقدير الأثينيين لها كمفكرة أثينية في دولة المدينة.

الفصل الخامس

«ديوتيما.. معلمة سقراط!»

(من أجل هذا، يا ديوتيما، سعيت إليك، فأنا في حاجة إلى معلم، فخبريني بالله عليك..)

سقراط: المأدبة ٢٠٧

أولاً: تمهيد

إسبازيا- التي تحدثنا عنها في الفصل السابق- وديوتيما Diotima التي سنتحدث عنها في الفصل الحالي، هما المرأتان الوحيدتان اللتان ذكرتا على أنهما فيلسوفتان في المحاورات السقراطية، لكن- لسوء الطابع- أثير حولهما غبار كثيف لإبعاد خاصية التفلسف عنهما (وربما لتأكيد النقص في القدرة العقلية عند المرأة بصفة عامة)- الأولى بسبب دورها في تأليف «الخطاب الجنائزي» الذي دارت حوله محاورة «مينكسينوس» لأفلاطون، فقد نظر إليها على أنها مثل على التهكم السقراطي، والمزاج الساخر عند أفلاطون.

أما الثانية فقد قيل إنها مجرد شخصية خرافية ابتكرها أفلاطون بخياله الأدبي، وعرضها في محاورة «المأدبة» على أنها هي التي لقنت سقراط «فن الحب».

ومن ناحية أخرى هناك رواية تاريخية تقول إنها كانت تعمل كاهنة «مانتينيا .. Mantinea» وإنها عاشت حوالي عام ٤٠٠ ق.م. وإنها زارت أثينا زمن الطاعون، وإن لقاءها مع سقراط تمّ في الأعم الأغلب أثناء هذه الزيارة، وهناك شواهد من التاريخ ومن الآثار على أن «ديوتيما» شخصية حقيقية وليست خرافية كما يقول الفريق الأول.

وسوف نبدأ الحديث عن محاورة «المأدبة» لأفلاطون.

ثانياً: مادبة «أجاثون»

أما المأدبة فهي حفل أقامه الشاعر التراجيدي أجاثون Agathon حوالي عام ٤١٦ ق.م، بمناسبة فوزه بالجائزه عن أول «مأساة» له، وقد أقامها في اليوم التالي للاحتفال التقليدي مع الشعراء والممثلين[١]، وهي لهذا السبب كثيراً ما تسمى «مأدبة أجاثون».

وبعد أن تناول الحاضرون الطعام اقترح «أريكساماخوس.. Eryximachus» أن يتحدثوا في موضوع «الحب»، فوافق الجميع على اقتراحه، ودعوا «فايدروس.. Phaedrus» أن يبدأ الحديث فاستهل حديثه بأن وصف الحب بأنه إله عظيم موقر بين الآلهة والناس جميعاً ولأسباب كثيرة.

ثم عقب «بورنياس.. pauranias»- وهو شاعر شديد التعلق بأجاثون فذهب- إلى أن الحب ذو طبائع مختلفة منها النبيل، ومنها الخسيس. وهو يرجع ذلك إلى «أن هناك شخصيتين لأفروديت: الأولى: أفروديت السماوية التي يرتبط بها الحب الرفيع النبيل. والثانية: أفروديت العامية الأرضية التي يرتبط بها الحب الوضيع والخسيس. فلو كان ثمة أفروديت واحدة لجاز أن يكون ثمة جنس واحد للحب..»[٢].

ثم تحدث «أريكسماخوس.. Eryximachus». الطبيب، فوافق على أن وجود نوعين من الحب: النبيل السماوي، والخسيس الدنيء مع

(١) أفلاطون: المأدبة ١٧٣- أ.

(٢) المرجع نفسه ١٨٠- د.

بعض التعديلات، فهو يرتب فصول السنة حيث يظهر تأثير الحب بنوعيه، فإذا تغلب الأول نما الإنسان والحيوان وازدهر الزرع والضرع، وإذا ما سيطر الثاني عمّ البلاء، جاء دور القحط والجدب، وشاعت الأوبئة، وتفشت الأمراض[١].

ثم جاء دور الشاعر الكبير «أرستوفان Aristophanes» الذي ذهب إلى أن الآلهة في البداية خلقت الرجل والمرأة موجوداً واحداً له من الأيدي أربع، ومن الأرجل كذلك، وله وجهان متشابهان، ورأس يدور في جميع الاتجاهات، وله أربع أذان. وكان هذا هو المخلوق الغريب بالغ القوة، يجري بسرعة رهيبة، ويمشي إلى الوراء وإلى الأمام كما يشاء... إلخ، باختصار: كان مخيفاً حتى ركبه الغرور، فحاول أن يرقى إلى السماء، فشطرته الآلهة شطرين حتى تضعف من قوته وتخفف من غروره، وعقب شطر الإنسان الأول شطرين إلى رجل وامرأة، أخذ كل شطر يبحث عن شطره الآخر، فإذا ما التقى به تعانقا بقوة، لكأنما يريدان أن يعودا كائناً واحداً كما كانا من قبل!

ثم تحدث الشاعر «أجاثون.. Agathon»، فرأى أن الحب أصغر الآلهة[٢]، وهو مرهف الحس، رقيق الشعور، لا يحتمل الشدة ولا يطيق المكروه، ولهذا نراه يحيا في أرواح الناس وقلوبهم، فإن وجد فيها غلظة نفر منها، وابتعد عنها، لأنه لا يطيب له العيش والمقام إلا حيث يجد اللين، والرقة، والدعة، والخضوع، كما أنه يتحلى بالعفة، وضبط النفس.[٣]

---

(١) أفلاطون: المأدبة ١٨٨- أ.

(٢) يصورونه في الأساطير اليونانية في صورة غلام مجنح يحمل قوساً ونشاباً، أو طفل عابث يسدد سهام الحب إلى الشباب والعذارى، وهو عند اليونان.. Eros، وعند الرومان كيوبيد Cupid. د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول ص ٢٧٦- مكتبة مدبولي بالقاهرة.

(٣) أفلاطون : المأدبة ١٩٥- ١٩٦.

ثالثاً: ديوتيما.. Diotima

عندما نصل إلى حديث سقراط عن «ديوتيما» فإننا نصل في الواقع إلى أصعب أجزاء «محاورة المأدبة»- فيما يقول ستانلى روزن- S. Rosen في دراسته الضخمة عن هذه المحاورة[1]. فقد كانت الأحاديث السابقة كلها- ابتداءً من حديث «أريكسماغوس» و «فايدروس» وانتهاءً بحديث «أجاثون»- تمهيداً لحديث سقراط عن «الحب» وهو المحور الذي تدور حوله المحاورة. وجاء حديثه على صورة حوار بينه وبين «ديوتيما» وهي كاهنة من مدينة، مانتينيا Mantinea» في منطقة البلبونيز، ويقول سقراط إن الأثينيين يعرفون هذه الكاهنة جيداً، فهي التي استطاعت أن تدفع عنهم مرض الطاعون عشر سنوات كاملة[2]. ويذهب عالم اللغة المرموق «ولتر كرانتس.. Walther Krantz إلى أن «ديوتيما» تلقت دعوة لمساعدة أثينا في حمايتها من وباء الطاعون الذي سبق حرب البلبونيز بعشر سنوات. كما يذهب المؤرخ اليوناني «ثيوكيديدز.. Thuycudides» إلى أن النبوءات قد أجمعت على قرب وقوع ويلات الحرب والمرض. وفي مثل هذه الظروف العصيبة لا نستبعد أن تستعين دولة المدينة في أثينا بكاهنة من مكان آخر لمواجهة هذه المحن. ومن ثم فمن المرجح جداً أن «كاهنة مانتينيا» كانت موجودة في هذه الفترة (أي حوالي عام ٤٤٠ ق.م)، وأنها التقت حينئذٍ بسقراط الشاب[3].

---

(١) Stanley Rosen: Plato's Symposium. P.197. Yale University 1987.

(٢) أفلاطون: المأبة ٢٠١- حـ.

(٣) Mary Ellen Waithe: A History of Women Philosopher. Vol I.. P.108.

وليس ذلك اللقاء غريباً، ولا شاذاً، إذ يروي لنا المؤرخون أن سقراط الذي كان يحبس زوجته في المنزل، ويحتقر عقلها وتفكيرها، كان في الوقت نفسه يسعى للقاء النساء المثقفات يعلمهن أحياناً، ويتعلم منهن في كثيرٍ من الحالات فأفلاطون، وزينوفون، وغيرهما، يرويان أنه كان يسعى إلى اسبازيا رفيقة بركليز التي تحدثنا عنها في الفصل السابق، وهي أيضاً كانت امرأة أجنبية جاءت من مدينة ملطية، واستقرت في أثينا حتى أصبحت رفيقة لأعظم السياسيين في تاريخها، ألا وهو: بركليز..[١]

كما أن زينوفون.. Xenophon يروي في مذكراته أنه «عندما سمع سقراط عن امرأة جميلة في المدينة تستقبل الأصدقاء، وأن جمال هذه المرأة يفوق الوصف حتى أن المصورين يذهبون لرسمها- قال لأصحابه:»ينبغي علينا أن نذهب لرؤيتها، إذ لا يمكن أن نفهمها جيداً لمجرد الاستماع لما يرويه الآخرون». وذهب إلى منزل ثيودوتا.. Theodota ورآها وهي ترسم، وأعجب بجمالها الفتان.. وسألها فيلسوف أثينا الأكبر، من أين لك المال الذي تنفقين؟ ألديك ممتلكات: منزل يدر عليك دخل أو عبيد.. إلخ، فأجابت بأنها تعتمد في دخلها على الأصدقاء الكرماء.. إلخ، فراح يناقشها في أساليب الحياة وقيمتها.. الخ[٢], والمهم عندنا ألآن أنه إذا كان من الثابت- تاريخياً- أن سقراط بمجرد أن سمع عن «ثيودوتا» الجميلة ذهب للقائها، مع أنها من الغواني أو السراري، أليس الأقرب إلى المنطق أن يهتم أكثر بلقاء «ديوتيما» كاهنة مانتينيا إذا سمع عن وجودها في أثينا..؟ ولا سيما أن لسقراط تاريخاً طويلاً في الاصغاء لصوت الوحي الشخصي، حتى اشتهر بأن له «شيطاناً خاصاً» أو «روحاً داخلية.. Daemon، خاصة- يستشيره، وكان يعتبره إشارة من السماء، وفضلاً عن ذلك فقد استشار سقراط بالفعل

---

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام: «أفلاطون.. والمرأة»، ص ٤٠، مكتبة مدبولي بالقاهرة، (العدد الأول من سلسلة (الفيلسوف... والمرأة).

(٢) Xenophon: Memorabilia of Socrates book III. Ch XI.

الكثير من الكاهنات. وهذا واضح فيما يرويه أفلاطون على لسانه في «محاورة الدفاع»: «كان شريفون .. Chareephon صديقي منذ عهد الصبا قد سأل كاهنة دلفي لتنبئه من هو أحكم مني، فأجابت: ليس بين الرجال من يفضلنا حكمة..»(١).

وفي محاورة «المأدبة» يأتي الخادم الذي ذهب في طلب سقراط- ليقول للحاضرين: «إن سقراط واقف في رواق مجاور غير ملق بالاً لأحد، ولم يستمع لندائي...»(٢). كما أنه يصف حديث ديوتيما- في المحاورة نفسها- بأنه «حديث يقطر حكمة..»، ويقول لها «لعلك بلغت من الحكمة غايتها..»(٣). وعندما تطرح عليه سؤالاً تكون إجابته: «لو كنت أستطيع، يا ديوتيما، الجواب، ما أعجبت بحكمتك كل هذا الإعجاب، وما كنت أقف منك موقف التلميذ من الأستاذ لأقتبس منك، وأتلقى عنك معرفة الحب..»(٤).

ذلك كله يجعلنا نرجح أن لقاء سقراط و «ديوتيما» كان حقيقياً، وليس مجرد قصة اختلقها أفلاطون. لكن ذلك يطرح سؤالاً أسبق: أيدل ذلك على أن «ديوتيما» كانت شخصية حقيقية واقعية وليست مجرد شخصية وهمية، أو خرافية خلقها أفلاطون بخياله الأدبي، ولا سيما وأنه كان أديباً موهوباً..؟!

---

(١) أفلاطون: محاورة الدفاع ٢١ حـ - وانظر أيضاً محاورات أفلاطون ترجمة د. زكي نجيب محمود ص ٥١ لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٦٦.

(٢) أفلاطون: المأدبة ١٧٥-١.

(٣) المرجع نفسه ٢٠٨.

(٤) المأدبة ٢٠٦ ب. (وانظر أيضاً الترجمة العربية بقلم وليم الميري ص ٦٤ دار المعارف بالقاهرة).

رابعاً: ديوتيما.. شخصية خرافية!

عندما جاء دور سقراط للحديث عن الحب في محاورة «المأدبة» قال:

«سأروى لكم حديثاً عن الحب سمعته من امرأة من مانتينا.. Mantinea اسمها «ديوتيما» وهي صاحبة أعمال جليلة.. الخ»[1]

فهل كانت هذه المرأة شخصية حقيقية تعلم عنها سقراط «فن الحب» كما يقول، أم أنها شخصية أسطورية خيالية ابتكرها ذهن أفلاطون؟ من الأهمية بمكان أن نجيب عن هذا السؤال، وأن ندرس هذه المشكلة قبل أن نعرض لفلسفة «ديوتيما».

سوف نبدأ أولاً بعرض الحجج التي يرى أصحابها أنها تؤيد بقوة القول بأن «ديوتيما» ليست شخصية تاريخية حقيقية، وإنما هي شخصية خرافية. وهذه الحجج تتلخص في النقاط الآتية:

١- ليس من طبيعة أفلاطون الزج بامرأة لتقوم بدور رئيسي في الحوار، كما فعل مع ديوتيما في محاورة المأدبة.

٢- لا يمكن أن نأخذ ما يقوله سقراط مأخذ الجد، فهو لم يتعلم شيئاً قط من أية امرأة، والأرجح أن تكون آراء «ديوتيما» هي نفسها آراء سقراط.

٣- لا بد أن ننظر إلى محاورة المأدبة على أنها نموذج رائع لمواهب أفلاطون الأدبية بوصفه «روائياً» وذلك يعني أن شخصية «ديوتيما»

---

(١) أفلاطون: المأدبة ٢٠١- أ.

خلقها أفلاطون الأديب، واختفى وراءها ليقول ما يريد.

٤- ليس هناك ذكر لشخصية «ديوتيما» في المصادر القديمة يمكن أن نرجع إليه سوى محاورة «المأدبة».

٥- ربما كانت شخصية «ديوتيما» من خلق سقراط نفسه، أو أن تكون نموذجاً آخر «لتهكم سقراط الشهير»! فسقراط عندما يصف «ديوتيما» بأنها «كاهنة» وصاحبة أعمال جليلة، استطاعت أن تدفع الطاعون عن الأثينيين عشر سنوات [1]- لم يكن سوى تهكم، أعني أننا لا بد أن نفهم ذلك كله، على أنه ضرب من السخرية، ولون من التهكم السقراطي الشهير. فسقراط المتهكم العظيم كان يؤمن بآراء «ديوتيما» عندما كان شاباً، ثم تخلى عنها في مرحلة النضج، ومن هنا فقد أراد- بضرب من التهكم- أن ينسب آراءه المبكرة إلى شخصية أخرى!

---

(١) أفلاطون: المأدبة ٢٠١-أ.

خامساً: ديوتيما .. شخصية حقيقية!

الحجج السابقة هي التي يدعم بها أصحاب الفكرة القائلة بأن «ديوتيما» شخصية خرافية- موقفهم، وينتهون منها إلى نتيجة هامة هي أنه ليس ثمة امرأة بهذا الاسم، وبالتالي فإن ما قيل من آراء في فلسفة الحب إما أنها كانت لسقراط في شبابه، أو هي آراء أفلاطون.

ويذهب الفيلسوف الأفلاطوني أ.تيلور.. A.E.Taylor (١٨-١٩٤٥) إلى القول بأن سقراط أراد في الواقع، أن يحول الحديث نفسه إلى جدل أو حوار أو فكر أصيل، بأن يضعه على لسان امرأة اسمها «ديوتيما»- وهي كاهنة من مانتينيا.. Mantinea- وهو يروى مسار السؤال والجواب الذي دار بينه وبين هذه الكاهنة، وهو الحوار الذي فتحت فيه عينيه ليفهم الأسرار الحقيقية للحب[1].

ويستطرد «تيلور» ليرد على فكرة «ديوتيما» الشخصية الخرافية» التي خلقها خيال أفلاطون الأديب فيقول: «ومن ناحية أخرى» ليس في استطاعتي أن أتفق مع كثير من الباحثين المحدثين الذين ينظرون إلى «ديوتيما» على أنها شخصية خرافية، ذلك لأن إدخال شخصيات خرافية أو أسماء وهمية في المحاورة هو- في رأيي- حيلة أدبية كانت مجهولة تماماً لأفلاطون- كما سبق أن ذكرنا في فصل سابق..»[2].

أكانت كاهنة أم فيلسوفة، فهو قول يمكن الرد عليه، ودحضه من أفلاطون نفسه الذي هو مصدر ثقة للمعلومات عن تاريخ سقراط، فهو يبين لنا في كثير من المحاورات أن سقراط كان شخصية متدينة بعمق،

---

(١) A.E. Taylor plato. The Man and His Work Methuen. 1926. P.224.

(٢) Ibid.

وأنه كان صاحب تاريخ طويل في الإصغاء إلى صوت العرافة أو الكهانة، ونحن مرة أخرى نستشهد بتيلور، الذي يقول في هذا السياق: «منذ قدم لنا سقراط قصة صديقه «شريفون» مع كاهنة دلفي كدليل في دفاعه أثناء المحاكمة، ونحن نستطيع أن نزعم أن سقراط لم يكن يمانع قط في استشارة الكاهنات، بل إنه كان يؤمن إيماناً كاملاً بتعاليمهن.. وفضلاً عن ذلك فإن استشارة «شريفون» لكاهنة دلفي، وقعت خلال السنوات العشر التي تزعم أن لقاء سقراط وديوتيما قد تم فيها.

وفضلاً عن ذلك فإن عادة استشارة سقراط «للمرأة» وأخذ النصيحة من الكاهنة وردت أيضاً في محاورة «مينون Meno» حيث يقول: «ولقد سمعت عن رجال ونساء حكماء متبحرين في الأمور الإلهية، وهم طائفة من الكهنة والكاهنات الذين بذلوا جهوداً مضنية لفهم مبرر Rationale ما يقومون به من سلوك..»[١].

ولقد قام عالم اللغة الألماني «ف. كرانتس.. W. Kranz» في مقالة له عن «ديوتيما» برسم خط موازٍ تماماً لشخصية «ديوتيما» الحديثة عند الشاعر الرومانسي المرهف هلدرلين.. Helderlin (١٧٧٠-١٨٤٣) فسقراط وهلدرلين كلاهما تلميذ يتعلم من أستاذته الحب والحكمة. والفرق بينهما هو الفرق بين الفيلسوف الماكر الساخر المتسامح، العجوز الأفطس الأنف، والشاعر القلق الوحيد الرائع في جماله وشبابه، والفرق بين المعلمتين هو كذلك الفرق بين عرافة وكاهنة تفتي بالقول الفاصل بعد اختلاف الآراء في شأن الحب- ولا بد أنها كانت عجوز حتى تؤتي هذه الحكمة- وبين شابة هادئة رقيقة تفيض عيناها وقلبها الطيبة، والحنان، والفهم، للشاعر الذي ألقت به المقادير في طريقها، وشاءت أن يعيش في بيتها، ويروي عطشه الأبدي من نبعها، ويغرق كذلك آخر الأمر فيه[٢].

---

(١) Plato: Meno: 18- B.

(٢) د. عبد الغفار مكاوي : «هلدرلين»- نوابغ الفكر الغربي- العدد رقم ٢١- دار المعارف بمصر ص ٨٨-٨٩.

سادساً: دليل من الآثار

في المتحف القومي بنابلي صندوق صغير من البرونز وضعت فيه نسخة أثرية من محاورة المأدبة، وقد نقشت صورة جميلة على غطاء الصندوق، ويصف «أتوجان.. Otto Jahn «- أحد المتخصصين في النقوش الكلاسيكية القديمة- الزخارف التي نقشت على هذه الصورة على النحو التالي:

«تعبر الصورة عن منظر بسيط ليس فيه سوى مقعد، بلا ظهر، جلست عليه امرأة اتشحت بثوب طويل فضفاض، كما طرحت على جسدها رداء يغطي الجزء الأسفل منه، ووضعت على رأسها تاجاً يشبه الخوذة لا يكشف إلا عن جبهتها. ومن الواضح أن المنظر يصور امرأة منهمكة في الحديث، وقد استغرق انتباهها كله الموضوع الذي تتحدث فيه. وفي استطاعتنا أن نقول- دون أن نخشى الوقوع في الخطأ- إن ذهن المرأة كان مستغرقاً تماماً وهي توجه حديثها إلى رجل يقف أمامها.

أما الرجل فهو يقف مرتدياً رداءً بسيطاً يلتف أحد أطرافه حول ذراعه الأيسر، أما الصدر، والكتفين، والذراع الأيمن فهي عارية تماماً، وهو يميل برأسه قليلاً على اليمين، وهو حاسر الرأس، عاري القدمين، أفطس الأنف، وعيناه غائرتان تحت حاجب كث وشفاه غليظة، الخ، وبعد أن يقارن «أوتوجان» بين هذا النقش البرونزي، ونقوش أخرى من عصر أفلاطون، وبعد أن يصف شخصية «الايروس Eros» (الحب) الذي يبدو ظاهراً بين الرجل والمرأة يختتم حديثه قائلاً:

«لست أشك في أننا هنا أمام سقراط الذي تركزت عيناه وشد انتباهه إلى كلمات «ديوتيما» التي راحت في حديث حتى تعلمه طبيعة

الحب، أو كما قالت هي نفسها «أسرار الحب» وبينما يستحوذ عليهما هذا «التأمل المقدس» يقترب منهما إله الحب نفسه (الإله إيروس.. Eros)[١] في رداء كهنوتي يرتديه رجال الدين اثناء تأديتهم للطقوس والشعائر الدينية».

ويقول باحث آخر هو «بولينو منجاتسيني.. Palino Mangzzini إن صورة الرجل الموجود على هذا النقش هي نفسها صورة سقراط على نحو ما يجسدها تمثالان من القرن الرابع قبل الميلاد. وبمعنى آخر إن الصورة رسمت على غرار تمثال سقراط الذي أبدعه الأثينيون، في حين يبدو إله الحب إيروس Eros على هيئة كائن أسطوري بأجنحة ملاك في مواجهة صورتي سقراط وديوتيما.

وعلى الرغم من أن «منجاتسيني» يقول صراحة إننا لا نعرف- بمعزل عن هذا الدليل- ما إذا كانت هناك شخصية حقيقية أسمها «ديوتيما»، ولا ماذا كانت عليه علاقتها بسقراط، فإنه يستطرد قائلاً:

«.. بالنسبة لأولئك الذين قرأوا محاورة «المأدبة لأفلاطون، فلا شك أن ديوتيما كانت شخصية حقيقية تشبه تلك الصورة المنقوشة..»

وفضلاً عن ذلك فإننا نراه يزعم أن الصورة الحقيقية لسقراط و «ديوتيما» الموجودة على غطاء الصندوق البرونزي، والتي تصور المأدبة- لا بد من مقارنتها بالصورة البرونزية الأخرى التي تغطي جانبي الصندوق، والتي يرجع تاريخها إلى حوالي ٣٤٠-٣٣٠ ق.م. وأن النقوش المرسومة «للمأدبة». ربما كانت نوعاً من تخليد ذكرى الحفل الذي أقامه «أجاثون»- أو ربما كانت بمناسبة العيد المئوي للقاء سقراط

---

(١) (الحب الشهواني) هو إله الحب في الأساطير اليونانية ابن أفروديت إلهة الجمال وإريس إله الحرب- راجع في ذلك بالتفصيل: د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول- مكتبة مدبولي بالقاهرة ص ٣٥٣.

مع «ديوتيما» الذي تم عام ٤٤٠ ق.م. ولا سيما وأن ذلك لم يظهر إلا بعد وفاة أفلاطون نفسه بحوالي سبعة عشر عاماً، وعندما تولى ابن أخته «سبيسبوس.. Speusippus» رئاسة الأكاديمية. وليس من المستبعد أن تكون شخصية ديوتيما شخصية حقيقية، فهي ليست وهمية من صنع الخيال، ولا هي شخصية أسطورية، ومن المؤكد أن أفلاطون كان يعرف ما إذا كانت شخصية حقيقية أم لا. وإذا كان أفلاطون يعرف ذلك، فكيف يمكن أن يخطئ تلاميذه في موضوع شخصية ديوتيما، وهي التي لا شك أنهم ناقشوا حديثها، وساعدوا في إعداد هذه النسخة الأثرية من المحاورة.. ؟!

الواقع أن اكتشاف هذا الصندوق البرونزي يقدم لنا دليلاً أثرياً هاماً يدعم بقوة القول بوجود «ديوتيما»، وإنها شخصية حقيقية، وفضلاً عن ذلك كله فلدينا شهادة مكتوبة نعرض لها فيما يلي[1].

(١) قارن أيضاً كتاب ماري إلين ويث سالف الذكر ص ١٠٥.

سابعاً: شهادة مكتوبة

لم يرد ذكر لاسم «ديوتيما» لمدة خمسة قرون، لا في مسرحية، ولا في أي عمل أدبي، ولا في كتاب من كتب التاريخ، أو موسوعة أو كتابات فلسفية، فتعاليمها، وفلسفتها، في «الحب الشهواني» لا تذكر إلا في محاورة أفلاطون الشهيرة «المأدبة».

ثم بدأت تظهر من جديد في القرن الثاني الميلادي مع شخصيات نسائية أخرى مثل «ثارجليا... Thergelia»، واسبازيا.. Aespasia» في مسرحية كوميدية للكاتب اليوناني «لوسيان.. Lucian» عنوانها «الخصّي.. The Eunuch» تبدأ بتقرير حقيقة واقعية عن «ديوتيما.. Diotima» و«ثارجليا.. Thargelia» و إسبازيا.. Aespasia» عندما يستشهد بهن الكاتب على أن المرأة يمكن أن تكون فيلسوفة، فهؤلاء «نساء فلاسفة في العالم القديم». والواقع أن الكاتب يذكرهن في سياق التماس يتقدم به «الخصّي» إلى «ديوقليس.. Diocles»، ليسمح له أن ينال وظيفة رسمية كمعلم للفلسفة، وكان ينظر في ذلك الوقت إلى «الخصّي» على أنه «مخنث» أعني أنه ليس رجلاً على الأصالة، بل هو أقرب إلى النساء ومن هذا المنطلق كان التماس «الخصّي» العمل في حقل الفلسفة، فإذا كان من الثابت، تاريخياً، أن هناك نساء فلاسفة، عرف عنهن الاشتغال بالفلسفة وتدريسها، لا فقط أنهن كن تلميذات يدرسن الفلسفة عند هذا الفيلسوف أو ذاك- إن صح ذلك كله، كان من حق «الخصّي» وهو «الرجل- المرأة» أن يحظى بالموافقة على أن يكون معلماً للفلسفة، وأن يسمح له بتشكيل مجموعة من التلاميذ يدرسون على يديه، وها هنا نراه يحتج مشيراً إلى ثلاثة من النساء الفلاسفة هن: «إسبازيا» و «ديوتيما» و «ثارجليا»!

وربما كان الكاتب يريد أن يسخر من «الخصّي» و «من النساء.. الفلاسفة» على حد سواء! ربما أراد أن يقول إن النساء الفلاسفة أشبه «بالخصّي» الذي يحمل صفات الأنثى، ويريد أن يتشبه بالرجال فيقوم بتدريس الفلسفة.. لكن ذلك ليس هو ما حدث، بل على العكس إن المحور الأساسي للحجة يدور حول ما إذا كان «الخصّي» يمكن أن يعد معلماً مناسبا للغلمان في سن الحلم...؟! فليس ثمة سوى الإشارة إلى أن «ديوتيما» و «ثارجليا.. Thargelia» و «إسبازيا» كن فلاسفة يمارسن التفلسف بالفعل، وليس هناك بالنسبة لديوتيما- بصفة خاصة- سوى الإشارة إلى أنها كاهنة فيلسوفة ماتت منذ مدة طويلة[١]!!

وهناك كتاب آخرون في القرن الثاني الميلادي، أشاروا على «ديوتيما» إشارات مباشرة دون إثارة أدنى شك في وجودها التاريخي وفي شخصيتها الحقيقية، فأرستديز .. Aristides يشير إلى «ديوتيما» في خطبه.. Orations، وكذلك فعل احد الشراح في رسائله إلى أريستديز[٢].

كما أشار إليها في القرن الثاني الميلادي أيضاً «ماكسيموس.. Maximus» الصوري (من مدينة صور Tyre على الساحل الجنوبي اللبناني) حوالى عام ١٢٥- ١٨٥ ميلادية الذي ذكر ديوتيما ثلاث مرات.

وفي استطاعتنا أيضاً أن نشير إلى كلمنت السكندري (١٥٠-٢٢٣) الذي عاش في أواخر القرن الثاني، وأوائل القرن الثالث الميلادي، والذي يذكر «ديوتيما» أيضاً في مؤلفاته.

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي نجد ثمستيوس .. «Themisyius» (٣١٧-٣٨٨) السياسي اليوناني، أو شارح مؤلفات أرسطو- يذكر «ديوتيما» على أنها معلمة سقراط.

---

(١) Mary Ellen Waithe: Op. Cit. Vol. 1. P.105.

(٢) Mary Ellen Waithe. P.106.

بل إننا نجد برقلس.. Proclus آخر فلاسفة الأفلاطونية المحدثة (٤١٠-٤٨٥) في نهاية القرن الخامس الميلادي- يشير ثلاث مرات إلى «ديوتيما» ويقول أنها شخصية حقيقية كانت موجودة في عصر أفلاطون، وأنها ليست مجرد شخصية خيالية.

وهكذا نجد أنه انقضى تسعة عشر قرناً منذ عصر أفلاطون، أي منذ التاريخ الذي كتبت فيه محاورة «المأدبة» حوالي عام ٣٨٨ ق.م. حتى عام ١٤٨٥، عندما نشر الفيلسوف الايطالي «مارسليو فسينو... Marcilio ficino» [١] «خطبه» لا نجد فكرة واحدة تقول إن «ديوتيما.. Diotima» لم تكن شخصية حقيقية، وأنها التقت بسقراط، ودار بينهما حوار شهير هو الذي سجله أفلاطون في محاورة «المأدبة». وهكذا ظلت «ديوتيما» لمدة تسعة عشر قرناً- كما يؤكد الباحثون، والفلاسفة، وأدلة الآثار- شخصية حقيقية لها وجود تاريخي. وربما جاءت ملاحظة الفيلسوف الإيطالي «فسينو» من حكم سابق كان في ذهنه، وربما مصدره العادات والتقاليد السائدة، فحواه: أن من العبث الحديث، أو حتى مجرد التفكير في وجود «نساء.. فلاسفة»، أو أنه يصعب جداً أن نتصور أن تكون هناك «امرأة.. فيلسوفة» وكأن الكلمتين متناقضتان لا يلتقيان في عبارة واحدة لنصف به موجود إنساني!

ولقد كان هذا الحكم المسبق هو القاعدة التي اعتمدت عليها القرون الخمسة التالية، إذ بدأت تروج الفكرة التي تقول إن «ديوتيما» شخصية خلقها خيال أفلاطون الأديب، وإنها ليست سوى دليل على براعة هذا الفيلسوف وقدرته الأدبية، دون أن يكلفوا أنفسهم عبء الرد على الأدلة التي تحدثنا عنها فيما سبق، ولا سيما الدليل المستمد من الآثار![٢].

---

(١) فيلسوف إيطالي (١٤٣٣-١٤٩٩) عرف على أنه أفلاطوني كلفه «كوزيمو دي مديتشي» بترجمة أعمال أفلاطون إلى اللاتينية، وكذلك أعمال بعض فلاسفة الأفلاطونية المحدثة.

(٢) Mary Ellen Waithe: A History of woman Philosophers vol. 1. p.106- 108 Kluwer Academic Publishers. 1992.

ثامناً: نظريات ديوتيما...

١- طبيعة الحب:

تذهب «ديوتيما» فيما يروي سقراط- إلى أن للحب طبيعة خاصة تتصف بما يمكن أن نسميه «بالوسطية»، فلا هو جميل ولا هو قبيح، ولا هو خير ولا هو شر، بل هو وسط بين هذا وذاك، فكما أنه ثمة حالة للعقل بين الحكمة والجهل، وهي أن يكون للمرء معتقدات صحيحة لكنه لا يستطيع البرهنة على صحتها، فكذلك ليس الحب جميلاً ولا خيراً، وليس بقبيح ولا شرير، لكنه «بين بين»، كما أنه بين الكائن الفاني والموجود الأزلي، وهو نصف إله ونصف إنسان، إنه رسول الآلهة إلى الناس، ومبعوث الناس إلى الآلهة، يرفع إلى الآلهة صلوات الناس، ودعاءهم، وضحاياهم، وقرابينهم، وينقل إلى الناس من الآلهة الأوامر والنواهي، والثواب، والجزاء، ولما كان ذا طبيعة مشتركة فهو يستطيع أن يعبر البرزخ الذي يفصل دنيا الناس عن عالم الآلهة. وبذلك لا ينقسم الكون إلى قسمين منفصلين تمام الانفصال[1].

٢- مولد الحب:

وتذهب «ديوتيما» إلى أن الخصائص المتناقضة في طبيعة الحب:

كالجمع بين الوجود الفاني والوجود الأزلي، والجمال والقبح، والخير والشر، والحكمة والجهل، ترجع في النهاية إلى مولده، وهي تروي في تفسير ذلك القصة الآتية: -

---

(١) أفلاطون: المأدبة ٢٠٢- جـ (أنظر أيضاً الترجمة العربية للدكتور وليم الميري- دار المعارف بمصر ص ٦٠).

أرادت الآلهة أن تحتفل بميلاد آلهة الجمال والجنس «أفروديت Aphrodite»- فأقام كبير الآلهة «زيوس.. Zeus» وليمة كبرى حضرها: «بوروس.. Poros» إله الغنى، وبعد العشاء تسللت بنيا.. Penia «الحاجة أو الفقر» إلى تلك الوليمة تستجدي شيئاً، ووقفت بجوار الباب، وكان «بوروس»- إله الغنى والثراء- قد سكر لفرط ما شرب من الخمر الإلهية، فخرج إلى صديقه «زيوس»، وغلبه النعاس فنام تحت شجرة، وفكرت «بنيا» في أن تخفي بعض ما تعانيه من بؤس وشقاء بأن تحمل طفلاً من «الغنى»، فضاجعته وحملت «بالحب»! فالحب «إذن، حُمِلَ به في الاحتفال بمولد افدوديت إلهة الجمال، ولذلك تجد فيه شوقاً عارماً إلى الجمال، ولما كان أبوه «الغنى» وأمه «الفقر» كان الحب يحمل هذه الخصائص المتناقضة[1]، فهو فقير معدم، يرقد على الأرض، وفي الأزقة والحارات، والطرقات.. الخ، ذلك ما ورثه عن أمه، لكنه من ناحية أخرى، يسعى دائباً إلى الخير والجمال: جسور، مقدام يطلب الحكمة ويسعى إلى العلا! وهذا ما ورثه عن أبيه، فليس بدعاً أن ترى رجلاً فقيراً يحب امرأة غنية أو العكس، فتلك هي خصال الحب: إنه مركب من الغنى والفقر، من الجهل والحكمة، من القوة والضعف، من «بنيا» و «بوروس»[2]!!

والحب أيضاً هو حب الحكمة: لأن الحكمة شيء جميل، فالحب هو حب الجميل، لأنه حمل به في الاحتفال بمولد «أفروديت» فتولد فيه شوق عارم إلى الجمال، ولكن لما كان حباً للحكمة، فإن ذلك يعني انه لا هو حكيم، ولا هو جاهل، بل هو وسط بين الحكمة والجهل، وتلك نتيجة أخرى ترتبت على مولده فأبوه حكيم حاذق (الغنى والثراء) وأمه جاهلة عاجزة (العوز والفقر والحاجة)!

---

(١) المرجع نفسه وانظر أيضاً: د.إمام عبد الفتاح إمام «الحب.. أنواع» في كتابه «أفكار.. ومواقف» ص ٣١٣- مكتبة مدبولي بالقاهرة.

(٢) د. إمام عبد الفتاح إمام «أفكار.. ومواقف» ص ٣١٤، مكتبة مدبولي بالقاهرة.

٣- ما يؤديه الحب للناس:

ترى «ديوتيما» أن الحب هو حب الجمال تبعاً لمولده- كما سبق أن ذكرنا- ووفقاً لطبيعته، فإذا تساءلنا، ومم يتألف الجمال..؟! أو ما هي غاية الحب التي يسعى إليها محب الجمال..؟! كما أجابت ديوتيما: غايته امتلاك الأشياء الجميلة، فإذا عدنا نتساءل: وبم ينتفع من يمتلك الجمال؟ كانت الإجابة هي طرح سؤال آخر: وما الذي يحققه ممن يحصل على الخير؟ فالحال مع الجمال هي نفسها حال الخير، والإجابة في الحالتين واحدة: إنه يحقق لنفسه السعادة، فالسعادة هي في امتلاك الخير. وقل نفس الشيء في امتلاك الجمال، فالسعادة هي الغاية في الحالتين، ولا يمكن لنا أن نتساءل لم يريد أن يكون المرء سعيداً..؟!

ذلك لأن السعادة هي الغاية النهائية لكل فعل بشري، وهي الهدف الأقصى لكل سلوك إنساني.

٤- الحب..أنواع!

لكن: هل يرغب الناس جميعاً في امتلاك الخير؟ وهل الحب عام بين جميع الناس..؟ وإن صلاح ذلك، فلم نجد بعض الناس يحب، وبعضهم الآخرى لا يحب؟

ترى «ديوتيما» أننا- في العادة- نقتطع «نوعاً» من الحب ونطلق عليه اسم «الحب» في حين أن كلمة «الحب» تطلق على جنس، أو نوع أعم وأشمل من هذا الاستخدام الضيق، وربما أطلقنا أسماء مختلفة على أنواع الحب الأولى، وبمعنى آخر «الحب» اسم جنس يطلق على كل رغبة في الخير والسعادة. وتلك هي حقيقة الحب القوي الغلاب. ولكن تلك الرغبة تعبر عن نفسها بوسائل مختلفة، فعند بعض الناس تتجه «الرغبة» نحو حب المال، وعند البعض الآخر تتجه نحو حب القوة البدنية، وعند فريق ثالث نحو حب «الحكمة» لكننا، عادة، لا نقول عن هؤلاء أنهم «محبون» لأننا نقصر صنع الحب على من تتجه عواطفهم اتجاهاً معيناً فنسميهم محبين.

٥- كيف يعبر الناس عن الحب؟

فرغنا من تعريف الحرب وبيان طبيعته، وعلينا الآن أن نبحث: كيف يفصح الناس عن رغبتهم في الامتلاك الدائم للخير، إذا سلمنا بأن الناس جميعاً يحبون الخير، ويهدفون دائماً إلى امتلاكه.

أ- ولادة ما هو جميل:

تذهب «ديوتيما» إلى أن الولادة على نوعين، فهي قد تكون بالجسد كما تكون عن طريق الروح. فعندما يصل الإنسان إلى مرحلة النضج، فإنه يشعر بالرغبة الطبيعية للولادة، ولكنه لا يستطيع ذلك إلا عن طريق الجمال لا القبح، فثمة شيء إلهي في تلك العملية، ففي الحمل والولادة يصيب المخلوق الفاني حظاً من الخلود. ولا يمكن أن تتم العملية في غير انسجام. ولا يتفق القبح مع ما هو إلهي، في حين ينسجم معه الجمال، ولذلك كانت آلهة الجمال هي الآلهة التي ترعى الولادة، وعندما يشعر المرء بالآم الوضع، فإنه يتعلق بالجمال، ويحس بالسكينة، ويشعر بالاسترخاء اللذيذ، وذلك كله ييسر الولادة ويسهلها. أما القبح والدمامة فإنهما يحدثان نقيض ذلك، إذ ينقبض المرء، وينطوي على نفسه متألماً قانطاً، وتتعسر ولادته، ويتحمل آلام الحمل، ولا يضع مولوده، وهكذا نجد أن المرء حين يكون حاملاً، وإذا جاءه المخاض، فإنه ينجذب بقوة نحو الجمال، لأن الجمال يعينه على تحمل آلام المخاض[١].

وقد يشعر القارئ بصعوبة في متابعة هذه الفكرة التي تعرضها ديوتيما على سقراط، وعلاقتها بالتعبير عن الحب، لكن الفكرة ليست على هذه الدرجة من الصعوبة، فالحب الجنسي الذي يتجه نحو المرأة يهدف إلى ولادة نسل جديد يكرر الرجل. أما حب الأفكار فهو يستهدف ولادة روحية هي اعطاء أفكار جديدة، وهذه قد تكون عند

---

(١) أفلاطون: المأدبة ٢٠٦- جـ (وانظر ترجمة وليم الميري ص ٦٤-٦٥).

الرجل، «فالحمل» هنا حمل فكري يقدم لنا نسلاً فكرياً، ولكن «الولادة» هي التعبير عن الحب في الحالتين، ولم تكون الولادة هي غاية الحب؟ الجواب هو أن الولادة هي التي تؤدي إلى الخلود الذي يسعى إليه الموجود الفاني، فسواء أكانت ولادة جسدية لنسل بشري جديد أم ولادة روحية لأفكار جديدة فهي في الحالتين سعي إلى الخلود: خلود الإنسان عن طريق أولاده، أو خلوده عن طريق أفكاره، ولما كان الحب هو الامتلاك الدائم كالخير كما قدمنا، فلا بد أن يرغب في الخلود رغبته في الخير، ويلزم عن ذلك أن يكون الحب هو حب الخلود كما هو حب الخير. وهذا تعبير آخر عن الحب، أو صورة أخرى من صوره الكثيرة.

ب- علة الحب والرغبة:

تذهب «ديوتيما» إلى إن ما يحدث للحيوان جدير بالتدبر والإمعان، فالحيوانات جميعاً من طير ووحوش ودواب .. الخ، عندما تتملكها الرغبة في التناسل، تقع فريسة لمرض الحب للاتصال بعضها ببعض، وتسعى بعد ذلك لتوفير الغذاء لصغارها، وفي سبيل هذين الهدفين نجدها تتقاتل، وتتصارع حتى الموت، وتعاني ما تعاني من جوع وألم، كل هذا من أجل حفظ النسل وامتداد الجنس، وربما قلنا أن «العقل» هو الذي يدفع البشر إلى مثل هذا السلوك، ولكن ذلك تفسير خاطئ، فما يصدق عن الحيوان يصدق كذلك على الإنسان فطبيعة الفاني أنه ينشد البقاء والخلود، وسبيله إلى ذلك الولادة والتناسل، فالولادة هي التي تحل فرداً مولوداً محل فرد ميت، وهكذا يظل الفرد يخلق كائناً جديداً، يكون امتداد له، تماماً مثلما يفقد خلايا من جسمه ويجدد خلايا أخرى، وتمتد عمليات التجديد هذه إلى شعره، ولحمه وعظمه، ودمه، أعني إلى جسده كله، وهي كذلك تمتد إلى روحه أيضاً: فشخصية الفرد لا تثبت على حال واحد، كما أن عاداته لا تتجمد على وتيرة واحدة، ولا رغباته، ولا مسراته وآلامه ومخاوفه وآماله- فلا شيء يثبت من ذلك قط على ما هو عليه، بل هناك جديد باستمرار، وهناك مرونة، والجديد منها لا يزال يخلف القديم.

جـ- المعرفة:

وتقول «ديوتيما» إن ما يحدث لأجزاء المعرفة جدير بالملاحظة: فلا شيء من المعرفة يختفي تماماً، كما أننا لا نحتفظ بهويتنا فيما يتصل بالمعرفة أكثر مما نحتفظ بها في الأمور الأخرى، بل إن كل جزء من أجزاء المعرفة يخضع لعملية التغيير والتبديل التي يخضع لها لجسم، وعملية التذكر نفسها تنطوي على معنى انفصال المعرفة عنها، فالنسيان هو إفلات المعرفة، والتذكر هو الاحتفاظ بها عن طريق إحلال فكرة جديدة محل الفكرة التي فقدت، وهكذا ترانا نخلع على المعرفة هوية وهمية متصلة. وهكذا يتحقق للموجودات الفانية البقاء والخلود. فهي ليست كموجودات خالدة على نحو ما هي عليه، فذلك مقصور على الآلهة وحدهم، بل بعملية تعويض ما يخسر الجنس من أفراد بأفراد آخرين.

د- السعي نحو الخلود:

الكائن الفاني يريد، إذن، أن يحقق لنفسه البقاء والخلود عن طريق النسل الجديد، فهو في ذاته لا يستطيع أن يكون خالداً، فهو ليس إلهاً ذا وجود دائم، بل هو موجود فإن، يقوم بتعويض ما يخسر، فإن خسر جسده كله كرره في نسله، وعلى هذا النحو يستطيع القانون المشاركة في الخلود بطريقتهم الخاصة. وكل كائن حي يحفظ نفسه بالطبيعة على هذا النحو، ومن هنا كان السبب الذي يجعل الفرد مشغولاً بالحب لكي يحقق لنفسه البقاء والخلود. إن حب الشهرة والمجد يؤثر في الناس تأثيراً قوياً لكن حب الخلود شيء مختلف، لأنه يجرفهم نحوه حتى أنهم لا يأبهون بالأخطار المحدقة بهم، بل إنهم يضحون بحياتهم إذا دعت الضرورة أكان يمكن لـ «إلكستيس..»[1] أن تموت في سبيل زوجها

---

(١) الكستيس.. Alecstis: زوجة أدميتوس .. Admetus ملك تساليا الذي أصيب بمرض عضال، وتمنى على الآلهة أن تمنحه الخلود، وتبعد عنه شبح الموت، فأجابته الآلهة إلى طلبه بشرط أن يأتي بـ «بديل» من أهلِ

«أدميتوس .. Admetus» ملك تساليا، أو يقدم اخيل على الموت في سبيل صديقه[1] «كودروس.. Kodros» ملك «أتيكا» لينقذ بلاده من غزو الدوريين[2]، وليحفظ ملكه لأبنائه أكان يمكن لهؤلاء جميعاً أن يموتوا لولا يقينهم من خلود ذكراهم..؟ كلا إن الرغبة في المجد هي التي تدفع

= بيته يموت نيابة عنه إذا حضرته الوفاة، وهنا تقدمت زوجته المخلصة «الكستيس» فضحت بنفسها لكي ينجو زوجها من الموت. وهكذا ماتت الزوجة الوفية، فداء لزوجها الملك، وعندما مر هرقل بتساليا وجد الملك يبكي زوجته الوفية، ووجد شعبه من حوله يبكي هذه الزوجة، فهبط البطل إلى ظلمات الدار الآخرة، وصارع حارسها الجبار، وعاد بالمرأة المخلصة إلى زوجها، فسعدت المملكة بأسرها، قارن أيضاً استشهاد فايدرس بهذه الأسطورة في بداية محاورة «المأدبة» ١٧٩ جـ وانظر د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول ص ٦٥- ٦٦ مكتبة مدبولي القاهرة.

(١) اخيل .. Achilles: بطل ونصف إله في أساطير اليونان- كان قوياً لدرجة جعلته يقتل الأسود والنمور، ويصطاد الآبل بلا شبك! وأخيل في الإلياذة هو البطل العظيم في حرب طروادة الذي تفوق في سلسلة من المعارك، غضب من «أجاممنون» قائد الحملة عندما استولى على محظيته واعتزل في خيمته بعيداً عن الحرب، لكن عندما بلغه نبأ مقتل صديقه باتروكليس .. Patrocles في القتال انتابه نوبة جنونية، فأسرع إلى اصلاح ذات البين بينه وبين أجاممنون، وخرج اليوم التالي لقتال الطرواديين، ويصرع بطلهم الأكبر هكتور .. Hector، لكن باريس Paris تمكن من قتل أخيل بمساعدة الإله أبولو، راجع القصة بالتفصل د.إمام عبد الفتاح إمام» معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول، مكتبة مدبولي بالقاهرة ص ٣٧ وما بعدها.

(٢) كودروس .. Kodros: آخر ملوك أثينا في الأساطير اليونانية، ضحى بحياته، بسبب النبؤة التي وعدت الأثينيين بالنصر والخلاص من غزو الدويين إذا قتل الملك على أيدي أعدائه، فكانت تضحية الملك لإنقاذ البلاد. وللاحتفاظ بالعرش لأبنائه من بعده.

الإنسان إلى العمل الفذ، وكلما ارتقى الإنسان ازداد حبه للخلود. أما أولئك الذين تتجه غريزتهم الخلاقة اتجاهاً جنسياً، فإنهم يجعلون همهم النساء، ويكون حبهم جنسياً محضاً، فتراهم يحسبون أنهم يضمنون لأنفسهم الخلود بإنجاب الأطفال، ولكن هناك غيرهم تكون ميولهم الخلاقة روحية، ويحملون بالروح لا بالجسد، فينتجون ذرية روحية كالحكمة والفضيلة وما إلى ذلك، ولعل أفضل وأشرف فروع الحكمة هو الذي يتناول تنظيم الدولة والأسرة وهو: الاعتدال والعدل.

ومن ينجب ذرية روحية يكون أشد سعادة: لأن أطفاله (الأفكار في هذه الحالة) يمتازون عن أطفال البشر، فهم خالدون، ويفوقون جمال أطفال البشر ولا شك أن الناس يفضلون هؤلاء الأطفال على الأطفال الذين هم من لحم دم، من أطفال «كالإلياذة» و «الأديسة» و»أنساب الآلهة» و»الأعمال والأيام» .. الخ؟ هؤلاء هم الأطفال الذين حققوا لآبائهم شهرة، ومجداً وخلوداً، حتى ظفر بعضهم بعبادة البشر لهم، بسبب ما تركوه من أطفال روحيين، وذلك أمر لم يحدث لإنسان قط بسبب أطفاله من لحمه ودمه.

٦- مدارج الروح في طريق الخلود:

ترى «ديوتيما» أن الرجل الذي يريد أن يتبع الطريق المستقيم إلى هدفه السامي، ألا وهو الخلود، عليه أن يأخذ نفسه من الصغر بتأمل الجمال الإنساني، فإذا ما أحسن المرشد إرشاده وجهه أولاً إلى حب فتى جميل، ثم إلى إدراك أن الجمال المادي في شخص هو نفسه الجمال المادي في شخص آخر، وإنه إذا كان ينشد الجمال الظاهري، فمن العبث ألا يعترف أن الجمال الذي يتجلى في جميع الأجسام إنما هو جمال واحد، ومن هنا فإن عليه أن يوجه حبه إلى جمال بصفة عامة، بحيث يضعف حبه لشخص بعينه، لأنه يدرك أن هذه عاطفة أقل أهمية، وأن عليه أن يتجاوزها إلى مرحلة أخرى، وهكذا يرقى إلى مستوى أعلى، إلى أن يصل إلى المرحلة التي يقدر فيها جمال الروح أكثر من

تقديره لجمال الجسد، فلو أنه وجد نفساً نبيلة فاضلة في جسم ليس له نصيب من الجمال لرضي بحبها، والإخلاص لها، فيأتي بالأفكار التي تعمل على التهذيب، وتلك هي المرحلة التي يجد نفسه فيها يتأمل الجمال الذي يتبدى في الأعمال والنظم المختلفة، ويتضح له آخر الأمر أن الجمال فيها مرتبط بعضه ببعض، فيظهر عندئذ حقارة الجمال المادي، وضآلة شأنه، إذا ما قورن بجمال الروح، ومن الأخلاق ينتهي إلى العلوم فيتأمل جمالها، وبذلك يحصر نظره في الجمال بمعناه الواسع، فلا تستعبده عاطفة حقيرة أو نموذج فردي للجمال، سواء أكان موضوع حبه فتى، أو رجلاً أو عملاً من الأعمال، أو نظاماً ما من الأنظمة، وهو أن يحدث في محيط الجمال الذي اتجه إليه بصره الآن، ثم يأتي بسبب حبه الفياض للحكمة بعواطف وأفكار نبيلة جليلة، وإذا ما قوي بفضل هذه التجربة يرنو ببصره إلى العلم الوحيد، وموضوعه الجمال.

٧- غاية الحب:

وترى «ديوتيما» أن من يتعلم «أسرار الحب» على هذا النحو، ويرقى في هذا الطريق حتى نهايته، سوف ينكشف له في نهايته جمال رائع هو الغاية من جميع المراحل السابقة، هذا الجمال هو أولاً وقبل كل شيء جمال خالد، وهو ثانياً ليس جميلاً في جانب وقبيحاً في جانب آخر، ولا في آن، ثم يتغير في آن تال، ولا باختلاف الظروف والأحوال.. الخ، بل هو جمال مطلق لا يوجد إلا بذاته.

وعندما يبدأ المرء من العالم الحسي مستعيناً بجمال الغلمان، ثم يلمح هذا الجمال المطلق، إنما يكون قريباً من غايته، وهذا هو الطريق القديم في الاقتراب من أسرار الحب الذي يسير فيه المرء عندما يبدأ بنماذج الجمال في هذا العالم، ويجعلها درجات يرقى بها جاعلاً غايته ذلك الجمال الأسمى المطلق من نموذج الجمال الحسي، ثم من أكثر من نموذج، ثم إدراك الخيط المشترك بين كل ألوان الجمال الحسي، ثم

يرقى من الجمال الحسي إلى الجمال الخلقي، ومن الجمال الخلقي إلى جمال المعرفة، ومن المعرفة بفروعها المختلفة، إلى المعرفة المطلقة التي يكون موضوعها الوحيد الجمال المطلق[1].

ها هنا- في هذا المكان وبجوار الجمال المطلق- ينبغي أن ينفق المرء عمره في تأمل هذا الجمال المطلق، وعندئذ لن يهتم بذهب ولا فضة، ولا ثياب أو غلمان.. إلخ، فهو يطالع ماهية طاهرة بلا دنس، نقية لا تشوبها شائبة، ومن يصل إلى هنا يستطيع أن يدرك الجمال[2].

---

(١) المأدبة ٢١١أ- ب

(٢) تذكرنا فكرة «ديوتيما» هنا بالفكرة الصوفية الإسلامية، حيث يذهب المتصوفة إلى أن غاية الحب في النهاية هي مشاهدة الجمال الإلهي الأزلي. قارن ما تقوله رابعة العدوية «لا تحرمني يا إلهي من جمالك الأزلي.. اجعل الجنة لأحبائك، والنار لأعدائك، أما أنا فحسبي أنت»! فالغاية في النهاية أن نصلِ إلى مشاهدة الجمال الإلهي الأزلي وننظر إليه، ونراه بملء العين اعتماداً على الآية الكريمة ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة، إلى ربها ناظرة﴾ (٢٣- القيامة). وانظر «الحب... أنواع»، د. إمام عبد الفتاح إمام.

تاسعاً: فلسفة ديوتيما..

وفلسفة أفلاطون

قد يعترض معترض على حديثنا السابق متسائلاً: ولم لا تكون جميع النظريات التي عرضت لها، وأطلقت عليها اسم «نظريات ديوتيما» هي نفسها نظريات أفلاطون؟ أليس من الممكن أن يكون أفلاطون قد عرض فلسفته على لسان «ديوتيما» كما يعرضها أحياناً على لسان سقراط؟!

والجواب- باختصار شديد- هو: أن النظريات تختلف بوضوح، بل تتعارض أحياناً مع نظريات أفلاطون، غير أن هذه الإجابة تحتاج إلى شرح وتفسير.

١- الخير .. والجمال:

ربما كان هناك تشابه ظاهري منذ البداية بين فكرة أفلاطون وفكرة ديوتيما عن الخير، فإذا كانت السعادة عند «ديوتيما» هي في امتلاك الخير، فإن تصورها للخير يختلف عن تصور أفلاطون اختلافاً تاماً، ذلك لأن الخير عندها هو خير شخصي أو ذاتي، أو قل إنه خير أناني أو خير المرء لنفسه، ونحن نتعرف عليه على أنه محاولة لاكتساب الخلود عن طريق إنجاب المرء لنفسه من خلال فكرة الجميل. كما أن فكرة الجميل ليست هي المثال الأفلاطوني للجمال، بل هي فكرة على مستوى الظواهر فحسب لا على مستوى المثل الأفلاطونية.

وهكذا نستطيع أن نقول إن «الجمال المطلق»، عند ديوتيما لا يتحد مع مثال الخير نحو ما وصفه أفلاطون في الجمهورية[1]، وفضلاً عن

---

(١) أفلاطون: محاورة الجمهورية (٤٧٢-٤٧٨)

ذلك فإن لغة ديوتيما في وصفها للجمال «إيلية» بشكل واضح، ويقول ستانلي روزن:

«ليس الخير عند ديوتيما مثالاً من المثل الأفلاطونية. وكذلك تصورها للجمال ليس هو نفسه تصور أفلاطون لمثال الجمال.. إن وصف ديوتيما للجمال لا يفترض سلفاً نظرية المثل. لكن يمكن أن يفهم كجزء من الأعداد أو التطوير اللاحق على يد سقراط..»(١)، ويقول: «... لا شيء في وصف ديوتيما للجمال في ذاته يرجعه إلى عالم منفصل أتم الانفصال عن مظاهر عند الإنسان، فانفصال الجمال هو صورة فريدة لا يمكن رؤيتها في شيء آخر إلا بفضل تلك الأمثلة الكامنة فيه: فحتى لو صح وأن أفلاطون كان انتهى من نظريته عن المثل، عندما كتب المأدبة، فإن هذه النظرية مستبعدة تماماً عن حديث المأدبة(٢).

٢- تصور «ديوتيما» للخلود:

تستطيع النفس في محاورة المأدبة أن تصل إلى الخلود- بالمعنى الميتافيزيقي- بواسطة عملية التوالد أو الإنجاب.. بأن تترك اسماً أو سمعة تجعلها باقية ...(٣).

لكن كيف يمكن للمرء أو يحقق ذلك؟ لو أن المرء أراد أن يترك أكثر من اسم أو سمعة، لو أنه أراد أن يلد «أفكاراً» وأن يؤثر في الآخرين، فلا بد أن يعرف نفسه أولاً، كخطوة أولى، أن يعرف من هو؟ فما نوع الهوية الذاتية التي تأخذ بها «ديوتيما»...؟

أ- الخلود.. والهوية الشخصية:

إن هدف «ديوتيما» في روايتها للحب هو تحليل ما الذي يبقى من

---

(١) Stanley Rosen: Plato's Symposium P.270 Yale University Press. 1987.

(٢) Ibid. P. 277.

(٣) Quoted by: Mary Ellen Waithe Op. Cit. p. 86.

الوجود البشري على مر الزمان، وعندها أنه لا يبقى من الشخص سوى صفاته، ذلك لأنها تذهب إلى أن الوجود المتصل المستمر للكائن الحي يعني أن تحل صفات أخرى تشبهه محل ما قد فني من صفات.. وعلى هذا النحو نستطيع أن نقول إننا خالدون في أبنائنا، وفيما ننسله من أفكار، وتلك فكرة أساسية من الهوية، الشخصية عندها، وهي تختلف أتم الاختلاف عن التصور الذي قدمه أفلاطون في محاورة القبيادس الأولى (١٢٩ ب- ١٣٠جـ) التي يذهب فيها إلى أن هناك شيئاً أساسياً هو «أنا» أعني كياناً يقف خلف جميع الصفات والكيفيات القابلة للتغير، فالنفس هنا جوهر قائم بذاته قابع خلف جميع التغيرات الجزئية، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفسر لم كنت «أنا» الآن نفس الشخصية التي كنتها في الصغر، أو عندما كنت طفلاً. في الوقت الذي أكون فيه مع كل صفة أو كيف. إذ أستطيع أن أتعرف فيها على نفسي، ومن ثم فإنني عندما أصبح شاباً، فإنني لا أصبح شخصاً مختلفاً عن ذاتي عندما كنت صغيراً بنفس الدرجة التي أكون بها شخصاً مختلفاً عن شقيقي مثلاً، صحيح أن لي الآن شخصية تختلف عن شخصيتي عندما كنت طفلاً، غير أن هذا الاختلاف ليس هو نفسه كالاختلاف بين شخصيتين من البشر.

إن الخلود عند «ديوتيما» لا يعني- كما هي الحال عند أفلاطون- خلود النفس بعد موت البدن، بل يعني خلودي في نسلي، إما عن طريق إنجاب الأبناء الذين يواصلون حمل الصفات الموجودة عندي، أو إنجاب الأفكار (هو التوالد الروحي) الذي يجعلني أبقى حياً في هذه الأفكار- فالخلود هنا هو خلود الفكرة، تماماً مثلما نقول إن أفلاطون خالداً، أو أرسطو خالد- دون أن نعني أن نفس أفلاطون أو أرسطو «خالدة» وإنما المقصود أنهما ماتا جسدياً منذ أربعة وعشرين قرناً، لكننا ما زلنا ندرس فكرهما ونحلله، ونأخذ منه، وننقده .. الخ، ما زلنا نتحدث عن «فكرهما» ونستفيد منه وهذا يعني أنه «فكر خالد»، فالتناسل الجسدي، أي إنجاب الأبناء يجعل الصفات خالدة بأن يجعلها تتكرر في

النسل البشري، وكذلك الأفكار القيمة تكون خالدة، فما زالت الإلياذة والأوديسة يقرأهما الناس- في جميع الثقافات حتى هذه اللحظة- وهذا ضرب من الخلود الفكري، وقل مثل ذلك في «الفارابي» أو «ابن سينا» أو «ابن رشد» أو «ابن خلدون».. الخ، فهم خالدون بفكرهم لا بأنفسهم.

وذلك يعني أننا حين نتحدث عن شخص ما، فإننا لا نستطيع أن نتعرف فيه- رأي ديوتيما- عن جوهر Substance يكمن تحت الأعراض، بل نتعرف فحسب على مجموعة من الصفات المتشابهة المتداخلة المستمرة، والمتصلة عبر الزمان، «ومن ثم فإن علينا أن نأخذ فكرة ديوتيما وتفسيرها للهوية الشخصية مأخذ الجد. فمن وجهة نظرها ليس ثمة «جوهر» ولا «ذات» ميتافيزيقية كامنة، بل إن الشخص هو مجموعة من الصفات. وها هنا يكون من المشروع أن نمد هذه الفكرة إلى مفهوم «الخلود» وإلى فكرة «ديوتيما» عن «الحب» بوصفه صفة من الصفات الخاصة..»[1].

وإذا لم يكن ثمة سوى هذه الصفات التي تعبر عن الهوية الشخصية، فإن ذلك يعني أننا عندما نحب شخصاً ما فإننا بذلك نحب صفاته (أو بعضها على الأقل)، لكن لو صح ذلك لأصبح من الواجب أن نسأل عن قيمة هذه الصفات، وهكذا يصبح من المشروع الزعم بأن حبنا ينبغي أن يتناسب مع قيمة الصفات التي نحبها، وأنه علينا أن نحب تلك الخصائص الجديرة بأن تحب أينما وجدت، ويمكن للمرء الذي يسير في طريق ديوتيما وتفسيرها للحب- على هذا النحو- أن يندفع إلى طريق «اللاشخصية»!!

في حين أن أفلاطون يرى أن النفس جوهر مستقل عن البدن، ولأنها ارتكبت خطأ فقد سجنت في هذا البدن وسوف تتحرر منه بالموت، لكنها لا تموت معه، حيث إنها خالدة، ويقدم أفلاطون في محاولة «فيدون» وحدها أربعة أدلة على خلود النفس بعد فناء الجسد

(١) Quoted by: Mary Ellen Waithe: Op. Cit. P. 88.

هي: تعاقب الأضداد، والتذكر، والبساطة والتركيب، ومثال الحياة، لكن الدليل الذي يؤثره ويراه مقنعاً أكثر من غيره، لم يبسطه إلا في «فايدروس» و «القوانين» وهو أن النفس متحركة بذاتها[1].

ب- الخلود .. ونظرية التذكر:

يربط أفلاطون بين نظريته في «خلود النفس» ونظريته في تذكر المثل، ولعل أفضل مثال لعملية الربط هذه- وهو المثال النموذجي- هو التجربة التي قام بها سقراط وأجراها على خادم «مينون .. Meno» وهو عبد صغير، أخذ يسأله عن طول ضلع المربع الذي مساحته ثمانية أقدام مربعة، ولم يكن الخادم على علم سابق بالهندسة، ومع ذلك جعله سقراط يتذكر قوانين الهندسة التي تعلمتها نفسه في وجود سابق[2].

كما عرض أفلاطون أيضاً لعملية الربط بين خلود النفس، ونظريته في تذكر المثل، في محاورة «فيدون»[3]، وفي محاورة «فايدروس»[4]. أما النفس عند «ديوتيما» فهي تختلف عن ذلك أتم الاختلاف، فلا هي عاجزة عن تذكر المثل بطريقة أفلاطون، ولا هي نفس- إنها ليست خالدة أصلاً، ذلك لأن المرء إنما يحقق الخلود عند «ديوتيما»- بطريقة غير أفلاطونية تماماً. وفي استطاعتنا أن نقول إن النفس عند «ديوتيما» لا تحقق الخلود على الإطلاق، ذلك لأن الخلود عندها مجازي فحسب وليس ميتافيزيقيا.

ج- الخلود .. وتناسخ الأرواح :

على الرغم من أن «ديوتيما» تذهب إلى أن الرغبة في الخلود تدفع المرء إلى أن يكافح لكي يلد نسلاً يشبهه، نسلاً بشرياً، فإن الشخص

---

(١) د.أحمد فؤاد الأهواني: أفلاطون ص ٩٤- دار المعارف بمصر عام ١٩٦٥ (سلسلة نوابغ الفكر الغربي عدد رقم٥).

(٢) محاورة «مينون» ٢٨٢- ٢٨٥.

(٣) محاورة «فيدون» ٧٢ وما بعدها.

(٤) محاورة «فايدروس» ٢٤٨ وما بعدها.

الذي يعجز عن التوالد لا يسلك الطريق الذي يسلكه الرجل الشرير عند أفلاطون على الإطلاق.

ذلك لأن أفلاطون يعتقد أن النفس البشرية تنال جزاء ما صنعت، وأن كل شخص يثاب أو يعاقب أو يلقى جزاءه حسب عمله. فالفيلسوف أو محب الحكمة تصعد نفسه إلى السماء حيث مقر الأنفس، فتستمتع بالنظر إلى الحقائق المجردة، فلا أجسام، ولا مادة، ولا ألوان، ولا صور محسوسة، بل إن مقر الأنفس يصبح غذاءها الروحي، أم غير الفلاسفة فيتناسخون في أبدان بشر، وأبدان حيوانات حسب أعمالهم. فالرجل الشرير قد تتناسخ نفسه مرة أخرى في جسد امرأة، وربما في جسد حيوان. ولهذا نراه يقول في طيماوس: «فمن زل عن المبادئ الأخلاقية، تحول في ولادته الثانية إلى طبيعة امرأة، فإن لم يرعوا عن شره في هذه الحالة أيضاً فإنه يظل يتحول من طبيعة وحش إلى طبيعة وحش آخر تماثله في شره.. وهكذا دواليك..»(١)

وهكذا يتضح لنا أن تناسخ الأرواح- المأخوذة عن الهند عن طريق الفيثاغورية- يذهب إلى أن الجبناء والفجار من الرجال سيصبحون بعد ذلك «نساء»، وخفاف العقول والسذج، الذين يظنون، مثلاً، أن علم الفلك يمكن تحصيله بالنظر إلى النجوم من غير معرفة الرياضة، سيصبحون طيوراً، وأولئك الذين لا فلسفة لهم سيصبحون كواسر برية، وأغبى الناس فهماً سيصبحون أسماكاً.(٢)

أما «ديوتيما» فهي لا تؤمن بالتناسخ، ولا بانتقال النفس من بدن إلى بدن، لأن النفس أولاً ليست جوهرها، وهي في نظرها ثانياً ليست خالدة، لأن الاختلاف هائل بين فلسفتها وفلسفة أفلاطون.

---

(١) Plato: Timaeaus. 24 C.

(٢) برتراند راسل: «تاريخ الفلسفة الغربية» المجلد الأول ص ٢٣٠ ترجمة د. زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة- الطبعة الثالثة ١٩٧٨.

الخاتمة

لقد ناقشنا في هذا الفصل شخصية «ديوتيما» وأثبتنا أنها شخصية حقيقية، وأنها كاهنة وفيلسوفة من مانتينا، وأنها زارت أثينا عندما استدعاها ألأثينيون لمساعدتهم في الحماية من مرض الطاعون، وأنها التقت بسقراط أثناء هذه الزيارة، ثم عرضنا بعد ذلك لنظريات «ديوتيما» في «الحب» و «الخلود» و «الجمل»،.. الخ، وبينا في النهاية كيف أن هذه النظريات تختلف في كثير من الجوانب عن فلسفة أفلاكون، كما أنها تتعارض مع هذه الفلسفة في جوانب هامة (مثل خلود النفس، وتناسخ الأرواح.. الخ)، والواقع أن ديوتيما تختلف عن أفلاطون في كثير من المفاتيح الأساسية لفلسفته ونظرياته مثل: تصوره للخير، وتصوره للخلود، وتصوره لتناسخ الأرواح، ونظريته في الهوية الشخصية، ونظريته عن المثل.. الخ، ولا يمكن أن يقال أن الباحث المتخصص في أفلاطون يمكن أن يجد بعض التناقضات في فكره حول موضوع من الموضوعات من محاورة إلى أخرى، ذلك لأن الأمر هنا يتعلق بتناقضات أساسية حول أفكار مركزية توجد في جميع أو معظم المحاورات الأخرى.

وهكذا نستطيع أن نقول في النهاية إن «ديوتيما» كانت واحدة من «النساء.. الفلاسفة في العالم القديم» وإنها تبرهن- كما سوف تبرهن المرأة في العالم الحديث- على أنها ليست أقل من الرجل في قدرتها العقلية، ولا في استعدادها للتفلسف.

الفصل السادس

جوليا دونا..

أو جوليا الفيلسوفة!

- هل يمكن أن توجد فضيلة العفة عند الخصّي؟
- وهل مجرد الامتناع عن الظلم يُشكل العدل؟

أبوللونيوس.. Appollonius

تمهيد ...

«جوليا دونا».. أو «جوليا الفيلسوفة» كما كان يطلق عليها المؤرخون في القرن الثالث الميلادي، المرأة التي كونت حلقة من أنبغ العقول في عصرها، حلقة تضم الشاعر، والفيلسوف الفيثاغوري، والمشائي، والسوفسطائي، ومعلم البيان، والمحامي، والسياسي، والطبيب، والمؤرخ.. الخ- على نحو ما سنعرف فيما بعد- عاشت في الفترة التي أعقبت الإمبراطور الرواقي ماركوس أورليوس (١٢١-١٨٠م)- والسابقة على أفلوطين (٢٠٥-٢٧٠م) والأفلاطونية المحدثة. وعلى الرغم من أنها- على ما نعلم- لم تخلف وراءها كتباً من تأليفها تعالج الموضوعات الفلسفية التي كانت تدرسها، فإنها كانت تكرس نفسها لدراسة الفلسفة، وتوجه أعضاء حلقتها إلى الكتابة في موضوعات معينة اهتمت بها اهتماماً شديداً على نحو ما سنعرف فيما بعد، ولقد كانت الوحيدة من بين أولئك الذين نطلق عليهم اسم الفلاسفة- ربما باستثناء ماركوس أوريليوس- التي سك اسمها على أكثر من ثلاثمائة وخمسين عملة مختلفة، كما وجد اسمها على أكثر من ١٨٠ مبنى من المباني العامة، والتماثيل المتناثرة في أنحاء البلاد، حتى أضفى عليها الناس في النهاية صفة القداسة!

وسوف نبدأ أولاً في سرد تفاصيل حياة هذه المرأة اللامعة، ثم نحاول بعد ذلك أن نجيب عن السؤال:

لِمَ أُطلق عليها لقب فيلسوفة ؟؟؟

أولاً: حياتها ..

ولدت «جوليا دونا- Julia Donna، أو «جوليا دومنا J.Domna» عام ١٧٠ ميلادية في إميسا.. Emesa- وهي الآن ضاحية في مدينة حمص الحديثة- في سوريا على نهر العاصي[١]، واسمها دوما أو دومنا Domna قريب الشبه بالكلمة اللاتينية- Domina التي تعني «السيدة» وإن كان من الممكن أن يكون الاسم أرمني الأصل بمعنى مارثا .. Martha[٢]، وكان والدها «يوليوس باسيانوس.. Julius Basianus، الكاهن الأكبر لمعبد إله الجبل.. Elagabal، وهو إله الشمس في «إميسا» التي كانت مركزاً دينياً هاماً في ذلك الوقت.. حيث كانت عبادة هذا الإله منتشرة في هذه المنطقة[٣].

ولا يروي لنا التاريخ شيئاً يذكر عن تربية «جوليا» في حياتها المبكرة، لكن من المرجح أنها التقت ببعض المثقفين المرموقين الذين كانوا يفدون على منزلهم، ويبدو أنها تعلمت من المناقشات التي تدور

---

(١) كانت حمص المدينة السورية التي تقع على نهر العاصي في الجزء الغربي من وسط البلاد قد أصبحت في ذلك الوقت مستعمرة رومانية.

(٢) شقيقة اليعازر ومريم، وصديقة يسوع المسيح (لوقا ١٠:٤٠) وهي ترمز في التراث المسيحي إلى الحياة النشطة الايجابية، بينما ترمز شقيقتها مريم إلى الحياة التأملية.

(٣) إله الجبل.. Elagabal، هو إله الشمس أو هو إله حارس في معتقدات الشرق القديم ولا سيما سوريا، وكان النسر هو الطائر المقدس عنده. قارن: د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول ص ٣٣٠- مكتبة مدبولي بالقاهرة.

بينهم وبين والدها الكاهن، وسوف يتضح فيما بعد اهتمامها بالتنجيم والرياضيات بصفة عامة، وهو اهتمام غرسته فيها البيئة التي عاشتها وهي طفلة، ومن المحتمل أيضاً أن «سبتيموس سفيروس.. Septimius Severus [١] رآها لأول مرة في ذلك الوقت عندما كان يقيم في هذه المنطقة بوصفه قائداً عسكرياً للحامية الرومانية في حمص، وكانت «جوليا» في التاسعة أو العاشرة من عمرها، وبعد ذلك بعدة سنوات أصبح «سفيروس» نفسه حاكماً على إقليم ليون في بلاد الغال (فرنسا قديماً)، وهناك فقد زوجته الأولى، وراح يبحث عن الزوجة الثانية ذات الحظ السعيد التي سوف ترتبط به، وها هنا اكتشف أن سيدة شابة من حمص في سوريا قد خبأت لها النجوم طالعاً ملكياً، فأسرع في التوسل إليها وحظي بالزواج منها»[٢].

وكانت «جوليا» تستحق في الواقع كل ما يمكن أن تعد به النجوم، فقد وهبت هذه المرأة- حتى عندما تقدمت بها السنوات- كل مفاتن الجمال، وجمعت بين روعة الخيال، ورصانة العقل، وقوة الحكم، مما يندر أن يوهب لبنات جنسها فيما يرى إدوارد جيبون ..[٣].

لقد ولد سفيروس عام ١٤٦ م في قرية لبدة Lebda (الليبية) على الساحل الشمالي لأفريقيا، وبعد أن درس اللغتين اليونانية والرومانية في المدرسة، ذهب إلى روما لدراسة القانون، وعين في عهد الأمبراطور «ماركوس أورليوس» في وظائف متتابعة في «إسبانيا، وسردينيا،

(١) سبتيموس سفيروس (١٤٦-٢١١م) سوف يصبح إمبراطوراً لروما (١٩٣-٢١١) وسوف ينشئ سلالة سفيروس الحاكمة على نحو ما سيظهر فيما بعد.

(٢) إدوار جيبون «اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها» ترجمة محمد علي أبو درة، ومراجعة أحمد نجيب هاشم، المجلد الأول، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ص ١٨٠.

(٣) المرجع السابق، في الصفحة نفسها.

وأفريقيا، وسوريا. وفي عهد الإمبراطور «كومودس Commodus»[١] أصبح حاكماً لجاليا .. Gallia في وسط فرنسا.

قلنا إن زوجته الأولى ماتت في هذه الفترة، وراح سفيروس يستشير أبراج النجوم- فقد كان يؤمن إيماناً قوياً بالتنجيم- عن المرأة التي تصلح زوجة له، فأخبره المنجمون أن هناك- على نهر العاصي- في سوريا فتاة جميلة ابنة الكاهن الأكبر لإله الجبل يقول طالعها إنها ستكون زوجة لأحد الملوك، وسوف تصبح إمبراطورة مهيبة الجانب، رصينة العقل، قوية البيان، هي «جوليا دونا» فسعى إلى الزواج منها، «وهكذا كان اختياره للزواج من فتاة سورية راجع إلى إيمانه بالتنجيم فيما يقول واحد من كتاب القرن الرابع الميلادي..»[٢].

تزوج سفيروس وجوليا عام ١٨٧ ميلادية، وكان هو في الحادية والأربعين، أما هي فكانت في السابعة عشرة، وأنجبا طفلهما الأول في منطقة ليون Lyons في الجزء الجنوبي الشرقي من فرنسا في أبريل ١٨٨، وأطلقا عليه اسم «باسيانوس Bassianus» على اسم والد «جوليا» وهو الذي عرف طوال التاريخ باسم كاراكلا .. Caracalla، أما الابن الثاني فقد سمي جيتا . Geta على اسم والد سفيروس وشقيقه، وقد ولد في روما في العام التالي ١٨٩م.

وفي عام ١٩١ ميلادية عين سفيروس حاكماً لـ «بانونيا .. Pannonia»، وهي مقاطعة رومانية في أوروبا الوسطى، كانت تشمل الجزء الغربي من هنغاريا الحديثة، وأجزاء من شرق النمسا وشمال

(١) لوسيوس كومودس (١٦١-١٩٢م) إمبراطور روماني (١٨٠-١٩٢) ابن ماركوس أورليوس، وكان طاغية مجنوناً فاسقاً مستهتراً، وقد دفعه اعتزازه بقوته البدنية إلى التوهم بأنه البطل الأسطوري «هرقل» وإلى النزول إلى المجتلد لمقاتلة الأسود!!.

(٢) Beatrice H. Zedler: Julia Domna in A History of woman Philosophers Vol. I. p. 117

يوغسلافيا الحديثين- وكان المركز الرئيسي لقيادته في كارنينتوم Carnuntum» على نهر الدانوب. ها هنا كان سفيروس زوج «جوليا» قائداً لثلاث مناطق، ولما علم بمقتل الإمبراطور كومودوس Commodus [1] - الذي مهد قتله الطريق أمام أسرة «سفيروس»- نادت قواته بسفيروس إمبراطوراً، وكان المتآمرون في روما قد قدموا العرش إلى «بريتناكس Bertinax» وهو سنتور معمر ومحافظ، ولكنه قتل بيد الحرس البريتوري بعد حكم دام ستة وثمانين يوماً، فزحف سفيروس بقواته سريعاً إلى روما، وصوت مجلس الشيوخ في صفه بأن يرقى العرش- وهكذا نودي به إمبراطوراً على روما.

في عام ١٩٣م، وهو العام الذي دخل فيه «سفيروس» روما منتصراً ظافراً، لم يظهر اسمه فقط على العملة، بل كتب عليها أيضاً اسم «جوليا دونا» وفي هذا العام أيضاً أنعم هو على «جوليا» باللقب الإمبراطوري «أوجستا.. Augusta» وهكذا بعد ست سنوات من زواجهما تحققت نبوءة النجوم وأصبحت جوليا زوجة للملك، بل أصبحت «إمبراطورة» لروما!.

كان هناك منافسان قويان لسفيروس على عرش روما، أما الأول فهو «نيجر.. Niger» حاكم سوريا في الشرق، والثاني هو ألبينوس Albinus حاكم بريطانيا في الغرب. وسار سفيروس بقواته أولاً إلى الشرق، وهزم «نيجر» بل قتل هو وزوجته وأولاده عام ١٩٣ ميلادية، وواصل سفيروس حملته في الشرق ضد أولئك الذين ساعدوا نيجر

---

(١) هبط كومودوس بتفكيره، ومن ثم بروما من ذُرى شموخها عندما ظنّ نفسه «هرقل الرومان» والشمس المشرقة... إلخ، وضعت له مارتشيا Marcia- أحب خليلاته إلى نفسه- جُرعة من السم في النبيذ الذي قدمته لعشيقها بعد أن عاد من رحلة صيد متعبة، وبينما كان يتلوى من ألم السم، اقتحم غرفته شاب مفتول العضلات وقتله خنقاً دون مقامة: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية- المجلد الأول ص ١٦٢.

وأيدوه، وكانت «جوليا» تصحب زوجها في حملته على الشرق وتقيم في معسكره، حتى أطلق عليها عام ١٩٦ لقب «أم المعسكر Mater castrorum» اعترافاً بدورها في مرافقة الزوج وتشجيع الجنود، وحضورها المستمر في المعسكر.

ثم وجه «سفيروس» انتباهه بعد ذلك إلى «ألبينوس» الذي أراده بعض الشيوخ إمبراطوراً، فسير قواته إليه، وكان ألبينوس قد عبر من بريطانيا إلى بلاد الغال (فرنسا قديماً)- فهزمه سفيروس عند منطقة ليون الفرنسية عام ١٩٧ للميلاد، وقتل ألبينوس وزوجته وأولاده، وأصدقاؤه، وعلى الأقل ٢٩ من أعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا يؤيدونه.

ولقد قيل إن فكرة سفيروس في القضاء على منافسيه- نيجر وألبينوس- بدلاً من أن يجعلهما خلفائه، كانت تعود أساساً إلى طموح «جوليا» التي اقترحت عليه القضاء عليهما، وشجعته في الإعداد لذلك لكي تجعل من أبنيها خلفاء لأبيهما على عرش روما، لكن لا شك أن «سفيروس» كان يريد لأبنيه أيضاً أن يرثا العرش، ولكي يضفي «سفيروس» مظهر الشرعية على حكمه فقد أعلن «ماركوس أورليوس» الذي مات عام ١٨٠م أباً بالتبني، كما زعم أن كمودوس كان شقيقاً له!

وبعد أشهر قليلة من انتصار «سفيروس» في ليون صحبت جوليا زوجها في رحلة أخرى، لكن إلى الشرق هذه المرة، وإلى أفريقيا عام ٢٠٣ على وجه التحديد، وبعد عودتهما أقيمت الألعاب الرياضية في روما ٢٠٤ ميلادية إيذاناً بافتتاح عهد جديد، وعلى خلاف الإمبراطورة السابقة، كان لجوليا دور بارز في الاحتفالات، ولكن رغم الاحترام وآيات الشرف، التي حظيت بها «جوليا» في روما وفي طول الامبراطورية وعرضها، فإن السنوات القليلة الأولى من القرن الثالث، لم تكن سارة، ومن ثم لم تكن «جوليا» سعيدة، والسبب أنها واجهت مشكلتين حادتين: الأولى: عدو في البلاط الإمبراطوري، والثانية: سلوك الابنين:

كان «بلوتيانوس Plautianus» الذي كان مثل سفيروس من مواليد شمال أفريقيا يتمتع بثقة الإمبراطور حتى أصبح الوريث الأثير المقرب إليه، جمع ثروة طائلة وتغلغل نفوذه في كل مكان حتى نصبت له التماثيل في طول العالم الروماني، وفي عام ٢٠٢ ميلادية رتب لزواج ابنته بلوتيلا Plautilla من بسيانوس الذي أصبح يلقب الآن «كاراكلا» الابن الأكبر لجوليا وسفيروس، رغم معارضة جوليا، ومعارضة العريس، معاً في إتمام هذا الزواج!

كانت جوليا حانقة على نفوذ «بلوتيانوس» القوي على هذا النحو، وهو أول قائد يتمتع بسلطات واسعة، ويسئ استغلالها أسوأ استغلال، وقد كان زواج ابنته من اكبر أبناء الإمبراطور ضماناً لحسن مستقبله، لكن لسوء حظه ثبت أنه كان إيذاناً بسقوطه، فعندما زادت أطماع «بلوتيانوس» وأثارت من في القصر أجبر الإمبراطور- الذي لا يزال يحبه- على قتله على غير رضا منه[١].

لقد كان بلوتيانوس يعامل «جوليا» الرقيقة بطريقة سيئة: لأنه كان يمقتها بشدة لرجاحة عقلها وكياستها، وكثيراً ما كان يدس لها عند الإمبراطور، ويثير الشبهات حول سلوكها، ويجمع الأدلة ضدها، بإكراه نساء نبيلات على الشهادة الزور عن طريق التعذيب! ويذهب بعض المؤرخين أنه أقنع الإمبراطور بمحاكمتها، لكنها برئت من جميع التهم!

ومن حسن الطالع أن «جيتا .. Geta» شقيق سفيروس وهو يرقد على فراش الموت عام ٢٠٤م أخبر سفيروس أن «بلوتيانوس» غير جدير

---

(١) إدوارد جيبون «اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها» المجلد الأول ص ١٧٤- وانظر في نفس هذا الكتاب حاشية ص ١٧٤ حيث يقول جيبون «من أكبر تصرفاته نزقاً وجرأة أنه خصى مائة من أحرار الرجال الرومان فيهم المتزوج، وفيهم رب الأسرة، لا لشيء إلا أن يكون في ركاب ابنته عند زواجها من الامبراطور الصغير حاشية من «الخصيان» مما هو جدير بملكة شرقية.

بثقته، وبعد ذلك الاتهام بالتآمر لقتل الإمبراطور، وتم إعدامه في العام التالي (٢٠٥م) ويروي أحد المؤرخين أن أحد الذين شهدوا إعدام بلوتيانوس «انتزع بضع شعيرات من لحيته وأحضرها إلى بوتيلا (ابنته) «وجوليا» الإمبراطورة، ومن تكونا تعرفان شيئاً عما حدث، وصاح وهو يقدم لهما شعيرات اللحية:

«انظرا! ها هو ما تبقى من بلوتيانوس! وسوف يسبب لأحدكما الفرح والبهجة، وللأخرى الحزن والألم..!»[1].

أما المشكلة الثانية التي كانت تواجه «جوليا» فهي أن الابنين «كاراكلا» و «جيتا» كانا يقضيان معظم أوقاتهما في اللعب والمتعة والتسلية كعادة الأفراد في ذلك الوقت، لكن الأسوأ من ذلك أن كلاً منهما كان يكره الآخر! ولقد حاول الإمبراطور، عبثاً، أن يخضع الابنين لسيطرته، وأن يعيشا في انسجام كل منهما مع الآخر. وصحبا الأب في حملة إلى بريطانيا عام ٢٠٨ م لعلهما يستفيدا من وجودهما خارج روما، وأن ينخرطا في سلك الحياة العسكرية، وأن يعيشا معاً عيشة الأباطرة، فأعطى لجيتا Geta- الابن الأصغر- مسؤولية المنطقة الواقعة تحت السيطرة الرومانية، في حين واصل سفيروس مع «كاراكلا» السير ضد البرابرة الذين غزوا الولاية من الشمال، غير أن الإمبراطور اشتد عليه مرض النقرس، الذي كان يعاوده بين الحين والحين، حاول «كاركالا» أن يسيطر على الجيش، وأن يثير الافتراءات ضد شقيقه، بل بلغ به العقوق أن طلب من الأطباء أن يعجلوا بوفاة والده، الذي كان قد تجاوز الستين آنذاك، وأقعده داء النقرس حتى استلزم الأمر أن يحمل على محفة! وكلما اشتد المرض على سفيروس اشتعلت نار الأطماع الوحشية والأحاسيس السوداء في نفس الابن الأكبر وضاق ذرعاً بالإبطاء في تقسيم الإمبراطورية، ولقد حاول أكثر من مرة التعجيل بالأيام القليلة الباقية من حياة والده، وجهد دون جدوى في إحداث فتنة

(١) Beatrice H. Zdler: Julia Domna. P. 190.

بين الجنود، وقضى سفيروس نحبه في يورك York في ٤ فبراير عام ٢١١ م وهو في الخامسة والستين من عمره، وفي السنة الثامنة عشرة من حكم مجيد موفق. وفي لحظاته الأخيرة أوصى ولديه بالوفاق والوئام، كما أوصى الجيش بهما خيراً، وأحرق جثمانه وأخذت «جوليا» الرماد المتبقي من الجثة إلى روما ليدفن في ضريح فخم شيد للأباطرة[1]

كانت «جوليا» تقف إلى جانب زوجها في جميع الإصلاحات التي قام بها طوال حكمه، سواء في الإدارة أو القيام بالأعمال العامة، أو إقامة الجسور وإصلاح الطرق، وترميم المباني القديمة، كما ساعدته «جوليا» في إصلاح «قاعة الاجتماعات للنساء» وإعادة معبد فستا .. Vesta إلهة المدفأة عند الرومان، وكانت رحلاتها المتعددة مع زوجها- وهو ما تظهرنا عليه صورها على العملات ونقوش المباني- دليلاً على تقدير زوجها لها، وما تقوم به من دور هام بوصفها إمبراطورة، أما الآن فقد تركها وحيدة، تعاني مشكلة الانقسام بين ولديها، والصراع بينهما على من يرث العرش بعد وفاة الأب.

لقد أوصى المستشارون الذين عينهم ألأب في حضور «جوليا» بتقسيم الإمبراطورية بحيث ينال «كاراكلا» أوروبا كلها، في حين تكون آسيا من نصيب «جيتا» . لكن جوليا عرضت التقسيم بقوله: «في استطاعتكم يا أولادي» تقسيم الأرض والبحار جميعاً، لكن كيف يمكن لكم تقسيم الأم؟! وهكذا رفضت فكرة التقسيم، وإن ظلت الكراهية تعمل عملها بين الشقيقين، وأخيراً استجاب «كاراكلا» لتوسلات أمه- بخبث ودهاء- ورضي بلقاء أخيه في بيتها على أساس أن تتم المصالحة والتراضي بينهما- وفيما هما يتحدثان اندفعت جماعة من الضباط كانوا مختبئين بسيوف مسلولة، وانهالوا على «جيتا» وحاولت الأم المذهولة أن تحميه بين ذراعيها، ولكن عبثاً كانت تكافح، وجرحت يدها وتلطخت بدماء ابنها الأصغر، بينما رأت الأكبر يستحث السفاحين

---

(١) Ibid.

ويعاونهم، ثم يفر إلى المعسكر ويرتمي على الأرض أمام تماثيل الآلهة. وعندما عاد إلى القصر وجد جمعاً من النسوة النبيلات يبكين الابن الأصغر الذي لقي حتفه قبل أوانه، فهددهن الإمبراطور الحقود بالموت فوراً، بل إنه نفذ تهديده بالفعل في بعضهن، واستقبل حكمه بإعدام عدد كبير قدر بأكثر من عشرين ألفاً من الجنسين كان من بينهم حراسه ووزراؤه ومعاونوه، فضلاً عن كل من ارتبط بأقل صلة بجيتا.. Geta. ووضع في ذهنه: كسب محبة الجيش، والنظر إلى بقية رعاياه على أنهم قليلو الأهمية، «وراح يتنقل بين أوروبا وآسيا، وحدث أن كانت تصحبه أمه، وهو يقيم في سوريا، عندما اقترب منه ضابط اسمه «مارتياس» مدعياً أنه إنما يؤدي واجبه وطعنه بالخنجر، وكانت تلك نهاية المارد الجبار الذي لطخت حياته الطبيعة الإنسانية بالعار[1].

ويقول أحد المؤرخين إن أمه حزنت عليه: «ولم يكن حزنها بسبب موته، أو أنها أرادت له طول العمر، بل لأنها شعرت بالحيرة عندما تبين لها أن عليها أن تعود من جديد على حياة خاصة..»[2].

---

(١) إدوارد جيبون «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» المجلد الأول، ص ١٩٢.

(٢) Beatrice H. Zedler: Julia Domna P. 122.

ثانياً: جوليا .. الفيلسوفة

كانت «جوليا» الإمبراطورة مشغولة بادية واجباتها الرسمية، في الوقت الذي كانت تتابع فيه اهتماماتها العقلية وتطوير ثقافتها ودراساتها الفلسفية، ويتمثل الدليل التاريخي على ذلك في شهادة اثنين من معاصريها: الأول هو: الفيلسوف اليوناني السوفسطائي «بفلوستراتوس Philostratus» ١٧٠-٢٤٥ ميلادية الذي تعلم في أثينا أولاً، ثم قام بالتدريس فيها بعد ذلك قبل أن ينتقل إلى روما ويستقر في بلاط الإمبراطورة «جوليا»، ويصبح أحد أعضاء حلقتها الفلسفية، وهو صاحب كتاب «حياة السوفسطائيين»(١).

والشاهد الثاني هو: السياسي والمؤرخ الروماني «ديوكاسيوس Dio Cassius (١٥٥-٢٣٠ ميلادية) الذي كتب «تاريخ روما» في ثمانين كتاباً، كان الأول- فلوستراتوس- لا يتحدث عنها إلا ويلقبها بـ «جوليا.. الفيلسوفة» كما يذكر أن «حلقة جوليا كانت مؤلفة من علماء الرياضة والفلاسفة»، ويقول أنه كان أحد أعضاء هذه الحلقة.

أما «ديو» فهو بعد أن يذكر السلوك العدائي لـ «بلوتيانوس» الوزير الأثير المقرب إلى سفيروس- تجاه جوليا يقول: ولهذا السبب فقد بدأت جوليا تدرس الفلسفة، وتقضي معظم وقتها مع السوفسطائيين»، ثم يشير إلى الفترة التي كانت فيها «جوليا» تتسلم رسائل رسمية من ابنها، وتقوم باستقبال الرجال المرموقين في «نيقوميديا» وأنطاكية في آسيا الصغرى

---

(١) Ethel M. Kersey: Woman Philosopgers A Bio- Critical Source Book. Green Wood Presws N.Y 1989. P. 137.

من عام ٢١٥ إلى عام ٢١٧ م يقول عنها ديو: «إن جوليا كرست نفسها أكثر وأكثر لدراسة الفلسفة مع هؤلاء الرجال..»

هذه التعليقات من جانب معاصري جوليا توحي بالأسئلة الآتية:

١- لا من هم أعضاء حلقة جوليا، أو صالونها الأدبي؟ وماذا كانت اهتماماتهم؟

٢- من هم فلاسفة السوفسطائية في عصرها؟!

٣- ما هي الفلسفة التي كانت تفضلها..؟!

سنحاول فيما يلي الإجابة عن هذه الأسئلة على التوالي:

ثالثاً: صالون جوليا الأدبي

أو حلقتها الفلسفية:

من هم أعضاء هذا الصالون...؟ يذكر فلوستراتوس أن حلقة جوليا كانت تتألف من «علماء الرياضة والفلاسفة». ويبدو أن مصطلح علماء الرياضة هنا كان يعني علماء التنجيم.. Astrologers، حيث كان التنجيم في ذلك الوقت جزءاً لا يتجزأ من الرياضيات، والأرجح أن «جوليا» احتفظت باهتمامها بهذا العلم من سوريا، ولا سيما أنها ولدت في مدينة حمص، وتربت على الديانة السورية القائمة في ذلك الوقت، ولقد سبق أن ذكرنا أن والدها كان الكاهن الأكبر «لإله الجبل» وفضلاً عن ذلك فيبدو أن زوجها كان يشاركها الاهتمام بالتنجيم أيضاً، فقد سبق أن ذكرنا أنه كان يستشير الأبراج في أمر زواجه، وأنها هي التي أوحت إليه بهذه الفتاة السورية التي يقول طالعها إنها ستتزوج ملكاً. وعلى الرغم من أنه يعوزنا أسماء علماء الرياضة والتنجيم في صالون جوليا الأدبي، أو حلقتها الفلسفية، فإن هناك أسماء كثيرة يذكرها المؤرخون الذي أعدوا قائمة طويلة من المثقفين المرموقين في عصر «جوليا» وذهبوا إلى أنهم جميعاً كانوا أعضاء في صالونها، فضلاً عن أخت جوليا واسمها «جوليا ميسا» وأبناء عمومتها وبعض أقاربها. والقائمة تضم الآتي أسماؤهم:

١- «بابنيان Papinian» وهو محامي مرموق- ويحتمل أن يكون ابن عم جوليا- الذي عمل في خدمة الإمبراطور سفيروس، وقام بكثير من الإصلاحات القانونية الهامة في الإمبراطورية.

٢- «أولبيان Ulpian»، وهو تلميذ المحامي السابق بابنيان، وأحد المشتغلين بالقانون، وكان عضواً في المجلس الاستشاري للإمبراطور سفيروس.

٣- «أوبيان Oppian» الشاعر الذي أهدى كتاباً عن الصيد للإمبراطور

الابن كاراكلا قائلاً: «إلى دونا العظيمة التي وهبته إلى سفيروس العظيم».

٤- «أثنايوس Athenaeus » مؤلف كتاب «السوفسطائيون على العشاء» وهو شرح للمأدبة السوفسطائية، ويحوي معلومات كثيرة متناثرة.

٥- الإسكندر الأفروديسي- الفيلسوف المشائي الشهير والملقب بالشارح الأكبر لأرسطو، وكانت عضويته في هذه الحلقة سبباً- فيما يبدو- في أن قام الإمبراطور سفيروس برعايته وتعيينه رئيساً للمدرسة المشائية في أثينا.

٦- «سرينس سامونيكس .. Serenus Sammonicus» الذي قتله «كاراكلا» بعد مقتل شقيقه جيتا .. Geta.

٧- «جالينيوس .. Galen» (١٢٩-٢١٥م) الفيلسوف والطبيب اليوناني الذي جال في أنحاء الامبراطورية الرومانية قبل أن يستقر في روما ويصبح طبيباً في بلاط الامبراطور «ماركوس أورليوس». وانصبت فلسفته على : فلسفة العلم، والطبيعة، والمنطق.

٨- «ماريوس ماكسيموس Maximus » الذي ألف كتاباً عن «حياة سبتموس سفيروس»، وهو الكتاب الذي أصبح مرجعاً في التاريخ الروماني.

٩- «ديو كاسيوس Dio Cassius» المؤرخ الروماني الشهير وصاحب كتاب «التاريخ الروماني» في ثمانين كتاب، كما أنه أيضاً كتاباً صغيراً عن الأحلام والبشائر.

١٠- «جورديان .. Gordian» الذي كان حاكماً للمقاطعات الرومانية في إفريقيا، والذي أهداه «فلوستراتوس» كتابه المعروف عن «حياة السوفسطائي»، وأصبح هو نفسه إمبراطوراً فيما بعد، ولكنه كان باستمرار شخصية مثقفة حتى قيل عنه إنه كان يقضي أيامه في صحبة أفلاطون، وأرسطو، وشيشرون، وفرجيل.

١١- مجموعة منوعة من السوفسطائيين الذين سيرد ذكرهم في القسم التالي.

رابعاً: السوفسطائيون..

The sophists

لا شك أن دارس الفلسفة اليونانية عندما يلتقي بمصطلح «السوفسطائي» فسوف يرد على ذهنه في الحال أسماء لامعة مثل: «بروتاجوراس.. Protagoras» صاحب العبارة الشهيرة «الإنسان مقياس الأشياء جميعاً» و «جرجياس Gorgias» صاحب كتاب «في الوجود، أو في الطبيعة» وكتبه الأخرى في الخطابة- ولا سيما كتابه: «رسالة في فن الخطابة»، وقد يستدعي مصطلح السوفسطائي أيضاً أفلاطون وأرسطو، ورأيهما في الفيلسوف السوفسطائي أنه الرجل الذي كان يدعي الحكمة وهو عاطل منها.. الخ الخ.

غير أن مصطلح السوفسطائي في عصر «جوليا» لم يكن له أي معنى ذمي، كما أنه لم يكن يدل على الموقف الفلسفي الشهير القديم، بل إنه كان في الواقع لقباً أو مصطلحاً شرفياً يطلق على الخطباء ومعلمي البيان الذين وصلوا إلى الذروة في المهارة الخطابية. فالسوفسطائيون في القرنين الثاني والثالث الميلادي كانوا على رأس المثقفين الذين ينالون تقديراً عالياً من علية القوم، ومن عامة الناس على حد سواء، كما كان الأباطرة يقدرونهم وينعمون عليهم بالمناصب والأماكن الرفيعة في الدولة، ولهذا فقد بلغوا من الثراء حداً جعلهم يغدقون الهبات على جماعاتهم بإقامة المباني العامة، كما أنهم أظهروا في حياتهم أن فن الإقناع يمكن أن يكون وسيلة للنجاح في الحياة العامة، وأحد مصادرنا الرئيسية عنهم هو «فلوستراتوس» الذي كان عضواً بارزاً في صالون «جوليا».

ويميز فوستراتوس في كتابه «حياة السوفسطائيين» بين

«السوفسطائية القديمة» التي أسسها «جورجياس» في القرن الخامس قبل الميلاد والسوفسطائية الثانية التي أسسها «إسكينس Aeschines»[1] في القرن الرابع ق.م.

لقد كان الفن السوفسطائي القديم يتعلق «بالخطابة الفلسفية» طالما أن أولئك الذين استخدموه كانوا يتخذون مواقف فلسفية في الموضوعات المطروحة في ذلك الوقت مثل: الشجاعة، والعدالة، والاعتدال، والشكل الحالي للعالم. الخ، أما السوفسطائية «الثانية» (ويفضل فلوستراتوس استخدام كلمة «الثانية» بدلاً من كلمة «الجديدة») فإن أتباع اسكينس Aeschines عالجوا موضوعاتهم من زاوية مختلفة، فيها السياسية، وفيها الثقافة العامة، وفيها تنقيح فن الخطابة نفسه، ومن ثم فقد كانت الموضوعات التي يدرسونها مستمدة من التاريخ والأدب اليوناني القديم، كما كانوا يستعرضون فيها مهاراتهم في فن البيان.

ويذكر «فلوستراتوس» في كتابه أولئك الذين ينطبق عليهم مصطلح «السوفسطائي» على الرغم من أن السوفسطائي- في رأيه- ليس فيلسوفاً خالصاً، فإنه لا بد أن يبدأ بالإصغاء، بعمق، إلى ثمانية من الفلاسفة، يبدو أنهم كانوا من السوفسطائيين، لأنهم يستعرضون نظرياتهم بسهولة ويسر، وفصاحة وبيان، وبعد ذلك يناقش «فلوستراتوس» تسعة من السوفسطائيين القدامى منهم «بروتاجوراس» و» جورجياس» و «هيباس» و «انطيفون» و«بروديقس» .. الخ وأكثر من ٤٣ من السوفسطائية الثانية، ورغم أنه ربما لم يكتب كتابه هذا عن «حياة السوفسطائيين» إلا بعد وفاة جوليا، فمن الصواب أن نفترض أنه طالما أن «فلوستراتوس» كان عضواً بارزاً في صالون جوليا التي كانت خبيرة بتاريخ السوفسطائية، فإنه كان يعرض عليها المعلومات ويناقشها فيما يصل إليه من معارف، وأنها كانت تتبع تأليفه للكتاب.

---

(١) كان اسكينس ٣٨٩- ٣١٤ ق.م خطيباً أثينياً بارعاً، وهو يمثل الجيل الثاني من السوفسطائيين فيما يقول «فلوستراتوس». كما كان معارضاً سياسياً لدموستين في الجمعية الأثينية.

وشاهدنا على أنه كان يفعل ذلك، نستمده من رسالة كتبها إلى «جوليا» يخبرها فيها أن أفلاطون لم يكن يمتعض من السوفسطائيين، بل كان على العكس، معجباً بهم، حتى أنه تبنى الصورة الأدبية للحوار التي كان يستخدمها «جورجياس» و «بروتاجوراس» و «هيباس». ثم يذكر كذلك أمثلة من المفكرين الذين رأوا أنه ينبغي محاكاة السوفسطائيين، ومنهم «إسبازيا الملطية» التي يقال إنها شحذت لسان بركليز وهذبته حتى يقلد «جورجياس» ثم يضيف: وإسكينس أيضاً الذي تعرفينه (والخطاب موجه إلى جوليا) وناقشنا حديثه فيما كتب من محاورات بأسلوب قاس، لم يتردد أن يكتب على غرار جورجياس في حديثه عن مفكرة مرموقة هي «ثارجيليا .. Thargelia».

ويختتم فلوستراتوس رسالته بقوله:

«أيمكن أن نرجو أن تقومي أنت أيضاً أيتها الملكة العظيمة بحث بلوتارك (٤٦-١٢٠م) أجرأ اليونانيين، أن يكف عن اهانة السوفسطائيين، وألا يسوق حماقات عن «جورجياس»؟! فإن فشلت في إقناعه، فأنت- على أقل تقدير- تعرفين، بحكمتك وحصافتك، الاسم الذي يطلق على رجل من هذا القبيل[١]».

ولما كان «بلوتارك» كاتب السير اليوناني المعروف قد مات قبل ان تولد «جوليا» بنصف قرن، فقد تشكك البعض في صحة الرسالة، غير أن «فلوستراتوس» عندما يطلب من «جوليا» أن تتحدث إلى رجل ميت، فإنه يستخدم عامداً- فيما يبدو- ضرباً من الفن الأدبي القديم، ولا سيما أن «جوليا» كانت على علم تام بفلسفة «جورجياس» وغيره من السوفسطائيين القدامى[٢].

---

(١) Qouted by Beatrice H. Zelder: Op. Cit. P.125-126.

(٢) لاحظ أن السوفسطائيين القدامي كانوا أول واضعين حقيقيين لعلم الخطابة، ولقد كان هذا العلم هو العلم الذي يجب أن يوضع في هذا العصر من حيث إنه الممثل الحقيقي لروح العصر، كما أنه المعبر عن

وبالإضافة إلى معرفة «جوليا» بالسوفسطائيين القدماء، فإن كتاب «فلوستراتوس» يساعدنا في معرفة «السوفسطائيين في القرنين الثاني والثالث الميلاديين الذي عرفتهم جوليا معرفة شخصية، ومنهم الأسماء الآتية:

«أبوللونيوس Apollonius، الأثيني (وهو غير أبو للونيوس الطياني الفيثاغوري الذي سنتحدث عنه بعد قليل)، الذي كان في زيارة للإمبراطور سفيروس عام ١٩٦ أو ١٩٧، ودخل في منافسة خطابية وظفر فيها.

«هيراقليدس.. Heracleides» الكاهن الأكبر في لقيا[1] Lycia الذي اشتهر بأنه سوفسطائي، وله حادثة معروفة هي أنه انهار وهو يرتجل خطاباً أمام الإمبراطور سفيروس.

«إيلياس.. Aellias» وهو مفكر روماني عاش في عهد سفيروس، وكان يتحدث اليونانية بطلاقة، وقد ألف في التاريخ، كما أنه كتب عن طبيعة الحيوان.

وهناك سوفسطائي آخر معروفاً جيداً للإمبراطور وزوجته جوليا وهو «أنتيباتر Antipater» الذي كان معلماً خصوصياً لابنيهما، كما أنه

=
إحدى خصائص الروح اليوناني، وهي الميل إلى النضال الذي ظهر أولاً في الحياة الجسمية (الألعاب الرياضية في بلاد اليونان) ثم انتقلت المنافسة في القرن الخامس إلى الميدان الفكري، وأصبحت أداة المنافسة هي الكلام أو الخطابة،؟ ولذا كان للخطابة المكان الأول في الحياة الروحية اليونانية- انظر ذلك د.عبد الرحمن بدوي «موسوعة الفلسفة» المجلد الأول ص ٥٨٨- ٥٨٩ المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت عام ١٩٨٤.

(١) كانت لقيا Lycia مقاطعة بحرية قديمة في الجزء الجنوبي الغربي من آسيا الصغرى، ثم أصبحت ولاية رومانية.

عمل وزيراً لدى سفيروس، وكتب مرثية بعد مقتل جيتا.. Geta أغضبت شقيقه، ومات في الثامنة والستين من عمره «بأن أمسك، إرادياً، عن الطعام»!

ويقول «فلوستراتوس» إن هموكراتس Hemocrates كان عضواً في الحلقة السوفسطائية، كما إن هليودورس Heliodorus كان أيضاً من بين الحلقة السوفسطائية.

ويقول أيضاً عن فلسكس.. Phliscus من تساليا إنه عندما كان في روما: «التحق بحلقة جوليا التي تضم مجموعة من الفلاسفة وعلماء الرياضيات، وحصل منها- برعاية الإمبراطور- على كرسي الخطابة في «أثينا»»، ولقد استمر يشغل كرسي في الخطابة في أثينا لمدة سبع سنوات.

كما كان «فلوستراتوس» نفسه أحد الأعضاء البارزين في صالون جوليا الأدبي أو حلقتها الفلسفية، كما كان من المقربين إليها، ولهذا نراه بعد أن يذكر «جوليا» بالاسم يقول: «كنت أنتمي إلى حلقة الإمبراطورة التي كانت معجبة للغاية بممارسة البيان والخطابة»»، وهو في نهاية كتابه «حياة السوفسطائيين» يعتبر نفسه واحداً من السوفسطائيين، يقول:

«أما عن فلوستراتوس، وعن قدراته في القانون والمحاكم، والبلاغة، والسياسة، وكتابة البحوث، وإلقاء الخطب الحماسية- وأخيراً: موهبته في الحديث المرتجل- فليس لي أن أتحدث عن ذلك»[١].

وهناك كاتب من المحدثين فحص حلقة «جوليا» أو صالونها الأدبي فحصاً دقيقاً، ثم قال في النهاية:

«لقد كانت هناك حلقة من السوفسطائيين والفلاسفة تشارك فيها» جوليا» بنفسها في المناقشات، وتستمتع بما يدور فيها من حوار، كما كان فلوستراتوس، وفلسكس السوفسطائيين عضوان فيها..»[٢].

---

(١) Beatrice H. Zedler: Op. Cit. p.126

(٢) Ibid. P. 126

خامساً: ما هي الفلسفة التي درستها جوليا..؟

لا تقدم لنا نصوص المعاصرين «لجوليا» إجابة واضحة ومباشرة عن هذا السؤال. فها هو «فلوستراتوس» في كتابه «حياة السوفسطائيين» يشدد على أسلوب البيان، والخطابة عند من كان حضر الحلقة من الرجال، كما كان هناك بعض السوفسطائيين الذين اهتموا بأفلاطون والأكاديمية، ونحن نعرف أيضاً من كتابه أنه جرت العادة في زمن ماركوس أورليوس أن يعين الإمبراطور لا فقط أساتذة كراسي البيان والخطابة في أثينا وروما، بل أيضاً أساتذة: الأفلاطونية، والأرسطية، والرواقية، والأبيقورية. وربما ظل هذا التقليد حتى زمن «جوليا». وعلى كل حال فإن «فلوستراتوس» يشير إلى الأنواع الأساسية من الفلسفة في القرنين الثاني والثالث الميلاديين التي ربما رغب الطالب في معرفتها، لكن الواقع أننا إذا أردنا أن نعرف اهتمامات «جوليا» الفلسفية فربما كان الأفضل أن نبحث عنها في الكتب التي أمرت بتأليفها، فهي تدل، بالقطع على منحى التفكير عندها.

سادساً: الفلسفة التي اهتمت بها جوليا

قلنا إنه ربما كان لـ «جوليا» اهتمامات فلسفية رئيسية، ويمكن أن نجدها في الكتب التي تم تأليفها بأمر من الإمبراطورة، فما هي هذه الكتب؟! من الثابت أن «جوليا» أمرت فلوستراتوس بتأليف كتاب عن سيرة حياة أبو- للونيوس الطياني- فمن هو هذا الفيلسوف؟ وما الذي جذب انتباهها إليه؟

١- أبوللونيوس الطياني Appollonius of Tyana:

هو فيلسوف يوناني من الفيثاغورية المحدثة في القرن الأول الميلادي (ولد قبل المسيح بأربعة أعوام)، وكان بمثابة «مسيح وثني»، درس في طرطوس، وفي أجيا في معبد أسكليوس، ووقف نفسه على مذهب فيثاغورس، سافر إلى الهند، وزار بابل ونينوى وهو في طريقه إليها، كما زار اليونان وإيطاليا واسبانيا، وقصة حياته مليئة بالخوارق والمعجزات حتى عده الناس ساحراً، ولكنه كان يؤكد أنه لا يملك سوى عطية الاستبصار والتنبؤ، وبعد أن نجا بأعجوبة من نيرون ودومشيان، مات عن مائة عام في أفسس حيث أسس مدرسة فيثاغورية، وقد بلغ حد القداسة في هذه المدينة، حتى أن صوره كانت ترفع في كثير من المعابد، وقد ابتنى له «كاراكلا» معبداً، ونحن نعرف من كتبه «حياة فيثاغورس» وقد اعتمد عليه فرفريوس ويامبليخوس، ونحن نعرف أن من تأليفه أيضاً «رسالة في العرافة».. الخ الخ[1].

---

(١) قارن حياته بالتفصيل: جورج طرابيشي «معجم الفلاسفة» ص ٣٦ دار الطليعة- بيروت.

١- تلك كانت فكرة سريعة وعامة عن هذا الفيلسوف الذي اهتمت به «جوليا» وأمرت بتأليف كتاب عنه، فما الذي شد انتباهها إليه؟! لقد شد انتباهها في الواقع بعض الذكريات عن «ابوللونيوس» رواها تلميذه «داميس.. Damis»، وعرضها بأسلوب شيق قائلاً إنه: «يأمل أن يكون كتابه على شرف أبوللونيوس، وأن تكون فيه فائدة لأولئك الذين يحبون العلم»(١).

لقد نظر بعض الناس إلى «أبوللونيوس» على أنه ساحر وعراف، ويروى فلوستراتوس بعض الروايات عن قدرته السحرية، حتى أننا لا نستطيع أن نفرق في أنشطته العادية بين الواقع والخيال، لكن الحقيقة أن أبوللوتيوس كان فيلسوفاً من المدرسة الفيثاغورية المحدثة، ولد في طيانا Tayana في اقليم كابادوسيا Cappadocia في الجزء الشرقي من آسيا الصغرى، ودرس في شبابه: فلسفة أفلاطون، والمدرسة المشائية، والرواقية، والأبيقورية، وفيثاغورس، وفي السادسة عشرة من عمره اعتنق حياة الزهد الفيثاغورية ومارسها، فامتنع عن تناول اللحم، وشرب الخمر، وأدان التضحية بالحيوانات كقرابين للآلهة، ولم يكن يرتدي من الملابس سوى المصنوعة من الكتان، كما كان طويل الشعر، ملتحياً، وباختصار: عاش حياة الفقر والزهد والعفة، ومارس طقوس المدرسة الفيثاغورية ومنها «الصمت»، إذ يروى عنه أنه ظل خمس سنوات في صمت مطبق، وتعلم كثيراً من الكهنة ورجال الدين في جميع البلدان، فعندما سافر إلى فارس- وهو في طريقه إلى الهند- التقى «بالمجوس»- كهنة الزرداشتية- كما التقى في الهند برجال الدين البراهمة وحاورهم في الهندوسية، والتقى بالفلاسفة «العراة» كما سافر إلى مصر وتعلم من كهنة وادي النيل، ثم اليونان، وايطاليا، وأسبانيا.. الخ، كما سبق أن ذكرنا، ولقد اتهمه الإمبراطور نيرون.. Neron اتهاماً باطلاً بأنه خائن- وكذلك فعل الامبراطور دومشيان.. Domitian واستطاع الإفلات من

(١) اقتبسه بيراتس زدلر في بحثها «جوليا دومنا» السالف الذكر ص ١٢٨.

الموت بإعجوبة، ومات خلال حكم نيرفا Nerva، أعني فيما بين ٩٦ و٩٨م.[١].

وكان فيثاغورس الذي يعتبره «أبوللونيوس» ملهمه الروحي، قد أسس في القرن السادس قبل الميلاد جماعة دينية- كما سبق أن ذكرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، كانت تدرس العلوم ولا سيما الرياضيات- سارت على قواعد صارمة في حياتها كوسيلة للتطهر والعمل على خلود النفس، وهي قواعد فصلنا فيها القول فيما سبق. وكانت الفيثاغورية المحدثة إحياءً للتعاليم الفيثاغورية القديمة ممزوجة ببعض العناصر الأفلاطونية والصوفية، وكان مودراتوس Moderatus، وأبوللونيوس Appollonius أعظم ممثليها في القرن الأول الميلادي.

لقد نظر بعض الباحثين إلى كتاب فلوستراتوس عن «حياة أبوللنيوس» على أنه رواية، أو قصة خيالية، لكن بغض النظر عن دقة الكتاب من الناحية التاريخية، فهو كتاب هام بالنسبة لنا «بوصفه سجلاً للمبادئ التي أحيتها «جوليا الفيلسوفة» ولا سيما وأننا لا نعلم عن كتب «جوليا» نفسها شيئاً، ومن ثم ففي غيبة تأليف «جوليا» فإننا سوف ننظر إلى هذا الكتاب لا على أنه كتب بتكليف منها فحسب، بل على أنه يكشف كذلك عن الأفكار الأساسية التي اهتمت بها، وأرادت تنميتها وتطويرها، ولقد دارت هذه الأفكار حول موضوعات منوعة وهامة منها: الله، والإنسان، والخلود، والأخلاق الشخصية، والفلسفة السياسية.. الخ[٢].

ومن الواضح أن «ابوللونيوس» عبر عن ميله لفلسفة فيثاغورس حيث يقول: «مذهبي الخاص في الحكمة هو نفسه مذهب فيثاغورس فيلسوف ساموس.. Samos»، كما أنه تعلم من فيثاغورس الشيء الكثير

---

(١) الإمبراطور الروماني ماركس نيرف (٣٥-٩٨) كان امبراطوراً لروما لمدة عامين فقط من ٩٦ حتى ٩٨.

(٢) Beatrice H. Zedler Op. Cit. P. 128.

حول السلوك العملي في الحياة: ضبط النفس، والسيطرة على رغباتها، والسير بقواعد حكيمة. كما تعلم منه ضرورة عبادة الآلهة: «وأن يعترف بوجودها سواء أكانت مرئيةً أم لا»، وهكذا تعرف على الله خالق العالم الذي اخرج الأشياء جميعاً إلى الوجود، لأنه إله خير[١].

وكان أسلوب العبادة الذي يسير عليه أبوللونيوس هو نفسه أسلوب العبادة عند «جوليا» ابنة الكاهن الأكبر لإله الجبل الذي عرفته منذ نعومة أظافرها، عندما كانت تصلي لإله الشمس الذي كان يتحكم في الفصول الأربعة وبذلك كان مصدر: الضوء والنور والنار، وانضاج المحاصيل، كما أن أبوللونيوس- مثل جوليا- دعا إلى إقامة تماثيل للآلهة في المعابد، وأعتقد أن هذه التماثيل- سواء أكانت لأبوللو، أو زيوس، أو أثينا- تمثل جهد العقل البشري لتصور الحقيقة المثالية. ولكنه نقد التراث المصري الذي كان يصور الآلهة في صورة حيوانات[٢]، ففي رأي أبوللونيوس أن:

«هناك تشابهاً معيناً بين الآلهة والإنسان، ولقد مكن هذا التشابه من دون جنس الحيوان أن يتعرف على الآلهة، وأن ينظر في الطبيعة والطريقة التي تشارك بها في الجوهر الإلهي.. إن الناس الطيبين الخيرين يحملون في أعماقهم شيئاً من هذا الجوهر الإلهي»[٣].

(١) Ibid, P.129.

(٢) يعتقد هيجل على العكس أن عبادة الحيوان تمثل الارتباط بين ما هو روحي وما هو طبيعي، ومن ثم فإن العبادة المصرية التي هي أساساً عبادة الحيوان هي الأكثر تطوراً ورقياً، ويقول أيضاً: «من المؤكد أن الأمم التي عبدت الشمس والنجوم ليست أعلى قدراً من تلك الأمم التي عبدت الحيوانات، بل العكس هو الصحيح، لقد تصور المصريون في عالم الحيوان الشيء الباطني، وما هو غير قابل للادراك..» محاضرات في فلسفة التاريخ «العالم الشرقي» ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ص ٢٠٣-٢٠٤ مكتبة مدبولي بالقاهرة.

(٣) Beatrice H. Zelder. Op. cit. P.130.

وهو يرى أن كل شيء يحمل في داخله نفساً خالداً، ومصدر وجود هذه النفس هو «ما لا ينسل» كما أنه اعتقد، مثل أفلاطون، أن النفس بما أنها مقيدة بجسد فانٍ فهي مسجونة، ومن ثم فقد قارن بين حياة النفس في البدن وحياة الإنسان داخل السجن، واعتبر الموت هو الخلاص أو الفرار من هذا السجن، غير أن أبوللونيوس كان على وعي بأن هناك آراء مختلفة ومتنوعة عن النفس، ويعتقد فلوستراتوس أننا لو أخذنا بتعالم أبوللونيوس عن النفس «فإننا نستطيع- بفرح ومتعة، وبمعرفة جديرة بطبيعتها البشرية- أن نشق طريقنا إلى الهدف الذي رسمته لنا ربات القدرFates..»(١).

أما هو هذا الطريق الذي رسمته لنا ربات القدر، فذلك ما يتضح من نصوص كثيرة من سيرة حياة أبوللونيوس، على الرغم من أنه لا يعرض بحوثاً نظرية في فلسفة الأخلاق، فإننا نجد تشديداً وتركيزاً عن حاجتنا إلى تحصيل فضائل: الحكمة، والشجاعة، والعدالة، والاعتدال، وضبط النفس. ولقد اعتقد أبوللونيوس أن الإنسان الذي يعشق الحكمة هو أعظم من كولوسس رودس ..Colossus Rhodes(٢). أما بالنسبة للشجاعة فقد شدد أبوللونيوس على أنه لا يكفي أن تمتلك الفضيلة كصفة، بل لا بد للمرء أن يمارسها أيضاً.

وكان أبوللونيوس يعلم تلاميذه فضيلة العفة والاعتدال، وضبط النفس، ولهذا فقد حصر نفسه- بالنسبة لاستخدام الأمور المادية- في الضرورات الأساسية، لأنه اعتقد أن أسوأ الرذائل جميعاً هي رذيلة

---

(١) ربات القدر Fates: ثلاث ربات في الأساطير الرومانية وهن: فاني، ولاكسيس، وكلوثو، ولكل واحدة منهن وظيفة خاصة تقوم بها في حياة الانسان. راجع إمام عبد الفتاح إمام « معجم ديانات وأساطير العالم» مكتبة مدبولي بالقاهرة.

(٢) تمثال ضخم لإله الشمس هليوس Helios، كان ارتفاعه يزيد عن ٣٠ متراً، أقيم حوالي ٢٨٠ ق.م. ويعتبر هذا التمثال إحدى عجائب الدنيا السبع.

الجشع والشر، وفضلاً عن ذلك فقد انتقد السكر والنهم في تناول الطعام، كما اعتقد أنه لكي نبقى على ذهن الإنسان صافياً، فمن الأفضل أن يبقى «مرحاً في رصانة واتزان» وها هنا نراه يفضل أن تشرب الماء بدلاً من الخمر، وإن كان لا يطلب من أصحابه أو من الملوك الامتناع الكامل عن تناول الخمر، بل فقط الاعتدال في تناولها. يقول:

«.. الفلسفة بالنسبة للملك هي أن يندمج الاعتدال والانغماس معاً بنسب معقولة، أو هي الإفراط والصرامة معاً.. لكي يكون لديه الكبرياء وعزة النفس».

ولقد دار النقاش حول موضوع العفة عندما تساءل داميس .. Damiss تلميذ أبوللونيوس: هل يمكن أن توجد فضيلة العفة لدى الخصّي..؟ ولقد أجاب أبوللونيوس بقوله: «إن فضيلة العفة لا يمكن أن توجد لدى الخصّي، طالما أن العفة الجنسية لا ترجع إليه هو، بمعنى أنه لم يختر ذلك وإنما جاء رغماً عنه، وهو يذهب إلى أن العفة الحقيقية- مثلها مثل الاعتدال- لا تعني العجز عن الإفراط أو الإقلال في أفعالك أو رغباتك تحت سيطرتك»(١).

وفي مناقشة أبوللونيوس للعدالة نراه يشدد أيضاً على المعنى الايجابي للفضيلة،؟ ويطرح السؤال الآتي: هل مجرد الامتناع عن الظلم يشكل العدل..؟ لقد تعلم أبوللونيوس من براهمة الهنود أن العدالة هي أكثر كثيراً من أن تعني اللاظلم، أو عدم ارتكاب أفعال ظالمة، ذلك لأنها تتطلب من المرء أن يكون ايجابياً في فعل ما هو عدل، وأن يحث الآخرين على عدم ارتكاب الظلم(٢).

ولم يكن «أبوللونيوس» مهتماً بأخلاق الفرد فحسب، بل أيضاً بأخلاق المجتمع، فقد كان مهتماً، بصفة خاصة،؟ بالطريقة التي نحقق بها الانسجام في المجتمع، وكيف يمكن للفلسفة أن تعين الحاكم

(١) Beatrice H. Zelder. Julia Domna p. 130.

(٢) Ibid, P. 131.

وتساعده في أفعاله، وتقف بجواره وترشده في سلوكه، وهو يعترف من الناحية الواقعية بوجود منافسة بين المدن (أو الدول) لكنه يعتقد أن هذه المنافسة ينبغي أن توجه نحو إبراز ما هي المدينة التي تقوم بأداء واجباتها على خير وجه، وتحقق بالتالي ما نسميه بالصالح العام، وكثيراً ما نراه يردد ما يقوله أفلاطون في «الجمهورية» : «.. يبدو لي أنه من الأفضل لكل مرء أن يفعل ما يفهمه أحسن من غيره، وأن يفعل الفعل الذي يمكن أن يفعله أفضل من غيره..»

أما من حيث الفلسفة السياسية فقد اعتقد أبوللونيوس أن النظام الملكي هو أفضل صور الحكم، ولا سيما إذا كان حاكم القطيع البشري راعياً عادلاً ولقد عاش هو نفسه تحت حكم العديد من الأباطرة الرومان، ذكر منهما اثنين على أنهما حاربا الفلسفة والفلاسفة، فقد أصدر الإمبراطور نيرون .. Neron [(١)]، مرسوماً بتحريم الفلسفة، فلا يجوز لأحد في روما أن يقوم بتدريسها و دراستها، وكذلك فعل الامبراطور الثاني وهو دومشيان Domitian [(٢)] الذي جعل مجرد كلمة

---

(١) نيرون Neron (٣٧-٨٦) امبراطور روما ٥٤-٨٦م تميز عهده بالطغيان والوحشية، وأقنعته عشيقته أن أمه تتآمر عليه لتسقطه، فرضي أن يقتل المرأة التي حملته في بطنها، فطاردها رجاله حتى قصرها ولما قبضوا عليها خلعت ثيابها وقالت لهم «ادفعوا سيوفكم في رحمي» واحتاج قتلها عدة طعنات، ولما رأى الامبراطور جثتها العارية كان كل ما قاله «لم أعرف أن لي أماً بمثل هذا الجمال» وكان نيرون يومها شاباً في الثانية والعشرين من عمره (عام ٥٩م) مغرماً بالشعر والموسيقى، والفنون الجميلة، والتمثيل، أحرق روما ٦٤م، واتهم المسيحيين بذلك واضطهدهم، وانتحر بعد أن ثار عليه القادة العسكريون في أفريقيا، وأسبانيا وبلاد الغال (فرنسا).

(٢) دومشيان Domitian (٥١-٩٦م) امبراطور روماني (٨١-٩٦) ابن الامبراطور فسبازيان. رقي العرش خلفاً لأخيه الامبراطور تيطس Titus، كان حكمه استبدادياً يتسم بالقصوة والوحشية، حارب الفلسفة، وتعقب الفلاسفة.

«الحكمة» إهانة أو اساءة يستوجب صاحبها العقاب، كما أصدر مرسوماً يعاقب الفلاسفة ويتعقبه، وفي الوقت الذي نجد فيه أباطرة رومان آخرين، من أمثال فسبازيان Vespasian (١)، وتيطس Titus (٢) - يطلبون العون من أبوللونيوس ويسألونه المشورة، ولقد قال في معرض رده على فسبازيان: «إن جلالة الملك لا يعلمه أحد، بل أقصى ما يستطيع أن يفعله أن يقدم له مجموعة من النصائح والإرشادات العامة منها:

- مارس سلطتك باعتدال.
- دع القانون يحكمك أنت قبل أن يحكم رعيتك.
- احترم الآلهة.
- لتكن عاهلاً خيراً وصالحاً.

فما هو الذي يمكن أن يهم الإمبراطورة «جوليا» من ذلك كله..؟! لا شك أنها اهتمت بالجوانب الأخلاقية والسياسية معاً: الأخلاق الشخصية التي تهم الفرد في سلوكه، والأخلاق الاجتماعية التي تساعد في تحقيق الانسجام في المجتمع، ومن ثم فقد اقتنعت تماماً بأن الفلسفة يمكن أن تكون مرشدة لا في حياة المرء الشخصية فحسب، بل في ممارسة السلطة السياسية أيضاً.

على الرغم من أن «فلوستراتوس» لم يكن قد انتهى بعد من تأليف كتابه عن «حياة أبوللونيوس» عندما ماتت جوليا عام ٢١٧م- فإنها بغير شك كانت على علم بمضمونه، فهي التي أمرت بتأليفه وعاصرت مراحل هذا التأليف، وشجعت «فلوستراتوس» وساندته في كل مرحلة.

---

(١) فسبازيان.. Vespasian (٩-٧٩م) امبراطور روماني (٦٩-٧٩م) حاول القضاء على تمرد اليهود بمحاصرة أورشليم (القدس)، ثم ترك الحصار لأبنه تيطس Titus وهرع إلى روما لكي يقر النظام بعد انتحار «نيرون».

(٢) تيطس Titus (٣٩-٨١م) إمبراطور روماني (٧٩-٨١م) ابن الامبراطور فسبازيان وخليفته أعاد بناء روما بعد أن احرقها نيرون.

ومن ثم فقد ذهب احد الكتاب، بحق إلى أن هذا الكتاب: «يقدم لمحات مضيئة لذهن امرأة لعبت دوراً رائداً في فترة حاسمة من التاريخ الروماني»، وذلك بسبب أنها هي نفسها كانت عاشقة للفلسفة، كما كانت تؤمن بخلود النفس، وحاجة الإنسان إلى الفضائل العقلية والخلقية، بقدر حاجته إلى الإرشاد والتوجيه الذي يمكن أن تقدمه الفلسفة لأولئك الذين لديهم سلطة سياسية ويمارسونها.

وعلى الرغم من أن المذهب الفيثاغوري الجديد نسخته الأفلاطونية المحدثة، فلا شك أن «جوليا» قد وجدت الكثير من الموضوعات التي اهتمت بها عند أبوللونيوس، وكانت جديرة بأن تعجب بها، كما وجدت الكثير من التعاليم الفلسفية المألوفة في الفلسفة الكلاسيكية.

الخاتمة

تلك هي المرأة اللامعة التي كانت شعلة مضيئة في مدينة روما، فلماذا أطلق عليها المؤرخون في القرن الثالث الميلادي لقب «جوليا.. الفيلسوفة»؟

في استطاعتنا أن نجيب، في إيجاز، أن سبب التسمية يرجع لانشغالها بالفلسفة، ودراساتها لكثير من الموضوعات والمشكلات الفلسفية، كما أنها أمرت بتأليف كتاب عن فيلسوفة من الفيثاغورية المحدثة، رأت أن أفكاره لا بد أن يعرفها الناس لما لها من أهمية، كما أنها كانت على علم، وصلة مباشرة، بأفكار السوفسطائيين القدماء، وبمعلمي الخطابة من السوفسطائية الثانية في عصرها، وفضلاً عن ذلك كله فقد تعلمت هي نفسها من خلال صالونها الأدبي، وحلقتها الفلسفية، كما شجعت هي نفسها الآخرين أن يتعلموا، أما واقعة أنها كانت إمبراطورة، فقد كانت ذات مغزى خاص، لقد سبق أن رأينا أن بعض الحكام السابقين من الرجال الأشداء من أمثال «نيرون» و «دومشيان» قد حرموا الفلسفة دراسة وتدريساً، واضطهدوا الفلاسفة ونفوذهم خارج البلاد، وأعدموا أساتذتهم على نحو ما فعل «نيرون» مع سنكا الفيلسوف الرواقي الكبير، عندما أمره بالانتحار، فقطع الرجل شرايينه وترك الدماء تسيل حتى قضى نحبه! أما «جوليا دونا» فقد استخدمت سلطتها الإمبراطورية في حماية الفلسفة، كما أنها ساعدت على ازدهار الفلاسفة، وأعطتهم المكانة التي يستحقونها، وأمرت بتأليف الكتب عنهم، وتحليل أفكارهم، ومناقشة فلسفاتهم.. وليس ذلك بالانجاز السهل.[1]

---

(١) Beatrice H. Zelder. Julia Domna p.123 in «A History of woman =

وتقول إثيل كيرزى.. Ethel M. Kersey إن «جوليا دونا».. أو «جوليا الفيلسوفة» هي المرأة التي أهدى إليها ديوجنز اللايرتى Diolaertius Genes كتابه الشهير «حياة مشاهير الفلاسفة»[١].

=
Philosophers» Vol I..

(١) Ethel. Kersey:«Woman Philosophers A Biocritical Source Book» Green Wood Press, New York, 1989, P.137.

الفصل السابع

«ماكرينا .. Makrina»

«جوهر النفس هو قدرتها على التفكير العقلي، ولا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة..»

ماكرينا .. Makrina

أولاً: حياتها ومؤلفاتها

ماكرينا Makridna (٣٣٠ج-٣٧٩م) قديسة، وفيلسوفة يونانية، وصاحبة أقدم نظام ديني لزهد النساء وتنسكهن، نقل إلينا حياتها شقيقها جريجوري Gregory (٣٣١-٣٩٦م) أسقف نيسا.. Nyssa من (٣٧٠-٣٧٦). وأحد آباء الكنيسة الشرقية، وأحد أبطال مجمع القسطنطينية (استانبول حالياً).

ولدت في قيصرية الجديدة عام ٣٣٠ في القرن الرابع الميلادي، وهي تنحدر من أسرة أرستقراطية، كان والدها- باسيلبوس وإيميليا- ينتميان إلى الطبقة الأرستقراطية، حيث كانت الأسرة تملك أراضي شاسعة يعمل فيها العبيد، صحيح أن أملاك الأسرة صودرت، لكن من المحتمل أنها عادت إليها عند تولي الإمبراطور قسطنطين الحكم، كان جدها لأمها فقيهاً في الديانة المسيحية، وضليعاً في الفلسفة اليونانية على حد سواء، ويخبرنا شقيقها جريجوري كيف أن شقيقته «ماكرينا» عاشت حياة زهد وتنسك، ولقد اختار شقيقاها «باسليوس» و «بتروس» حياة الزهد أيضاً، ولقد خلدها شقيقها الثالث «جريجوري» الذي امتدحها في كتاب ألفه عنها بعنوان «حياة ماكرينا Vita Makrina» ويذكر جريجوري أنه كان بينه وبين شقيقته مناقشات فلسفية حول خلود النفس والبعث والقيامة، حتى وهي على فراش الموت.

ولقد دون جريجوري هذه المناقشات في محاورة جعل عنوانها «في النفس والقيامة De Anima et Resurrectione»، بعد موتها مباشرة، ويتضح من هذه المحاورة أن «ماكرينا» كانت مثقفة ثقافة رفيعة، وأنها كانت على دراية ممتازة بالفلسفة اليونانية، فقد علمتها أمها «إميليا

«Emelia» لكنها لم تتلق أي تعليم رسمي، على نحو ما تعلم شقيقاها في أثينــا، ولقــد برهنــت «ماركرينــا» علــى عقليــة ممتــازة وعلــم واســع بالموضـوعات التـي ناقشـتها الفلسـفة اليونانيـة منـذ أفلاطـون، ويـذهب البـاحثون فـي حياتهـا إلـى أن محـاورة «فـي الـنفس والقيامـة» هـي الشـطر الثاني من محاورة فيدون لأفلاطون.[1]

(١) Ethel M. Kersey Woman Philosophers: A Bio- Critical Source Book, «p.1469. Green Wood.

ثانياً: ماكرينا.. والتراث الروحي

١- وحدة النفس وخلودها:

تدافع ماكرينا في محاورة «في النفس والقيامة» عن خلود النفس، في حين يلعب جريجوري دور الخصم، لكي تزداد الحقيقة وضوحاً وتألقاً، وتقلب القضية من جميع الجوانب. أما وجود النفس فهو أمر مسلم به طوال المحاورة على نحو ما جرت العادة في العالم القديم كله، وتصف ماكرينا طبيعة النفس على النحو التالي:

«النفس جوهر مخلوق حي وعقلاني تتغلغل فيه قوة الحياة، والقدرة على إدراك الموضوعات الحسية، وهي توجد في جسم عضوي مزود بالحواس، علي قدر ما تهب الطبيعة هذه القوى»(١).

ويذكرنا وصفها لملكات النفس بوصف أفلاطون في محاورة «فيدون»، فيما عدا أن ماكرينا تسمى النفس «بالجوهر المخلوق». اما في محاورة فيدون فإن أفلاطون يضع النفس في مرتبة وسطى بين العالم الحسي المرئي وعالم المثل، أو العالم العقلي، وهو يقول في محاورة «طيماوس .. Timaeus»، إن النفس خلقها الصانع Demiurgos» ولا سيما الجزء الأعلى منها، وهو الجزء العقلي..»(٢) وتذهب ماكرينا إلى أن النفس هي مبدأ الحياة والحركة، لأن بقايا الجسد الميت ومخلفاته عندما تصبح أشلاء هي نثرات تختفي عند الموت، والتصور الذي يقول إن النفس هي مبدأ الحياة موجود عند أفلاطون في محاورة فيدون(٣) بوصفه التصور الذي يذهب إلى أن النفس هي ملكة الإدراك والتفكير، ولا يمكن أن تكون شيئاً مادياً.

---

(١) Quoted By: Cornelia W. Wolfskee L: Markina p.140.

(٢) Plato: Timaeu. 69. C.

(٣) Phaedo. 105.C.

غير أن برهان ماكرينا على خلود النفس ليس هو نفسه برهان أفلاطون في «فيدون»، فعندها أنه لا بد أن تكون هناك قوة عقلية وروحية قادرة على التوفيق والتنسيق، وتفسير نتائج كل فعل من أفعال الإدراك الحسي، وهذه القوة الروحية هي: النفس التي هي واحدة، وبسبب هذه الواحدية فإن النفس تبقى بعد فناء الجسد، لأن البسيط غير المركب لن يفنى عندما يتلاشى المركب، وهذا يعني أن النفس التي هي مبدأ الحياة خالدة، ويظهر هذا البرهان في الفصل السابع من محاورتها مع شقيقها جريجوري، ويعارض شقيقها فكرتها التي تقول إن النفس تبقى أيضاً مع العناصر التي يعود فيها الجسد الميت، غير أن «ماكرينا» تدافع عن قضيتها، ففي رأيها أن النفس واحدة، وروحية، وغير قابلة للفناء، ولا يمكن أن تنقسم على أجزاء مهما يكن نوعها [1]، إن النفس لا يمكن أن تكون مع عنصر- كما يقترح جريجوري- وتترك بقية العناصر، فواحدية النفس وعدم قابليتها للقسمة، يضمنان عدم فناءها.

سوف نتحدث فيما يلي عن زهد «ماكرينا» وتنسكها، لكن لما كان هذا الزهد يمكن أن يفهم أفضل في ضوء تراث الزهد المسيحي، وغير المسيحي، الذي استمر قروناً طويلة، فإنه يبدو من الأفضل أن نصف بإيجاز الحياة العقلية والروحية في القرن الرابع قبل أن نناقش فلسفة ماكرينا في شيء من التفصيل.

٢- الزهد أو التنسك Asceticism:

الزهد أو التنسك، بصفة عامة، هو كبح الرغبات الجسدية والنفسية وقهرها، تحقيقاً لهدف ديني أو مثل أعلى روحي، وهي عملية روحية قديمة مارسها كثير من أتباع الديانات المختلفة، لكن يتخذ الزهد نظاماً أشد صرامة- في مظهره- في المسيحية التي قالت إن جسد الإنسان والأرض التي هو جزء منها مأخوذتان بخطيئة آدم، فهما لا يستحقان من المسيحي الصحيح سوى الازدراء، وأن الشيء الوحيد ذا القيمة هو الروح، ومن هنا نشأت ظاهرة الرهبانية Monasticism المسيحية التي

---

(١) Cornelia W. Wolfskeel Op. Cit. P. 141.

تحتم على أصحابها الاعتزال في الأديرة والعيش فيها عيشاً قواماً: العزوبة، والعبادة والفقر والصبر، والطاعة العمياء. وهذه الظاهرة ليست وفقاً على المسيحية، فللبوذية أيضاً رهبانيتها التي لا تقل صرامة عن رهبانية المسيحية.

ويلاحظ دودز. Dodds أن القرن الرابع الميلادي شهد ميلاً قوياً نحو الزهد- سواء في الديانة المسيحية أو غيرها- حتى أصبح ذلك الميل من السمات العامة لذلك العصر، وربما بدا هذا الميل- في القرن الأول قبل المسيح- على يد الأفلاطونية المحدثة المبكرة التي نظرت إلى الحياة على هذه الأرض على أنها أدنى من الحياة العليا، وقد تحررت النفس من البدن وما يحيط به من عالم مادي. أما الأفلاطونية المتأخرة فقد ذهبت إلى أن «نفس» الإنسان هي الوسيط بين العالم العقلي والعالم الحسي الذي ينتمي إليه جسده. ومن ثم فإن الإنسان لا يشعر أنه في بيته، وهو على هذه الأرض، وهو يريد أن يتجاوز هذه الحياة الأرضية. وهناك سمة رئيسية وجوهرية في نفس الإنسان هي أنها تحاول باستمرار أن تبقى على اتصال بالعالم العقلي، حتى أن هدف الإنسان أثناء وجوده على الأرض هو الوصول على «عالم المثل» بأن تعيش حياة زهد وتقشف، وعفة، وطهارة، ونقاء، وبمعنى آخر: على الإنسان أن يحيا حياة يقوم العقل بتوجيهها إلى العالم العقلي، حتى يحمي نفسه من تجسد جديد بعد الموت، فلا بد أن يكون ذلك هو الهدف الرئيسي لحياة الإنسان على الأرض، وتقوم النفس البشرية بمهمة مزدوجة في المذهب الأفلاطوني Platonism أثناء حياة الإنسان على الأرض، وتكشف هذه المهمة المزدوجة عن تناقض في «النفس»، لأنها تجد نفسها في مرتبة وسطى بين العالم المعقول فرفوريسوس .. Porphyry (٢٣٢-٣٠٤م) فإن المرتبة الوسطى للنفس تؤدي إلى ظهور الزهد والتنسك نتيجة للإفراط في التأمل المجرد.

وهكذا ظهرت سمة عامة للأفلاطونية المحدثة هي الحط من كل ما هو مادي، والتطلع- في شوق عارم- لتجاوز هذه الحياة الأرضية عن طريق الزهد والتنسك، ولهذا قيل إن التصوف عند أفلوطين كان تصوفاً

من نوع خاص، إنه «تصوف عقلي»[١]، فقد نظر إلى الفضيلة الأخلاقية وحياة الزهد والتأمل العقلي على أنها وسائل أساسية، وجهود ضرورية لكي نصل إلى العالم العقلي، عالم المثل الذي توحد الأفلاطونية المحدثة بينه وبين العقل الآلهي أو النوس Nous، وتنظر إليه على أنه المثال الحق للفضيلة.

ولقد كتب «فرفريوس» إلى زوجته مارسلا .. Marcella يقول إن التطهر والزهد يكمنان خلف توظيف العقل، وذلك هو الطريق الوحيد للوصول إلى الله، ولهذا فإنه ينظر إلى الرجل والمرأة على أنهما متساويان من حيث «النفس»، وهما معاً قادران على الدخول في حياة الزهد والتنسك، والقيام بالممارسة العقلية التي تحقق الهدف النهائي للحياة، ألا وهو الاتحاد بالله[٢].

٣- الغنوصية .. Gnosticism [٣]:

الغنوصية، أو مذهب العرفان، مذهب عقلي نشأ في نطاق الكنيسة المسيحية خلال القرن الأول الميلادي. وازدهر بصفة خاصة خلال القرن الثاني للميلاد، أكد أصحابه أهمية المعرفة الروحية بأكثر مما أكدوا أهمية الإيمان، كما حاولوا التوفيق بين تعاليم المسيح والفلسفات الإغريقية والشرقية، وأنكروا التفسير الحرفي للكتاب المقدس، ومن أجل ذلك اعتبرتهم الكنيسة هراطقة Heretics ومارقين عن الدين.

وتوجد خصائص الزهد أيضاً في الغنوصية التي تنظر إلى العالم الحسي باحتقار، وتعتبره شراً في ذاته، فقد اعتبرت المادة مبدأ مستقلاً، ومصدر كل شر، وهذا ما نجده في مذهب «باسيليدس.. Basilides»[٤]

---

(١) التساعية الرابعة لأفلوطين- دراسة وترجمة للدكتور فؤاد زكريا- وزارة الثقافة بمصر- الهيئة المصرية عام ١٩٧٠ ص ٥٢.

(٢) Cornelia W. Wolfskeel: Makrina. P.142

(٣) مصطلح الغنوصية.. Gnosticism مشتق من الكلمة اليونانية «غنوص Gnosis» ومعناها: المعرفة.

(٤) غنوصي مصري سكندري من النصف الأول من القرن الثاني الميلادي؛

احد أتباعها، كما أن العالم الحسي لم يخلقه الله العلي العظيم في مذهب «فالنتينوس.. Valcntinus»[١]، بل خلقه «الصانع» ومساعدوه، وهي كائنات شريرة وأرواح دنسة عن طريقها تدلف إلى الخليقة الانفعالات والأهواء، وهذه الخليقة هي نفسها التي أضاف إليها الله العلي العظيم بذرة من الجوهر العلوي هي: الروح، وكل تاريخ العالم هو تاريخ الكفاح ضد جماعة الشياطين التي تحاول القضاء على هذه البذرة، ويمكن للقارئ أن يلحظ بوضوح ما في الغنوصية من ثنائية مانوية، فقد كان العالم- والمادة في ذاتها- شر في مذهب ماني Mani[٢]، والخيط المشترك بين جميع المذاهب الغنوصية هو أنه لا بد من إنقاذ الإنسان من هذا العالم، واحتقار الجسد والمادة والأمور الدنيوية، وهذه الخاصية موجودة في الغنوصية منذ سيمون Simon المجوسي[٣] الذي قام بكثير من الأعمال السحرية التي تشبه ما تدعو إليه الغنوصية- أدت إلى الزهد الذي تغلغل في المسيحية المبكرة، غير أن هذا التشابه لا يقدم لنا رابطة أساسية بين الغنوصية والمسيحية.

وهو مؤسس إحدى عبادات الأسرار التي استمرت قروناً بعده.

(١) غنوصي مصري كتب باليونانية- ولد في أواخر القرن الأول الميلادي ومات حوالي ١٦١ م. أصله من مصر درس في الاسكندرية، وطاف حول البحر الأبيض، عكف في روما على دراسة النصرانية، وانتهى به الأمر إلى اعتناقها، اتهم بالهرطقة بسبب أفكاره الغنوصية، ولم يحل ذلك دون انتشارها والتأثير في كثرة من التلاميذ الذين انقسموا بعد وفاته فئتين: المدرسة الأناضولية، والمدرسة الايطالية.

(٢) ماني بن فاتك (٢١٦-٢٧٤م) من أنبياء الفرس، جاء ليتم عمل زرادشت وبوذا والمسيح، وتكمن الثنائية Dualism: فالله العلي العظيم يعارضه أمير الظلام، والاثنان عنصران أوليان والعالم مخلوق من أجسام حكام الظلام ولهذا فهو شر.راجع في ذلك كله «المعتقدات الدينية لدى الشعوب» ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ص ١٥٠ وما بعدها، مكتبة مدبولي، بالقاهرة.

(٣) أعمل الرسل: الإصحاح الثامن: ٩-١٠.

٤- الغنوصية والمسيحية، ودونية المرأة:

كانت الغنوصية، إذن تعتقد أن الشر الأصلي لهذا العالم حقيقة واحدة، وهي تفسر وجود هذا الشر بسبب أن هناك «صانعاً» هو الذي أوجده من مادة شريرة، وليس في الخالق العظيم، أما المسيحية فهي، من ناحية، تؤكد خيرية العالم، وخيرية الله، فالعالم خلقه الله العلي العظيم وهو إله خير، ولهذا جاء العالم خيراً في أصله، لكنه أصبح شريراً عندما عصى الإنسان إرادة الله، ولهذا تجاذب الموقف المسيحي بين رفض العالم وقبوله، ولا سيما في بداية المسيحية، فالكون الذي نراه لا بد من قبوله على اعتبار أنه خير أو حسن: «ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً» (سفر التكوين الإصحاح: ٣١) لكن بسبب واقعة أنه «شر» لا بد من رفضه. ويبدو أن تيارات الزهد التي كانت قائمة في القرن الأول الميلادي- انعكس أثرها على الزواج، متأثرة في ذلك بما جاء على لسان القديس بولس- مؤلف سفر الرؤيا- والنظر إلى العذرية على أنه أفضل من الزواج.(١)

ويشير بعض الباحثين إلى أن الإنسان قد شعر بعدم الأمان، في العصر القديم في عالم يسوده التغير المستمر، فحاول أن يهرب من هذه المشاعر المقلقة، وأن يبحث لنفسه عن مأمن في نوع من «الغنوص.. Gnosis» وهو استبطان المرء، وضياع ذاته في المناطق المجهولة من النفس، وفي كراهية هذا العالم، وانحطت المرأة التي كان ينظر إليها على أنها مجرد جسد مادي- إلى مرتبة أدنى من الرجل في جميع المذاهب الغنوصية، وهكذا اعتبرت المرأة خطراً على الرجل، وتجسد ت المشاعر التي يهرب منها حتى دفعته إلى أن يسلك في حياة الزهد والتسلط.(٢)

---

(١) قارن «حسن للرجل ألا يمس امرأة» رسالة بولس الأولى على أهل كورنثوس الإصحاح السابع: ١. وأيضاً: «اقول لغير المتزوجين والأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا لما أنا»- ٨ من نفس الإصحاح. وأنظر أيضاً: «هؤلاء هم الذين لم يتجسسوا مع النساء لأنهم أطهار..» رؤيا يوحنا اللاهوتي الإصحاح االرابع عشر: ٤.

(٢) Gronelia W. Woldfskeel: Markrina. P. 143-144

ثالثاً: ماكرينا.. وروح امرأة

يروى جريجوري شقيق «ماكرينا» تعريفها للنفس «في محاورة في النفس والقيامة» لكنه يعتقد أن هذا التعريف غير كافٍ في تفسير ملكات النفس، فهو يعتقد أن هناك ملكات أكثر من ملكات التفكير، وإعطاء الحياة، والإدراك الحسي، فهناك أيضاً ملكات خاصة بالرغبة والغضب التي يمكن النظر إليها كدوافع لكثير من الانفعالات، ومن الواضح أنها ليست جسدية، ومن ثم لا بد أن تنتمي إلى النفس أكثر من أن تنتمي إلى البدن، أو أن نقول بوجود نفس أخرى، وهاتان الفكرتان مستبعدتان عند ماكرينا ما دامت ماهية النفس هي ملكة التفكير، فالانفعالات- من ناحية- لا يمكن أن تنتمي إليها، كما أننا لا نستطيع أن نفترض وجود في نفس أخرى بداخلنا- من ناحية أخرى.

وأجابت ماكرينا أن اعتراضات «جريجوري» وجيهة، فلا شك أن بداخلنا انفعالات كالجوع والرغبة، لكن هل هذه الانفعالات تنتمي إلى ماهية النفس؟ أم أنها أضيفت إليها بعد ذلك؟ تلك أسئلة ينبغي بحثها والإجابة عنها، ولتعتقد ماكرينا أن على أولئك الذين يتحدثون عن النفس أن يضعوا الكتاب المقدس في أذهانهم فالكتاب المقدس يقول إن النفس مخلوقة على «صورة الله» فهي إذن تشبه الله، وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون فيها انفعالات ولا أشجان!

غير أن «جريجوري» يعود إلى السؤال: وماذا تظنين في أمر الانفعالات: الرغبة، والغضب، والجوع، وما إلى ذلك؟ وتجيب ماكرينا: إن هذه حركات داخلية لا تنتمي إلى ماهية النفس، وإنما هي فقط مجرد قشور Incrustation للنفس، لأننا جميعاً، قادرون على محاربة هذه

الانفعالات والانتصار عليها، وهي قدرة تكون في بعض الأحيان عظيمة النفع لنا.

عرضنا بإيجاز أهم سمات النقاش بين ماكرينا وجريجوري، حيث تظهرنا ماكرينا على إلمام بالفلسفة اليونانية، بما في ذلك محاورة «فيدون» لأفلاطون، وكتاب النفس De Anima لأرسطو، ثم يتصل الحوار بينها بعد ذلك نتيجة لتعليق ماكرينا القائل بأن جميع الانفعالات يمكن ردها إلى انفعالي: الرغبة والغضب، دون أن نعتبرهما ينتميان إلى ماهية النفس، لأن ملكة التفكير هي جهد النفس، ويعترض «جريجوري» على استبعاد الانفعالات من طبيعة النفس رغم أن الكتاب المقدس لا يعتبر الانفعالات سيئة باستمرار، ومن ثم فهي ليست دائماً مما يجدر استبعاده والتخلص منه، وتوافق «ماكرينا» على ذلك، لكنها تعود فتقول إننا نحن الذين نوجه الانفعالات فنجعلها أحياناً حسنة وأحياناً سيئة. كما أنها تشدد على واحدية النفس، وعدم قابليتها للفناء، وخلودها بفضل هذه الواحدية، والنفس البشرية الخالدة تبقى بعد موت البدن.

لا تتابع :ماكرينا» تعريف أرسطو للنفس من «أن النفس كمال أول الجسم طبيعي ذي حياة بالقوة»[1]، فهو يرى أن النفس هي «صورة» أو ماهية الجسم الطبيعي، ولهذا فلا يمكن فصلها عن البدن، ومن هنا فإن النفس تموت بموت البدن- وينطبق ذلك على النفس النباتية والحيوانية، بقدر ما ينطبق على النفس البشرية، غير أن النفس البشرية عند «ماكرينا» تمتلك أيضاً ملكة التفكير أو النوس Nous، وهي تأتي من الخارج وغير قابلة للفناء، وتلاحظ «ماكرينا» أن ملكات النفس هي القوى التي تهب الحياة والتفكير، والقدرة على الخلق والإبداع في المادة، وعلى الرغم من ان أرسطو بحث جميع مظاهر النفس، فإنه ذهب إلى أن النفس فانية،

(١) أرسطو «كتاب النفس» ٤١٢ ظ- ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني- مراجعة على اليونانية الأب جورج قنواتي، الطبعة الأولى ١٩٤٩، دار إحياء الكتب العربية، ص ٤٢-٤٣.

ولهذا فإن «ماكرينا» تلوم أرسطو لأنه لم ينته من هذه الوقائع إلى إدراك وحدانية النفس وبالتالي خلودها. ويكمن تصور «ماكرينا» لوحدة النفس خلف نقدها لوجهة نظر أفلاطون في الانفعالات، حيث يقول في محاورة «فايدروس» بالتشبيه المجازي الشهير للنفس بالعربة يجرها جوادان جامحان مسؤولان عن الانفعالات، وترفض «ماكرينا» هذا التصور، لأن النفس، عندها، واحدة وشبيهة بالله، وهي أساساً «بلا انفعالات»[1].

ولقد أصبح من الواضح من مناقشة «ماكرينا» لطبيعة النفس وللخلق البشري، أنها لا ترى فروقاً جوهرية بين نفس الرجل ونفس المرأة، فجوهر النفس عندها، هو قدرتها على التفكير العقلي، ولا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة، وليست الانفعالات أجزاء جوهرية من النفس، ولا تلوم «ماكرينا» النساء- كما فعل كلمنت السكندري- على الانفعالات الشريرة أو الرذائل المختلفة[2]، ذلك لأن «ماكرينا» كما رأينا لا تذهب على أن الانفعالات جزء من ماهية النفس بحيث تصبح جزءاً من طبيعة المرأة «بقدر ما يعود إلى الاختيار الحر لدى كل امرأة وهنا، تقع المسؤولية على عاتق النساء فرادى، ولكنها لا ترجع إلى الطبيعة الجوهرية للنفس عند المرأة- وهو فهم أعمق كثيراً من تصور كلمنت السكندري الذي اعتبر طبيعة المرأة بما هي كذلك «.. شيئاً مخزياً ومخجلاً حقاً..»[3]، أما «ماكرينا» فترى أن طبيعة النفس واحدة، وهي سواء عند الرجال أو النساء، وهي مخلوقة على «صورة الله» وشبيهة به...!

---

(١) Cornelia W Wolfsheel : Makrina, P. 145.

(٢) قارن رأي كلنت السكندري في المرأة كتابنا «الفيلسوف المسيحي... والمرأة» ص.٦٦ وما بعدها، مكتبة مدبولي بالقاهرة (العدد الثالث من سلسلة الفيلسوف والمرأة).

(٣) المرجع السابق ص:٦٨.

ويبدو أن شقيقها باسليوس Basilius الملقب بالأكبر، وأحد «الأقمار الثلاثة»[١]- كما قيل عنه- وهو من معلمي الكنيسة- كان يشاركها هذه النظرية، فنحن نراه يشرح الإصحاح الأول من سفر التكوين بقوله:

«تمتلك المرأة أيضاً خصائص الموجود الذي خلق على صورة الله بنفس الطريقة التي يمتلك بها الرجل هذه الخصائص، فطبيعتهما واحدة، ومتساوية في الشرف، متساوية في الفضائل، متساوية في المنافع، متشابهة وقت الإدانة..[٢]» ومعنى ذلك أن «باسليوس» ينظر إلى النفس- أو الذهن أو العقل- عند الرجال والنساء على أنه واحد، وعلى أنه صورة لله، أو هو قبس إلهي، وهما معاً- الرجل والمرأة قادران على تحقيق التشبه بالله عن طريق الفضائل المختلفة، وإن كان التشبه الكامل لا يحققه- في رأيه- سوى المسيح نفسه الذي كان كاملاً من كل وجه. وهكذا ينظر باسليوس إلى المرأة على أنها مساوية للرجل فيما يتعلق بقدرتها العقلية والروحية: «وذلك لأنها خلقت على صورة الله، فلها نفس العقل- أو الذهن- ومن ثم فلها الغلبة والسيطرة، كالرجل، على المخلوقات الأخرى (الدواب) وعلى رغباتها الدنيا..»[٣].

---

(١) والأخ الأكبر لماكرينا (٣٢٩-٣٧٩م) درس أولاً في القسطنطينية ثم في أثينا، وعندما توفي والده عام ٣٥٦م عاد إلى قيصرية ليعلم فيها البيان، تنصر ثم طاف بمراكز التنسك والزهد في سوريا، وما بين النهرين، ومصر، وبعد هذه الرحلة باع أملاكه ووزع ثمنها على الفقراء، وعاش متوحداً في الريف بعيداً عن المدينة.

(٢) Quoted by Cornelia W. Wolfskeel: Makrina.

(٣) أفلوطين «التساعية الرابعة» ترجمة ودراسة بقلم د. فؤاد زكريا ص ١٨٠، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، عام ١٩٧٠.

رابعاً: ماكرينا..

والخلق، والتجسيد، والقيامة

تنبع آراء ماكرينا عن «الخلق» من فكرتها عن الانفعالات: فالإنسان في الكتاب المقدس يقف على رأس المخلوقات، ومن ثم كانت النباتات والحيوانات تلي الإنسان في ترتيب الموجودات، وتذهب ماكرينا إلى أن النفس النباتية موجودة في النبات، على حين أن النفس النباتية بوظائفها، وكذلك ملكات الإدراك الحسي في آن واحد موجودة في الحيوان، أما جوهر النفس البشرية فهو قدرتها على التفكير، غير أن النفس مرتبطة كذلك بالطبيعة الحيوانية، ولقد اقتنعت «ماكرينا» بأن النفس خالدة، وأنها هي الحارسة للعناصر التي يعود فيها الجسد بعد الموت، فالجسد، عندها، يعاد نسجه من العناصر القديمة في بدن أشد دقة، وسوف يشبه هذا البدن الروحي الجديد الجسد السابق، حتى أن النفس سوف يسهل عليها أن تتعرف عليه.

١- ماكرينا وتراث أفلوطين :

يبدو أن توحيد «ماكرينا» بين الله والخير والجميل، له أصول في الأفلاطونية المحدثة، ولا سيما التساعية الأولى، والسادسة لأفلوطين، فضلاً عن أن أفلوطين يؤكد في التساعية الرابعة أن للنفس البشرية مهمة مزدوجة وإن كانت واحدة: «النفس واحدة وإن اختلفت الملكة التي تعمل في كلتا الحالتين. جميع الملكات الأخرى توجد في كل من هاتين الملكتين..»[1]، ويقول إن الجمال الموجود في العالم الحسي هو حث

---

(١) أفلوطين «التساعية الرابعة» ترجمة ودراسة بقلم د. فؤاد زكريا، ص ١٨٠، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عام ١٩٧٠.

للنفس البشرية للسعي نحو جمال العالم المعقول الذي يكون العلم المحسوس نسخة أو صورة أو شبيه له، ويتساءل أفلوطين في التساعية الخامسة، لم تركت الأنفس الله والدها؟ لقد تجسدت في البدن لكنها تتطلع شوقاً تجاه العالم المعقول، أعني تجاه الله، وهو يذهب إلى أن العالم المعقول لا شر فيه، وإذا كان العالم المحسوس صورة أو نسخة منه فإن ذلك يعني أن هذا العالم المرئي يشارك بدرجة ما في ضرب من «الخيرية»، رغم وجود العنصر المظلم في ذلك العالم ألا وهو «الهيولي» أو المادة، وعند أفلوطين أن النفس البشرية أثناء وجودها في البدن عليها مهمة المحافظة عليه، لكن عليها أيضاً مهمة أخرى هي البحث عن طريق للعودة إلى العالم العقلي الذي جاءت منه، وهو يعتقد مثل أفلاطون في (طيماوس ٨٧هـ) أن الإنسان مركب من نفس وبدن (التساعية الأولى) وهذا يعني أن الجسد الثاني هو أنسب جسد لطبيعة الإنسان، ولا علاقة لفنائه بسقوط النفس. فالنفس المتجسدة في بدن هي وحدها التي يمكن أن تخطئ، لكن ليس جسد الإنسان مما يمكن استعادته في نهاية الزمان إلى العالم المرئي المحسوس، وهو جزء من مسار أزلي للفيض.

وعلى العكس من ذلك تذهب ماكرينا إلى أن فناء جسد الإنسان الحالي سببه «السقوط» أعني سقوط الإنسان في الخطيئة الأولى، فقد كان لدى الإنسان، قبل الخطيئة، جسد بلا انفعالات (انظر كتابها في النفس والقيامة الفصل الثامن عشر)[1].

وتعتقد «ماكرينا» أن الجسد الروحي الذي يخلو من العواطف والانفعالات سوف تسترده النفس يوم القيامة، لقد كان أفلاطون في محاورة «طيماوس» يذهب إلى أن فناء الجسم البشري ينتمي أيضاً إلى طبيعة الإنسان، وقد صنعته الآلهة المرئية، في حين أن نفس الإنسان قد خلقها الصانع.. Demiurges بنفسه، وهكذا كان الإنسان مركباً من

---

(١) Cornelia W. Wolfskeel: Markrina P. 157.

النفس والبدن، وأصبحت مهمته الحياة في هذا العالم- كما جاء في محاورة طيماوس (٤١ هـ و ٤٢هـ)، وقد يفلت الإنسان من التجسيد أو التناسخ إذا ما عاش في البدن حياة حسنة مستقيمة، أما «ماكرينا» فمن الواضح أنها تختلف عن أفلاطون في تفكيرها فهي تذهب إلى أن الجسد البشري سوف تكون له قيامة، وسوف تسترده النفس في نهاية الزمان بطريقة خاصة.

تقول:

«سوف ترى، عندئذ، أن هذا الثوب البدني الذي تحلل الآن عن طريق الموت، سوف ينسج من جديد من العناصر ذاتها، لا بناءً على تركيبه الحالي الثقيل، وإنما سوف يغزل من خيوط أكثر رقة وأشد دقة..»[1].

وعلينا أن نلاحظ أن «القيامة» فكرة مسيحية قلباً وقالباً، وأن «ماكرينا تعتمد في هذه الفكرة على الكتاب المقدس، على نحو ما سوف يتضح فيما بعد.

٢- ماكرينا .. وفورفوريوس:

توجد عند فيلسوف الأفلاطونية المحدثة «فورفوريوس»- تلميذ أفلوطين- وجهة نظر يمكن أن نقارنها بأفكار أستاذه، فالتلميذ لا يعتقد أن الأشياء المادية أو الجسمية Corporeal سيئة أو شريرة، على الرغم من أنه، يعتقد أن من الضروري للنفس أن تهرب من جميع الأشياء الجسمية، لكي تبلغ هدفها الحقيقي في العالم العلوي، إن على البشر أن يتصوروا الله حاضراً في كل ما يقومون به من أفعال، فهو يراقب تصرفاتهم وأفعالهم، والله هو علة كل ما هو جميل وخير في العالم، في حين أن أفعال البشر هي علة الشر الأخلاقي، لقد كان أفلوطين يعتقد ان الخطيئة في العالم سببها أن الإنسان يستسلم لأشياء هي أدنى من النفس، وعنده

---

(١) De Anima et resurrectione «quoted by Coronelia. Ibid, P. 158.

أنه عندما يولد المرء (وهو هنا يتابع أفلاطون في طيماوس ٤١-م) يضاف إليه نوع آخر من النفس العاقلة العليا في الإنسان، وهكذا تصبح النفس البشرية مركبة، وهذه «التركيبة» هي التي يمكن أن ترتكب الخطايا، في الوقت الذي تظل فيه النفس العليا للإنسان- التي هي الذات الحقة- كما هي لا تمس. أما فورفوريوس فهو يقول صراحة إن علة الخطايا الكبرى ينبغي ألا يبحث عنها داخل البدن، بل داخل النفس، وهو يرى أن الفضيلة هي الطريق الوحيد إلى الله، والإنسان الذي يلهث وراء اللذة يتعارض تعارضاً مطلقاً مع حبه لله، إن على المرء أن يتخلى عن الانفعالات ويكبح جماح الاحساسات التي تثيرها، وهو يرى مثل أستاذه أفلاطون أن النفس يمكن أن تتجسد مرة أخرى بعد الموت، رغم أنه يرفض صراحة تصور أفلاطون الذي عرضه في طيماوس والذي يقول إن النفس يمكن أن تتجسد مرة أخرى في جسد حيوان، والمرء خلال حياته على هذه الأرض يمكن أن يجد ثراءه الروحي داخل نفسه، ويمكن أن يعمل العقل، لأن عقل الرجل الحكيم (أو المرأة الحكيمة) هو معبد لله، والله هو الموجود الوحيد الذي يحتاج إليه الرجل الحكيم أو المرأة الحكيمة، ويعارض فورفوريوس في كتابه «ضد المسيحيين Kata Christianoon الذي وضعه في خمسة عشر باباً- عارض العقيدة المسيحية في قيامة الجسد، فعنده أن فكرة القيامة تتناقض مع تصور أزلية للعالم، غير أنه يذهب إلى أن روح الإنسان الطيب لا يمكن أن تهبط من جديد أبداً، ما دامت الحكمة الكاملة لا يمكن أن توجد في هذه الحياة الدنيا، والحياة بعد الموت لا بد أن تكتمل عن طريق الوجود الإلهي.

٣- ماكرينا .. وتراث فيلو السكندري:

فيلو السكندري (٢٠ ق.م- ٥٠م) فيلسوف يهودي، أكبر ممثل للفكر اليهودي المثقف باليونانية في ذلك العصر، أثّر تأثيراً قوياً في فكر الآباء (آباء الكنيسة)، كما أدخل عنصراً جديداً في تاريخ الفلسفة هو الوحي. كان يسمى بأفلاطون اليهود! لأنه حاول أن يوفق بين اليهودية

والأفلاطونية، درس «فيلو» موضوع خلق الإنسان في كتابه «في الخلق» وأماكن أخرى» وشرح عقيدة «صورة الله» الواردة في الإصحاح الأول من سفر التكوين، غير أن شرحه معقد وقد أسئ فهمه. فهو في بعض الفقرات يتحدث عن المرأة بوصفها موجوداً أدنى من الرجل، ويعتبرها مسؤولة عما في العالم من شرور، وفي أحيان أخرى يتحدث عنها على انه صورة الله، وأن الله خلقها على صورته، أما النفس العاقلة عند الإنسان، التي هي نسخة من العقل الإلهي Divine. Logos لا جنس لها، فالتعارض بين الجنسين الذكر والأنثى ينتمي إلى العالم الحسي المرئي، فلم يفكر «فلو» من الناحية النظرية، أن لدى الرجل والمرأة معاً نفساً عاقلة، ولهذا فهما معاً «مخلوقان على صورة الله» لكنه- رغم ذلك- يعتبر المرأة الموجودة فعلاً أدنى من الرجل، وهي علة الشرور في هذا العالم، وكان «فيلو» أول فيلسوف قدم تفسيراً فلسفياً للإصحاح الأول من سفر التكوين، ولقد اقتنع فيل- مثل أفلاطون- أن الله لا يمكن أن يخلق أي نوع من أنواع الشر، كما أنه يفسر قصة السقوط في سفر التكوين على أنه رمز لسقوط العقل عندما أغوته الحواس والعواطف والانفعالات، لكن الإنسان قادر بواسطة هذا العقل نفسه على العودة إلى حالته الأصلية، وهو يرى أن الله الذي لا يمكن أن يضع الشر، ولا يمكن أن يكون علة لأي نوع من أنواع الشر في العالم، خلق هذا العالم المرئي بإرادته الخيرة، وهدف الإنسان على الأرض هو ممارسة الفضائل المختلفة مع جيرانه، وهذا هو معنى الاتحاد بالله، والنفس التي تتطلع شوقاً إلى الله سوف تحقق هدفها بهذه الطريقة.

٤- ماكرينا.. ونظريات التجسيد:

درست «ماكرينا» النظريات المختلفة للتجسيد التي كانت معروفة بين فلاسفة اليونان[١]، ورفضتها جميعاً، لأن النظريات تعني وجود

---

(١) كانت الآية الواردة في «سفر التكوين»: «خلق الله الانسان على صورته، على صورة الله خلقه: ذكر وأنثى خلقهم»- مصدر إرباك كبير لأعداء

حركة دائرية للأرواح بين السماء والأرض، وهذه الحركة في عودتها، تفترض سلفاً سقوط النفس كسبب لظهورها على الأرض من جديد. وتعتقد ماكرينا إن هذه الفكرة تتناقض مع خيرية الله ومع العناية الإلهية، فإذا كان وجود الإنسان سببه الخطيئة، فإن ذلك يعني أنه لن يكون صالحاً للفضيلة، وفي الفقرة الرابعة من كتابها في «النفس والقيامة» ترفض ماكرينا، بوضوح الفكرة التي تقول إن نفوس البشر العاملة يمكن أن تتجسد أو تتناسخ من جديد في أجساد الحيوانات والنباتات كنوع من أنواع العقاب عما ارتكبوه من خطايا، فلقد صور أفلاطون حياة النفوس المختلفة وهي تتجسد في حيوانات مختلفة، فهذه نفس تتجسد في صورة بجعة، و»نفس» المغنى والشاعر «ثاميريس Thameris، تتجسد في بلبل، وغيرها في صورة أسد وهكذا[1] كما أن «أفلوطين» لم يستبعد تماماً إمكان تجسد النفس البشرية في أجسام الحيوانات والنباتات، ومعنى ذلك أن النفس البشرية عند هذين الفيلسوفين يمكن أن تفقد خاصيتها «العاقلة» كنتيجة لارتكابها للأفعال الشريرة، ومن ثم تتجسد لهذا السبب في موجودات أدنى، ولقد سبق أن رأينا أن «فورفوريوس» هو الذي رفض هذه النظرية، ورأى أن النفس البشرية لا يمكن أن تفقد أبداً خاصيتها العقلية، ومن ثم رفض إمكان أن تتجسد في اجسام الحيوانات.

أما «ماكرينا» فقد عارضت فكرة التجسد بوضوح، ولا سيما إمكان تجسد النفس البشرية في النباتات والحيوانات، وذهبت إلى أن ذلك سوف يعني تدمير التفرقة بين الإنسان والحيوان، وفضلاً عن ذلك فإن الحركة الدائرية للأنفس البشرية مرفوضة، لأنها تتضمن خلطاً بين الخير

= المرأة، كما كانت موضوع مناقشات لا حصر لها، انظر كتابنا «الفيلسوف المسيحي- والمرأة» العدد الثالث من سلسلة «الفيلسوف.... والمرأة» مكتبة مدبولي بالقاهرة.

(١) انظر في «النفس والقيامة» الفصل الرابع عشر فقرة ٣.

والشر، إن الحركة الدائرية في تفسير «ماكرينا» تبدأ من السماء وتسببها سقوط النفس، وتنتقد «ماكرينا» هذه الفكرة، لأنها قد تعني أن الخطيئة هي سبب الوجود البشري الأرضي، وفضلاً عن ذلك فما دامت السماء ينظر إليها على أنها ثابتة لا تتغير بواسطة الوثنيين، فليس من الممكن أن نفسر كيف حدث سقوط النفس في السماء، فمن الواضح أنها ترفض نظرية أوريجين Origen الفيلسوف اللاهوتي السكندري المعروف (١٨٥-٢٥٢) الذي كان يذهب إلى أن سقوط الموجودات الحرة العاقلة هو الذي تسبب في الحياة البشرية على الأرض، أما «ماكرينا» فهي تذهب إلى أن النفس والبدن معاً خلقهما الله بإرادته الحرة، ولم تظهر النفس إلى الوجود قبل البدن كما يذهب بعض الفلاسفة، وقل مثل ذلك في التناسل، فالنفس والبدن يظهران معاً إلى الوجود أثناء الحمل وهذا يعني، عند «ماكرينا» أن النفس حاضرة في الحيوان المنوي الذي يبدأ منه تشكيل الكائن الحي، وعندما تحقق البشرية مسيرتها فسوف تختفي عملية الكون والفساد، أو الظهور والاختفاء، وسيكون ذلك يوم البعث والقيامة، وهنا سوف تشارك البشرية- بالنفس والبدن- في الحياة الأزلية، وفي يوم القيامة سوف يسترد الجسد البشري الفاني بنيته الخالدة التي كان يمتلكها قبل السقوط، ذلك لأن «ماكرينا» تعتقد أن صفة الفناء لجسد الإنسان اكتسبها نتيجة لسقوطه في الخطيئة الأولى، لكن القول بأن للإنسان جسد لا علاقة له بالسقوط على الإطلاق، بل على العكس وجود بدن للإنسان هو جزء من طبيعته ذاتها، والخلاف واضح بينها وبين أوريجين عند هذه النقطة، فالجسد الروحاني الموجود عند أوريجين- يقوم القيامة لا يستبعد إمكان اختفائه أيضاً أما «ماكرينا» فهي تقيم فكرتها عن القيامة والبعث أساس الكتاب المقدس، فكما جاء في مزامير داود أنه سيكون هناك استرداد لجميع الأشياء يوم القيامة، فإنها تنظر إلى استرداد الحياة البشرية كجزء من هذا الاسترداد الشامل.

وتنتهي المحاورة بين «ماكرينا وشقيقها» جريجوري بالدفاع عن النظرية المسيحية في البعث والقيامة وهي تستمد معظم أدلتها من

الكتاب المقدس، ولهذا فنحن نجد في نهاية الحوار جوانب لاهوتية ممتعة، وأفكار كثيرة عبر عنها شقيقها بعد ذلك في كتابه «خلق الإنسان»- كانت شقيقته العظيمة قد عرضتها ودافع عنها، وربما اقتضى الإنصاف أن يقوم باحث بالكتابة المفصلة عن هذه المفكرة التي تعد من أعظم نساء القرن الرابع الميلادي، لما كان لها من ذهن ثاقب، وفكر فلسفي عميق! ولهذا احتلت مكانة رفيعة بين «النساء.. الفلاسفة» في العالم القديم.

الفصل الثامن

هيباشيا..

فيلسوفة الإسكندرية

«عند السّكر تقال الحقيقة.. In Vino Veritas»

هيباشيا: الميلاد والنشأة

في هذا الجو ولدت «هيباشيا» فيلسوفة الإسكندرية عام ٣٧٠ م، ابنة ثيون Theon أستاذ الرياضيات في المتحف، وآخر عالم عظيم من علمائه الذين سجلت أسماؤهم في سجل أساتذة متحف الإسكندرية.[١]

وليست هناك وثائق عن تعليمها المبكر، رغم أن معظم المؤرخين يذهبون إلى أنها قد تعلمت ودرست في البداية على يد والدها الذي كان يقوم بتدريس الرياضيات والفلك في المتحف، ولكن بما أنه لم يرد ما يؤكد لنا أن أباها درس الفلسفة، وما دامت «هيباشيا» قد درست الفلسفة ثم حاضرت فيها بعد ذلك في مدينة الإسكندرية (داخل المتحف وخارجه)- فلا بد لنا من أن نفترض- على أقل تقدير أنها درست الفلسفة على يد فلاسفة من مدرسة الأفلاطونية المحدثة، وهي الفلسفة السائدة في المدينة في ذلك الوقت، أو أنها قد ثقفت نفسها بنفسها، بقراءة تاريخ الفلسفة، ولا سيما مؤلفات أفلاطون وأرسطو أولاً، ثم أفلوطين والأفلاطونية الجديدة بعد ذلك.[٢]

وهناك رأي ضعيف يقول به معجم سويداس[٣] Suidas Lexicon

---

(١) ول ديوارنت «قصة الحضارة» المجلد الثاني عشر ص ٣٤٦ ترجمة محمد بدران- دار الجيل للطبع والنشر- بيروت.

(٢) Ethel M. Kersey. «Womem Philosophers» P. 134 Green Wood Press N.Y.

(٣) سويداس Suidas مؤلف معاجم يوناني من مدينة القسطنطينية، كتب معجمه الشهير Suda, Isuidas Lexicon في أواخر القرن العاشر الميلادي، ويعد من أغنى مصادر التراث اليوناني حتى ذلك التاريخ.

مفاده أن هيباشيا قد درست الفلسفة في أثينا، ويتشكل معظم المؤرخين في هذه الرواية، ويؤكدون انها تعلمت على يد علماء الرياضة في متحف الإسكندرية، كما درست الفلسفة على يد باحثين آخرين (ربما كانوا من فلاسفة المكتبة)، ومما يثير الشك في رواية سويداس قوله: «إن علية القوم في مدينة أثينا قد هرعوا إلى هيباشيا عندما وصلت إليها»- ولو صح ذلك لكان معناه أنها كانت شخصية مرموقة ومعروفة، وليست طالبة عندما زارت المدينة، ويبدو أن القول بأن «علية القوم في مدينة أثينا قد قاموا بزيارتها، يعني أن عظماء الفلاسفة كانوا يعاملون معاملة حسنة من الشخصيات العامة في أثينا عندما يأتون لزيارتها، أو أن هيباشيا لما لها من مكانة رفيعة قد زارها علية القوم في أثينا- على نحو ما كان يزورها عليه القوم في مدينة الإسكندرية.[١]

الأرجح، إذن، أن هيباشيا قضت فترة التلمذة في مدينة الإسكندرية كما جاء في دائرة المعارف البريطانية: «فيلسوفة مصرية وعالمة في الرياضيات ولدت بالإسكندرية عام ٣٧٠، وماتت بالإسكندرية في مارس عام ٤١٥.. كانت المرأة الأولى التي لمعت في ميدان الرياضيات واشتهرت بكونها عالمة فيها[٢] - بل إن العبارة توحي بأنها لن تترك الإسكندرية قط. وعلى كل حال فالثابت أنها قضت فترة الطلب على الأقل في هذه المدينة، وأنها كانت طالبة مجدة ومتميزة، وذات قدرات عالية، وذلك لسببين على الأقل:

الأول: أن الثابت أنها تعلمت على نفقة الدولة، فقد دفعت لها نفقات التعليم من الموارد العامة[٣]، وذلك شيء فريد أو هو استثناء له دلالة هامة، ولا سيما إذا عرفنا أن النساء بصفة خاصة لم يكن يتم

(١) Mary Ellen Waithe: A History of woman philosophers Vol. P. 177. Khuwer Academic Publishers. 1991.

(٢) Encyclopedia Britannica Vol.O.P.200.

(٣) Mary E.Wauthe. Op. Cit. p.170.

اختيارهن لينفق عليهن من الموارد الرسمية[1].

والثاني: أنه قرب نهاية عام ٤٠٠م. تم تعيينها في المتحف، وكانت في الخامسة والعشرين (أو الثلاثين على الأكثر) من عمرها. ويظهر هنا الاستثناء واضحاً أيضاً، ولا سيما إذا عرفنا أن حكومة الإسكندرية كانت مسيحية (أو شبه مسيحية) في ذلك الوقت، في حين كانت هيباشيا لا تزال على ديانة اليونان، ويرى بعض المؤرخين أنه ما دامت التعيينات في المتحف كانت تتم بأمر من الإمبراطور أو نوابه، فلا بد أن تكون هيباشيا أستاذة متفوقة حتى تنعم بميزات علماء المتحف (كالراتب، والسكن، والمكانة.. الخ)، في هذه السن الصغيرة[2].

كانت هيباشيا تلقي محاضراتها في المتحف (وربما في المكتبة).

ويقول سقراط- المؤرخ المسيحي- إنها بزت أهل زمانها من الفلاسفة عندما عينت أستاذة للفلسفة بالإسكندرية، فقد هرع لسماع محاضراتها عدد كبير من الناس من شتى الأقطار النائية، وكان الطلاب يتزاحمون ويحتشدون أفواجاً إليها من كل مكان، وكانت الخطابات توجه إليها باسم «الربة muse» أو «الفيلسوفة» وعندما كانت هيباشيا تقوم بشرح مذهب أفلاطون أو أرسطو- كانت قاعة درسها تكتظ بأثرياء الإسكندرية وأكابرها.. كانوا يختلفون إلى قاعتها ليستمعوا إليها، وهي تبحث في هذه الموضوعات التي أثارت الجدل منذ زمن: من أنا؟ وإلى أين مصيري؟ وماذا في استطاعتي أن أفعل أو أن أعرف؟ أين مكاني في نظام الأشياء؟ ما طبيعة الآله؟ ما طبيعة الخير والشر..؟[3].

ولما كانت هيباشيا معروفة بجمالها الأسطوري[4]، وكانت قد

(١) Ibid. P. 171.

(٢) Ibid.

(٣) Ethel M kersey. «woman philosophers» P. 134 Green wood press N.Y. 1989.

(٤) Ibid.

عزفت عن الزواج وتفرغت للفكر، فقد كان من الطبيعي أن تتعرض لبعض المضايقات من طلاب تقدموا للزواج منها، ولألوان أخرى من الغزل من شباب لا يأخذ الدراسة مأخذ الجد، ويروي المؤرخون نماذج من هذه المضايقات: فقد ظل أحد الطلاب يطاردها، وتعمد أن يلاحقها بعد انتهائها من دروسها، لكنها لقنت هذا الشاب الوسيم «زير النساء» درساً بأن قذفت في وجهه «بفوطة» مستعملة، وإن كانت نظيفة، وهي تصيح «إن الاستمتاع بالجنس هو هدفك أيها الشاب الأحمق، لا الاستمتاع بالفلسفة[1]»، ويروي بعض المؤرخين أنها حاولت علاج الانفعالات الطاغية عند الشباب «بمناهج الفلسفة وتعاليمها»... غير أن زير النساء لم يرتدع، فأخذت منديلاً كانت قد استعملته، وقذفت به في وجهه وهي تقول: «هذا هو ما تحب أيها الشاب الأحمق، وهو ليس جميلاً» ذلك أن الأفلاطونيين، وهي منهم، يعتقدون أن الخير والحكمة والفضيلة وغيرها تحمل في داخلها قيمتها، ولهذا فإن الناس يرغبون فيها لذاتها، أما أن يكون الشخص جميل الطلعة ، جذاب المحيا، متناسق الجسد.. الخ، فتلك ليست قيماً إنسانية ذات جدارة خاصة، وهي لا ترتبط بالقيم إلا بتشابهات سطحية، ولقد كانت «هيباشيا» تدرس الفكرة الحقة عن الحب الأفلاطوني وتمارسها، وهكذا استطاعت أن تصل بواحد من طلاب الفلسفة في الإسكندرية إلى مرحلة يشعر فيها بالخجل من نفسه، وكانت تلك هي أفضل طريقة لعلاجه أيضاً[2].

ويروي لنا «ول ديورانت» نقلاً عن سويداس Suidas في معجمه- قصة أخرى فيها الكثير من المغالاة، فضلاً عما تنم عنه من سلوك شائن يصعب على المرء أن يصدق أن تقوم به العذراء الفاضلة «هيباشيا» كما كانوا يطلقون عليها، ومضمون القصة، «أن شاباً راح يضايقها بإلحاحه المستمر حتى عيل صبرها، فما كان منها إلا أن رفعت ثيابها، وقالت له:

---

(١) Mary E. Waithe: Op. Cit. P. 172.

(٢) Ibid.

إن الذي تحبه هو الذي يرمز إلى التناسل، وليس هو شيئاً جميلاً قط»[١]، وأكبر الظن أن هذه القصة مختلفة، بدليل أن ديورانت نفسه يتشكك فيها ويقول: «لعل أعداءها هم مخترعوها»[٢]، ذلك لأن المؤرخين الذين كتبوا عنها مجمعون على أنها كانت شخصية محترمة، على خلق رفيع، ولذا فمن المستبعد جداً أن يكون السلوك السابق هو ردها على الشاب الأحمق.

ومهما يمكن من شيء فالثابت أنها رفضت الزواج من كل من تقدم طالباً أن تقترن به.. وظلت عذراء طوال حياتها، كما كانت قوية الشخصية تفرض احترامها على الجميع، ويصفها إدوارد جيبون E. gibbon (١٧٣٧- ١٧٩٤)- وهو أعظم المؤرخين الإنكليز في عصره- في عبارة موجزة بقوله: «رغم أن هذه العذراء المتواضعة كانت بارعة الجمال، ناضجة الحكمة، فإنها رفضت عشاقها، وعلمت تلاميذها دروساً، ولذا تلهف أشهر الناس مقاماً وجدارة على زيارة تلك الفيلسوفة[٣]، وجاء في دائرة المعارف البريطانية.. «واجتمعت لها الفصاحة والتواضع والجمال مع قدراتها العقلية الممتازة، فجذبت عدداً هائلاً من التلاميذ[٤]، ويقول سقراط المؤرخ إنه «بلغ من رباطة جأشها، ودماثة أخلاقها الناشئين عن عقلها المثقف، أن كانت في كثير من الأحيان تقف أمام قضاة المدينة، وحكامها، دون أن تفقد- وهي في حضرة الرجال- مسلكها المتواضع المهيب، الذي امتازت به عن غيرها، والذي أكسبها احترام الناس جميعاً وإعجابهم بها..[٥].

---

(١) ول ديورانت مرجع سابق ص ٢٤٧.

(٢) نفس المرجع السابق في نفس الصفحة.

(٣) إدوارد جيبون «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» المجلد الثاني ص ٥٠٠، ترجمة لويس اسكندر، ومراجعة أحمد نجيب هاشم- الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، والقاهرة عام ١٩٦٩.

(٤) The New Encyclopedia Britannica Vol. 6 P. 200.

(٥) ول ديوارنت: مرجع سابق ص ٢٤٧.

غير أن هذا الإعجاب لم يكن- في واقع الأمر- يشمل الناس جميعاً- فما من شك أن مسيحيي الإسكندرية كانوا ينظرون إليها بقدر غير قليل من الكراهية، وذلك لأسباب متعددة منها:

أولاً: أنها ظلت على ديانة اليونان الوثنية.

ثانياً: كان المسيحيون الأول ينظرون إلى «هيباشيا» على أنها تجسيد للعلم والفلسفة والثقافة بصفة عامة، وهي أمور تتحد في نظرهم مع الوثنية في هوية واحدة، يقول أ. ولف A- wolf:

«لقد كان العداء عنيفاً بين المسيحية في عهدها الأول وبين الفلسفة والعلم، ولقد تجلى هذا العداء في موقف الاحتقار الذي كانت تقفه منهما»[1]. وهو ما كان يترجم على الصعيد العملي في اضطهاد المفكرين الوثنيين، وتدمير معابدهم، وإحراق كتبهم، وهدم دور العلم التي يترددون عليها، ونهب ما يجدونه فيها- وهو ما كان يقوده «توفيلوس» كبير الأساقفة كما سبق أن ذكرنا.

ثالثاً: كانت «هيباشيا» في رأيهم ترتبط بعلاقة صداقة وطيدة مع حاكم المدينة الوثني أورستيس Orestes، الذي كان يستشيرها في كثير من المسائل الفلسفية، ولما كان الخلافات مستمرة بين هذا الحاكم وكبير الأساقفة، فقد حملوها مسؤولية هذه الخلافات وأصبحت بما هي كذلك النقطة المحورية في التوترات وأمور الشغب التي وقعت بين المسيحيين وأعدائهم، والتي اجتاحت مدينة الإسكندرية أكثر من مرة»[2].

ولا بد لنا أن نتوقف قليلاً عند رئيس الأساقفة الذي عاصرته فيلسوفة الإسكندرية، ونعني به «القديس كيرلس» وهو الذي نال لقب

---

(١) نقلاً عن د. توفيق الطويل في كتابه «قصة الصراع بين الدين والفلسفة ص ٩٤ (من الطبعة الثالثة) دار النهضة العربية ١٩٧٩.

(٢) The New Encyclopedia Britannica Vol.6 P. 200

«القديس» لقاء ما ارتكبه من جرائم في حق الطوائف الأخرى انتصاراً للمسيحية، كما يقول جيبون: «يعتبر لقب القديس الذي لقب به دليلاً على أن آراءه وفريقه كتبت لهم الغلبة في نهاية الأمر...»[(١)]

تولى كيرلس السكندري منصب رئيس أساقفة المدينة عام ٤١٢ م خلفاً لعمه توفيلوس Theophillus بعد أن تشرب في منزل هذا العم درس الغيرة والحقد والهوس الديني، صحيح أنه كان قد قضى خمس سنوات من شبابه في أديرة صحراء النطرون مع مجموعة من الرهبان عندما ظهر نظام الرهبنة المسيحية أول ما ظهر في مصر، وفي مدينة الإسكندرية على وجه التحديد[(٢)] لكنه رغم ذلك كانت تسطير عليه «قيم الحياة الدنيا ومباهجها». أو بعبارة إدوارد جيبون» كان كيللس يؤدي الصلاة والصيام خلال إقامته في الصحراء غير أن أفكاره (وهذا تقريع من صديق له) ظلت عالقة بالدنيا»[(٣)]، ولهذا فسرعان ما لبى الدعوى في شوق ولهفة، عندما استدعاه عمه «توفيلوس إلى جلبة المدينة وضجيجها حيث: المناصب، والأضواء، والأنصار، وزخارف الحياة، فبادر الناسك الطموح إلى الاستجابة لتلك الدعوة، وشجعه عمه على تقلد منصب «واعظ الشعب» وحقق في هذا الميدان الصيت والشهرة التي كان يرجوها، وامتلأ المنبر بجسده الضخم المهيب، ودوى صوته الرخيم في أرجاء الكاتدرائية، وكان الأصدقاء والأنصار والمعارف يجلسون هنا

---

(١) إدوارد جيبون «اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها» المجلد الثاني ص ٤٩٧.

(٢) ذهب المؤرخون إلى أن نظام الرهبنة المسيحي نظام مصري أساساً، فهو امتداد لنظام الرهبنة أو النسك الذي عرف في عبادة سرابيس Sarapis، في منف وغيرها. هـ. إيدرس بل «مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي» ص ١٦٤-١٦٥ ترجمة د. عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية بيروت عام ١٩٨٨.

(٣) إدوارد جيبون: «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقطوها»، المجلد الثاني ص ٤٩٧.

وهناك ليكونوا في مقدمة المصفقين المهللين من بين المجتمعين.. بينما راح الكتبة يدونون أحاديثه ومواعظه في مذكرات سريعة لتوزيعها على الجمهور.

وعندما تربع كيرلس على عرش الأسقفية، استغل بعده عن البلاط الإمبراطوري، ورئاسته الدينية لعاصمة ضخمة في العالم القديم هي مدينة الإسكندرية، وراح يغتصب شيئاً فشيئاً مكانة حكامها المدني «أورستيس.. Orestes: وسلطته، فتصرف بمحض إرادته في صدقات المدينة العامة والخاصة، وكان صوته يلهب مشاعر الجماهير التي تحولت حديثاً إلى المسيحية، وهكذا كثر الأتباع والأنصار، بل تعصب لآرائه وأفكاره كثيرون ممن ألفوا مشاهد الموت، فكانوا يطيعون أوامره طاعة عمياء[١].

واشتد حماس كيرلس لمحاربة «الهرطقة» التي اتسع مفهومها عنده حتى شمل كل من ليس مسيحياً يدين بأفكار كبير الأساقفة. فاليهود الذين زاد عددهم حتى بلغ أكثر من أربعين ألفاً[٢]- بل يرى البعض أن عدد أفراد الجالية اليهودية في الإسكندرية تجاوز يهود أورشليم نفسها في ذلك الوقت[٣]- كانوا يعيشون في جو من التسامح كفله القياصرة، والبطالمة من «الوثنيين» وإقامة طويلة قدرها سبعمائة سنة منذ تأسيس الإسكندرية، غير أن كيرلس، ودون أي سند قانوني، ودون أي تفويض

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق ص ٤٩٩.

(٣) فيليب حتي «خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى» ص ١٨٣، وأنظر أيضاً غسان خالد: «أفلوطين: رائد الوحدانية» ص ٢٠ منشورات عويدات عام ١٩٨٣، ويرى آخرون «إن عدد سكان مدينة الإسكندرية بلغ ما يقرب من نصف مليون نسمة كان خمسهم من اليهود» د. أحمد صبحي في «فلسفة الحضارة» (الحضارة الإغريقية ص ٢١٧)، حاشية مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية.

ملكي، ودون أن تكون له أدنى سلطة سياسية قاد- مثلما فعل عمه من قبل- مجموعة من «الغوغاء» من الجمهور المتمرد، ومن مثيري الشغب والفتنة، في فجر أحد الأيام لمهاجمة معابدهم، وعجز اليهود عن المقاومة، وهم عزل، ولم يأخذوا للأمر عدته، فهدمت أماكن عبادتهم وسويت بالأرض، ثم كافأ الأسقف المناضل قواته الظافرة بأن سمح لها بنهب ممتلكات اليهود، ثم طرد من المدينة من تبقى من أبناء «الشعب الكافر» مبرراً عمله هذا بأنهم كانوا مسرفين في الثراء، وأنهم كانوا يكرهون المسيحيين.

ولقد شكا أورستيس Orestes حاكم مصر على الإمبراطور ما يرتكبه كيرلس من جرائم، غير أن شكواه العادلة ضاعت أدراج الرياح، إذ لم تقابل من وزراء «ثيودسيوس» إلا بالنسيان السريع، ولا سيما أن رئيس الأساقفة كان يلجأ إلى الهدايا القيمة التي تساعد الذاكرة على النسيان، لكنه، مع ذلك ظل في أعماقه يضمر المقت والكراهية لهذا الحاكم، ويتربص به، حتى واتته الفرصة، «فعندما كانت عربة الحاكم تخترق شوارع المدينة هاجمها فريق مكون من خمسمائة راهب من رهبان صحراء النطرون، فهرب حارسه أمام وحوش الصحراء، وقوبلت احتجاجاته بأنه مسيحي وكاثوليكي بسيل من الحجارة، فسالت الدماء من وجهه، وسارع مواطنو الإسكندرية المخلصون إلى نجدته[1]». وعلينا أن نتذكر جيداً هذه القصة التي رواها «جيبون»، لأنها ستتكرر مرة أخرى مع فيلسوفة الإسكندرية بطريقة أكثر أحكاماً ووحشية.

كانت «هيباشيا» تعيش للفكر وحده، بعد أن رفضت الزواج كما ذكرنا، وترهبنت في محراب الفلسفة، بطريقة تختلف كثيراً عن طريقة الرهبان سالفة الذكر، فقد عاشت العذراء حياة روحية حقيقية تستهدف البحث عن الحقيقة، وبلغ من حبها للفلسفة أنها كانت تقف في الشارع

(١) إدوارد جيبون «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية» المجلد الثاني ص ٤٤٩-٥٠٠.

وتشرح لكل من يسألها عن النقاط الصعبة في مؤلفات أفلاطون أو أرسطو فيما يقول ديورانت[١]، كما درست أفلوطين، والأفلاطونية المحدثة، وشددت على الحب الروحي لا الجسدي الذي يتفق بالطبع مع المذهب الأفلاطوني عموماً، والأفلاطونية الجديدة بصفة خاصة[٢]، ولك أن تقارن بين المحبة الوثنية وأكفار «الرهبان» في وادي النطرون.

تلهف الناس لسماع «هذه العذراء المتواضعة» بارعة الجمال»، كما سعى علية القوم في المدينة لزيارة تلك الفيلسوفة الشابة فيما يروي «جيبون».. وكان كيرلس يشاهد بعين الحقد والحسد ذلك الرتل الضخم من الجياد الذين اصطفوا على باب أكاديميتها... فسرت إشاعة- كان هو نفسه مصدرها على الأرجح- تقول إن «ابنة ثيون» هي العقبة الوحيدة في طريق التوفيق بين الحاكم «أورستس»، ورئيس الأساقفة كيرلس[٣]، كما لو أن العذراء المتواضعة كانت هي المصدر الذي أوحى لرئيس الأساقفة بان يبدأ عهده بالتنكيل بأتباع وفاشيانوس- وهم أكثر أبناء الطوائف براءة وبعداً عن الأذى[٤]- أو أنها هي التي أشارت عليه بمهاجمة حي اليهود في المدينة، ونهب ما فيه، وطرد من فيه، أو أنها هي التي رتبت قيام خمسمائة من الرهبان باعتراض طريق الحاكم ومهاجمته.

لم يكن شيء من ذلك صحيحاً، لكن رئيس الأساقفة كان يمهد لجريمة جديدة، ففي يوم مشؤوم من فصل الصيام الكبير «المقدس» وعلى وجه التحديد في ليلة مظلمة من ليالي مارس ٤١٥ م، ولسبب مجهول حتى الآن احتار فيه المؤرخون لما نشره المغرضون من أسباب وحجج- اعترضت جماعة من رهبان صحراء النطرون- الذين قضوا في الصحراء سنوات طويلة «يصارعون قوى الشر مجتمعة» كما يقولون

---

(١) ول ديورانت: «قصة الحضارة»- المجلد الثاني عشر ص ٢٤٨.

(٢) Ethel M. Kersey: OP. cit. P. 135

(٣) إدوارد جيبون- مرجع سابق ص ٥٠٠-٥٠١.

(٤) المرجع السابق ص ٤٩٩.

ويديرون معركة «صراع باطني ضد شهوات الجسد، ووسائل النفس الأمارة بالسوء[١]- اعترض هؤلاء الرهبان طريق عربة «هيباشيا» بإيعاز من كبيرهم كيرلس، فأوقفوها، وأنزلوا الفيلسوفة الشابة الجميلة- كما فعلوا مع حاكم المدينة من قبل- ثم جروها إلى كنيسة قيصرون Caesarun، حيث تقدمت مجموعة من هؤلاء الرهبان وقاموا بنزع ثيابها واحداً واحداً حتى تجردت من ملابسها لتصبح عارية كما ولدتها أمها[٢]- مشهد بالغ الغرابة يقوم به النساك الأطهار- المهم أنه تقدم بعد ذلك بطرس القارئ Peter the reader (وهو قارئ الصلوات في الكنيسة) وقام بذبحها، وهي عارية، وقد أمسك بها مجموعة من الرهبان ليتمكن قارئ الصلوات من ذبحها ذبح الشاة، ثم عكف الرهبان «الأنقياء القلب» على مهمة بالغة الغرابة، وهي تقطيع جسدها إلى أشلاء مستمتعين بما يفعلون، ثم أمسكت كل مجموعة شلوا بعد شلو وراحت تكشط اللحم عن العظم بمحار حاد الأطراف، وفي شارع سينارون Cinaron أوقدوا ناراً ذات لهب «وقذفوا في النار بأعضاء جسدها، وهي ترتعش بالحياة، فيما يقول رسل، حتى تحول الجسد إلى رماد، وهم يتحلقون حوله «في مرح وحشي شنيع» على حد تعبير «ديوارنت»».

أيمكن أن يكون هؤلاء الوحوش من تلامذة المسيح؟ أيمكن أن نقول إنهم «نور العالم» و «ملح الأرض» كما كان يصف حوارييه؟ المسيح الذي عفا عن مريم المجدلية الزانية، وقال لها: «مغفور لك خطاياك» (لوقا ٤- ٤٨) وقال عن زانية أخرى: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر..» (يوحنا ٨:٧) هل يمكن لمن ذبح فيلسوفة شهد

---

(١) هـ. أيدرس بل «مرجع سابق» ص ١٦٦.

(٢) قارن التصوير الأدبي الرائع لقصة اغتيالها- كتاب أستاذنا الدكتور زكي نجيب محمود «في مفترق الطرق» ص ٨٥» وما بعدها دار الشروق عام ١٩٨٥، وتاريخ الفلسفة الغربية لرسل دجـ ٢، ص ١٠٣، وديورانت مرجع سابق ص ٢٤٨.. الخ.

لها أهل زمانها، أن يكون تلميذاً «لابن الإنسان» الذي رفع شعاره في موعظة الجبل بعدم مقاومة الشر بالشر: «لا تقاوموا الشر بالشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً..» (متى ٥-٩).

غير أننا لا بد أن نسأل- قبل ذلك كله- لماذا جردها الرهبان من ملابسها قبل اغتيالها؟ فما دام «الذبح» في نيتهم فلم يكون وهي عارية تماماً؟ ألا يمكن أن يقول لنا علم النفس الشيء الكثير عن هذا الموقف الغريب؟ أليست هناك علاقة بين هذا الموقف، وما قاله صديق كيرلس عنه من إن «فكره ظل عالقاً بالدنيا؟» ألا يعني ذلك أن الرهبان عندما دخلوا في معركة مع شهوات الجسد لم ينتصروا فيها، بل كان انتصارهم ظاهرياً، في حين ظلت الغلبة لهذه الشهوات؟ أيكون تجريدها من ملابسها قد تم حتى يتمكن الرهبان «أنقياء القلب» من «معاينة» جسد العذراء، وهو عار تماماً قبل الذبح؟ لقد سبق أن رأينا كيف حدث هذا المشهد نفسه مع «أورستيس» حاكم المدينة، وكاد الرهبان أن يفتكوا به لولا أن أنقذه المخلصون من أبناء الإسكندرية، ترى أكانوا يقومون بتجريده هو الآخر من ملابسه قبل اغتياله لو حدث أن تمكنوا منه؟

ربما ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه القارئ لهذا السؤال، مما يجعلنا نكرر السؤال الأول: لماذا إذن؟ جردوا «العذراء» من ثيابها، اللهم إذا كانت شهوات الجسد لا تزال طاغية، أرادوا أن يمتعوا القلب النقي بمشهد الجسد الجميل العاري، ولما كان يصعب على الرهبان أن يصلوا إليه، فإنه يسهل عليهم تمزيقه!

أعمالها: الأنشطة التعليمية

جاءت معلوماتنا عن الأنشطة التعليمية والثقافية التي قامت بها «هيباشيا» من عدد من المصادر بما في ذلك بعض تلاميذها المشهورين، فالفيلسوف اليوناني دمشيوس Damascius- وكان من أتباع الأفلاطونية الجديدة- يروي أنها كانت تحاضر في علم الهندسة والرياضيات، ويخبرنا «فلوستجوريوس Philostogorius» أنها بذت في الرياضيات والدها ثيون Theon أشهر علماء متحف الإسكندرية في هذا العلم، ويروي هسيخيوس Hesychius عالم النحو السكندري في أواخر القرن الرابع الميلادي، وصاحب معجم الكلمات اليونانية- أن «هيباشيا» كانت عالمة فلك ممتازة مثل والدها، ولقد تأكدت شهرتها في هذه المجالات كلها في الخطابات التي تبادلتها مع تلميذها سينسيوس Synesius أشهر تلاميذها على الإطلاق، وهو يحتاج إلى أن نقف عنده قليلاً:

«ولد سينسيوس بقورينا (إقليم برقة الآن) وهو لهذا كثيراً ما ينسب إليه فيقال سينسيوس القوريناني- ولد حوالي عام ٣٦٥، ولقد حضر في عام ٣٩٣ من بنتابولس Pentapolis- أي المدن الخمسة ببرقة- إلى الإسكندرية ليدرس على يد فيلسوفة شهيرة في الثالثة والعشرين من عمرها، وفي نفس التاريخ تقريباً الذي رحل فيه سينسيوس إلى الإسكندرية ليدرس على «هيباشيا»- كان الإمبراطور الروماني ثيودوسوس.. Theodosius قد منع ممارسة الشعائر الدينية الوثنية في مصر، حيث كانت أعمال الشغب قد انتشرت بالفعل بين الوثنيين والمسيحيين.

حضر سينسيوس إلى الإسكندرية ليدرس الرياضيات والفلسفة

على «هيباشيا» لكنه ظل حتى آخر حياته صديقها الوفي، وكان يسميها «الشارحة الحقة للفلسفة الحقة» ثم زار أثينا وقويت عقيدته الوثنية، ولكنه تزوج بامرأة مسيحية عام ٤٠٣، واعتنق على أثر ذلك الديانة المسيحية، وحول ثالوث الأفلاطونية المحدثة المؤلف من: الواحد، والعقل، والنفس- إلى: الأب، والروح، والابن، وكتب كثيراً في المسيحية منها: كتاب عنوانه: «في انعدام النوم Deinsommis» وكتاب عنوانه «ديون Dion» وسوف نعود إليها بعد قليل.

والملاحظ أنه على الرغم من تحول سينسيوس القوريناني من الوثنية إلى المسيحية، فإن أستاذته «هيباشيا» بقيت على ديانة اليونان، ولكنها مع ذلك لم تغضب عليه، ولم تتحول مشاعرها نحوه على الإطلاق، وعندما عين بعد ذلك «أسقفاً في كنيسة كاثوليكية من كنائس بطليمية» لم يقل حبها له، ولم تأكل الغيرة قلبها عندما كانوا يصفونه بأنه «الأسقف الفيلسوف». ولك أن تقارن ذلك بالموقف السالف الذكر للقديس كيرلس من «هيباشيا» سواء من حيث موقفه من العقيدة، أو من حيث المكانة.. في آن واحد. وظلت العلاقة بينهما قائمة على المحبة والاحترام المتبادل، ويقول جورج سارتون «.. وصلنا ١٥٩ خطاباً تمتد تواريخها من سنة ٣٩٤ إلى سنة ٤١٣.. وهو يسألها في الخطاب الخامس عشر أن تصنع له جهازاً لقياس الوزن النوعي للسوائل Baiyilion، وهو نوع من الهيدرومتر- في هذا الخطاب أول وصف وصل إليها لهذا الجهاز»[1].

ويذكر «سينسيوس» في خطاباته أنه كان «لهيباشيا» الفضل في تثقيفه ثقافة شاملة، فقد درست له- مع شروح وافية- مؤلفات أفلاطون وأرسطو، كما درس على يدها ميتافيزيقا الأفلاطونية المحدثة وأسرارها، فضلاً عن بعض العلوم الطبيعية مثل: علم الفلك، والميكانيكا،

---

(١) Ibid. P. 174.

والرياضيات[١]، ونحن نعلم من مصادر أخرى أن سينسيوس درس على يد «هيباشيا» فلسفة أفلوطين، والفلسفة الدينية الوثنية التي تعارض- إلى حد ما- الفلسفة المسيحية، ولقد أصبحت فلسفة أفلوطين بصفة عامة، جانباً متكاملاً في عملية الانتقال العقلي من الفلسفة اليونانية الوثنية إلى المسيحية، ولقد كانت دراسة سينسيوس لأفلوطين على يد «هيباشيا» هي التي أدت به إلى اعتناق المسيحية، ثم إلى أن يصبح بعد ذلك أسقفاً في إحدى الكنائس الكاثوليكية- كما سبق ذكرنا- وهو يقول في أحد خطاباته إن الناس،؟ في ذلك العصر، لم ينظرون إلى «هيباشيا» على انها فقط أعظم شارحة على قيد الحياة لفلسفة أفلاطون وأرسطو، بل إن تلاميذه كانوا يأتون إليها من سينسيوس عام ٣٩٥ إلى هيركيولانوس.. Hercullianus يقول لقد سافر الشباب من قورينا Cyrene إلى الإسكندرية ليدرسوا على يد:

«... شخصية معروفة تماماً ويبدو أن شهرتها كانت تفوق الوصف، لقد رأيناها بأنفسنا، بعد أن سمعنا عن تلك المرأة التي تتربع، بشرف، على قمة الأسرار الفلسفية..»[٢].

في عام ٤٠٤ أرسل سينسيوس إلى «هيباشيا» كتابين من تأليفه هما: «في انعدام النوم» و «ديون» وكانت قد عينت في ذلك الوقت رئيسة للمدرسة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية- وهو في هذا الخطاب يسألها أن تكتب تعليقاتها على الكتابين، ولقد لاحظ «سينسيوس» نفسه أنه ربما كان كتاب «في انعدام النوم» وحياً إلهياً، وهو لهذا عازم على نشره مهما اختلفت فيه الآراء، وليس في استطاعتنا أن نستنتج من خطابه أن آراء «هيباشيا» الابستمولوجية كانت تنكر الايمان بالوحي الآلهي كمصدر من مصادر المعرفة، وأغلب الظن أنها لم تناقشه في المقدمات

---

(١) ورج ساتون «العلم القديم والمدينة الحديثة» ص٦٧، ترجمة د.عبد الحميد صبرة.

(٢) Marry Ellen Waithe: Op. Cit. P.173

التي بدأ منها، أما الكتاب الثاني فوضعه مختلف، إذ تذكر رسالة سينسيوس أنه لن ينشر كتاب ديون Dion إلا بعد أن تكتب له «هيباشيا» رأيها فيه، وتوافق على نشره، وبما أن الكتاب قد تم نشره بالفعل فإن لنا أن نستنتج من ذلك أن «هيباشيا» قد وافقت عليه، وكتاب «د\يون Dion» في جانب منه دفاع عن الفلسفة ضد الخطباء الذين صنفوا أنفسهم على أنهم فلاسفة، ويتحدث فيه «الأسقف الفيلسوف» عن الأفلاطونية الجديدة التي تعلمها على يد «هيباشيا» وهو مزيج من الصوفية والمذهب الكلبي، فالله ليس موجوداً متعالياً فحسب وإنما هو واحد أيضاً، ولا يمكن للإنسان أن يعرفه معرفة مباشرة بأية طريقة، ومن الواحد المتعالي المفارق يفيض النوس الكلي Nous (العقل) الذي تشبه أفكاره النظرية مثل أفلاطون، ومن النوس Nous نفسه تفيض المادة ماهية الكون المادي، والسبب المباشر للكون، ولموجوداته الحسية، ولما كانت المادة «شراً» والنوس هو المقدس، وما دام الإنسان في جانب منه مادة، وفي الجانب الآخر روحاً وعقلاً، فإن الإنسان في جانب منه شرير، وفي الجانب الآخر روح مقدس، وفي استطاعة الإنسان من خلال ضبط النفس، والإخضاع الكلي للحواس أن يصبح قادراً على تلقي الوحي المباشر عن الحقيقة الإلهية من النوس أعني من العقل الكلي، ولقد قاربت هذه الفلسفة ذات الابستمولوجية الدينية بين «سينسيوس» و»هيباشيا» فهي تتفق تماماً مع وثنية «هيباشيا» ومسيحية «سينسيوس»[١]

ومن الأنشطة التعليمية التي قامت بها «هيباشيا» أنها كانت تدرس- كما سبق أن ذكرنا- مؤلفات عمالقة الفلاسفة الوثنيين: أفلاطون وأرسطو، كما أنها قامت بتدريس فلسفة فيثاغورس وزينوفان، والمدرسة الكلبية، ويضيف بعض المؤرخين المدرسة الرواقية أيضاً، كما وضع شروحاً على فلسفة أفلوطين، ولما كانت مهتمة مثل أبيها بالرياضيات

(١) Ibid

والعلوم، فربما ركزت بعض الوقت على أن تدريس تلك المؤلفات القديمة التي تتعلق بالميتافيزيقا، والكسمولوجيا، والأبستمولوجيا- أكثر من اهتمامها بالفلسفة السياسية والأخلاقية ومن المحتمل كذلك أن تكون قد قامت بتدريس كتاب «ديوفنطس Diophantus علم الحساب.. Arithmeticorum» [(١)].

ومن السهل أن نتبين كيف أن ثقافة «هيباشيا» الفلسفية قد ساعدتها في تشكيل الأساس الطبيعي لما أصبح اهتمامها العقلي الأول، وأعني به: علم الفلك، فقد كانت، مثل والدها «ثيون.. Theon» عالمة فلك، وعالمة رياضية، (فالفلك كان فرعاً من الرياضيات) ولقد كان علم الفلك في بداية القرن الخامس الميلادي من أهم العلوم في الدراسات الفلسفية التي كانت تشمل في جوفها الأفرع المختلفة من المعرفة البشرية، حيث كانت الفلسفة أم المعارف، أو ملكة العلوم Reginea sceientiarum. ومن هنا فقد سعى العلماء التجريبيون وعلماء الرياضة في آن واحد إلى فهم ميتافيزيقا أرسطو، فضلاً عن الفيزيقا والكسمولوجيا، وتطبيقاتها كذلك ابستمولوجيا أفلاطون وتطبيقاتها على الكون المرئي مستخدمين نظريات الرياضة والهندسة، والأدوات والأجهزة العلمية للإجابة عن أسئلة فلسفية أساسية مثل من نحن؟ وما هو مصيرنا؟ وأين مكان الإنسان في نظام الأشياء؟ ..الخ[(٢)].

---

(١) Ibid. p.174

(٢) Ibid. P. 175

الشروح..

قامت «هيباشيا»- على ما يروي سويداس في معجمه - بتأليف ثلاثة كتب هامة هي:

١- شرح على كتاب «ديفونطس Diophantus0: السكندري المسمى «علم الحساب Arithmeticorum: أو «الآرتمطيقا».. كما كان يسميه العرب.

٢- شرح على كتاب بطليموس المجموع الرياضي أو المركب الرياضي Syntaxis Mathematica (وهو العنوان الأصلي اليوناني للكتاب المعروف في التراث العربي باسم «المجسطى» حيث كان يطلق على الكتاب أحياناً اسم Megiste Syntaxis، أي المركب العظيم أو المجموع العظيم، فأخذ العرب كلمة Megiste- أي العظيم- وأضافوا إليها أداة التعريف Al فأصبحت المجسطي، أو الكتاب العظيم!

٣- شروح على كتاب «قطوع المخروط Conic Sections لأبولونيوس البرجي Apollouins Pergaeus.

وعلى الرغم من أن سويداس يروي أن الكتب الثلاثة فقد فقدت، فإن «ماري إيلين ويث» كشفت عن وجود كتابين منهما على الأقل، وهما الكتاب الأول والثاني، أما الثالث فمن المحتمل أن يكون قد بقي أيضاً باسم شروح على النظريات الهندسية للبرجي Pergaeus.

ويجدر بنا أن نسوق كلمة موجزة عن هذه المؤلفات:

أولاً شرح على كتاب ديفونطس.. Arithmeticorum:

لقد كان ديفونطس السكندري الذي ازدهر حوالي عام ٢٥٠م- عالم رياضة مرموقاً في النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد، فهو صاحب الكتاب المعروف باسم أرتمطيقا أي «علم الحساب»، وكان يقع في ثلاثة عشر كتاباً (أو مقالة)، لم يبق منها سوى ستة كتب فحسب، ولقد اختلف الباحثون حول المقالات أو الكتب التي فقدت من كتاب ديفونطس، والمقالات أو الكتب التي ظلت موجودة حتى الآن، لكنهم، مع ذلك، متفقون على أن «هيباشيا» كانت أعظم، وأشهر شارحة لهذا الكتاب في العالم القديم، كما أننا نعرف من بعض المصادر الحديثة أن التنقيحات والتعديلات التي أدخلتها «هيباشيا» على كتاب علم الحساب هي- فيما يبدو- أقدر وأعمق نسخة من هذه المخطوطة.(١)

وترجع أهمية «ديفونطس» وكتابه (وبالتالي شروح «هيباشيا» عليه) إلى أن هذا العالم كان أول من بذر البذور التي أثمرت علم الجبر فيما بعد، وإن كان هناك اجماع على أن أثر المصريين والبابليين في أعماله الرياضية كان بارزاً جداً، إذ ظل يحل كل مسألة تعرض عليه حلاً مستقلاً دون أن يرجع إلى طريقة علمية، ولا إلى قاعدة عامة، لكنه مع ذلك كان أول من تعرض لفكرة إيجاد كم مجهول له نسبة ما إلى كميات اخرى معلومة، وإن كان قد وقف في معالجته لهذه الفكرة التي أثمرت الجبر عند الطرق الفيثاغورية التي كانت ترمز لكل عدد بخط أو شكل هندسي أكثر تعقيداً، والتي كانت تحل البراهين الهندسية محل العمليات الحسابية المعهودة الآن(٢).

---

(١) Mary Ellen Waithe: «Arhistory of Women Philosophers» Vol. I. p. 178.

(٢) قارن عمر فروخ: «تاريخ العلوم عند العرب» ص ٢٦-٢٨، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة بيروت عام ١٩٨٤. ود.محمد ثابت الفندي «فلسفة الرياضة»، ص ٨٣-٨٤ دار النهضة العربية الطبعة الأولى بيروت، ١٩٦٩.

وحتى تتبين جيداً مدى أهمية شروح «هيباشيا» على هذا الكتاب فلا بد أن نضع في ذهننا التفرقة التي ساقها أفلاطون في محاورة جورجياس Gorgias بين العلم النظري المجرد الذي يدرس موضوعات عامة بغير تخصيص، وبين الفن التطبيقي لهذا العلم، فلقد ميز سقراط في هذه المحاورة بين علم الحساب Arithmetic، وبين فن العد- Calculation (بين الجانب النظري المجرد والجانب العملي التطبيقي للحساب) ملاحظاً «أن علم الحساب يبحث في العدد الزوجي والعدد الفردي بغض النظر عن كمية كل منهما أو مقدارهما..»، بينما فن العدد «يبحث في الكمية أو كيف يرتبط العدد الزوجي أو الفردي نفسه من حيث الكمية، من ناحية، وبعضهما بالبعض الآخر من ناحية أخرى»(١).

غير أن التفرقة بين الأعداد المجردة- كالأعداد الزوجية والفردية بصفة عامة (أعني علم الحساب)- وبين الأعداد الخاصة أو النوعية أو المحددة (فن العدد) كثيراً ما كانت تختفي عند «ديفونطس»، وذلك بسبب أن «فن العدد» عنده كثيراً ما كان يتخذ شكلاً مجرداً، فكان دور «هيباشيا» أن شرحت أولاً هذه التفرقة، ثم أدخلت ثانياً مشكلات جديدة، كما أسهمت في التوصل إلى بعض الحلول البديلة للمشكلات الأصلية عند ديفونطس، مما أدى إلى توضيح الطابع المجرد، فضلاً عن توضيح طبيعة علم الحساب بصفة عامة، وأبرزت إسهامات ديفونطس التي أثمرت نظرية الجبر بعد ذلك(٢).

ولقد قامت «ماري إلين ويث Mary E.Waithe» في كتابها «تاريخ الفلاسفة من النساء» المجلد الأول ص ١٨٢- بترجمة ما أضافته «هيباشيا» من تعليقات وتنقيحات. كما قامت بترجمة جانب من الشروح المتبقية التي اشتهرت بها «هيباشيا» في العالم القديم. وذلك في ص ١٧٨ وص ١٧٩، وص ١٨٠، نقلاً عما نشره «بول تانرى Paul

---

(١) Plato: Gorgias. 451- B.

(٢) Mary Ellen Waithe: Op. Cit p.117

Tannery» الـذي نشـر الـنص اليونـاني، وفـي مقابلـه «الـنص اللاتينـي» لكتاب ديفونطس علم الحساب، كما نشر القس أ. روم A. Rome النص نفسه مع مراجعة ثيون Theon والد «هيباشيا» له[١].

ثانيـاً: شـرح علـى كتـاب بطليمـوس: «المجمـوع الرياضـي Syntaxis Mathematica»

كان «بطليموس كلوديوس Ptolemy Claudius» وهو الملقب عند العرب ببطليموس القلوذي، أشهر العلماء في هذه الحقبة، ومن أشدهم تأثيراً في الشرق والغرب بعد أرسطو، وقد ظل كذلك حتى كوبرنيكس Copernicus وهو عالم فلك، ورياضة (وكان الفلك فرعاً من الرياضيات كما قلنا). وجغرافي وفيزيقي مصري يوناني، ولد في صعيد مصر، ونشأ في مدينة الإسكندرية في الربع الأخير من القرن الثاني الميلادي (حوالي عـام ١٧٠م)[٢]، وقـد وضـع بطليمـوس كتبـاً كثيـرة كـان أشـهرها كتابـه «المجموع أو المركب الرياضي» والمعروف في اليونان باسم «تصنيف العظـيم فـي الرياضـيات» وهـو المعـروف فـي التـراث العربـي باسـم «المجسطي Al Mageste» نحتاً من كلمة Megitse اليونانية التي تعني «عظيم» وإضافة أداة التعريف الـ Al» لنعني كلمة «كما سبق أن ذكرنا- العظيم، فهو الكتاب العظيم، ذلك لأنه دائرة معارف في علوم الفلك والمثلثات وموضوعاته: كروية العالم، وثبوت الأرض في مركز العالم، والبـروج، وعـروض البلـدان، وحركـة الشـمس، والانقلابـان الربيعـي والخريفـي، والليـل والنهـار، وحركـات القمـر وحسـابه والخسـوف والكسوف، والنجوم الثوابت، والكواكب المتحيرة[٣].

وأكثر ما شغل بال بطليموس الكواكب المتحيرة وحركاتها (في

(١) Ibid P.183

(٢) Ethel M. Kersey: Woman Philosophers P.135

(٣)عمر فروخ «تاريخ العلوم عند العرب» ص ٤٨، دار العلم للملايين بيروت عام ١٩٨٤.

رأي العين) فإذا كانت الأرض ثابتة في مركز العالم، والشمس والقمر والنجوم والكواكب تدور حولها من المشرق إلى المغرب، فلماذا نرى القمر والكواكب الخمسة (عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل) تتحير في أسماء، تتقدم حيناً على الشمس وتتأخر عنها حيناً، ويتقدم بعضها على بعض مرة بعد مرة وتختلف مواقعها في السماء بين حين وآخر، بالإضافة إلى النجوم الثوابت؟

والواقع أن مشكلة الكواكب المتحيرة كانت ترجع إلى الاعتقاد بأن الأرض ثابتة في مركز العالم، وليست كوكباً يدور حول الشمس التي هي مركز نظامنا الشمسي[١].

ولقد كان «بابوس Pappus» و «ثيون.. Theom»، والد «هيباشيا»- هما أعظم شراح كتاب «المجسطي» لبطليموس في ذلك الوقت، غير أن «هيباشيا» اشتهرت بأنها كانت منقحة لعلم الفلك عند بطليموس، وهو ما يرويه المؤرخون من أمثال «فابريقوس Fabricus»، وسقراط المؤرخ و «سويداس Sauidas» وغيرهم. وقد افترضوا أن ما قامت به هذه الفيلسوفة قد فقد، غير أن مجموعة من الكتب بقيت لنا من أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، بما في ذلك العديد من النسخ من شروح «ثيون» على كتاب المجموع الرياضي لبطليموس، والجداول الفلكية التي يرجح الباحثون أنها من تأليف «هيباشيا»، ويلاحظ بول تانرى Paul Tannery.. أن ترديد الدعوى التي روج لها المؤرخ «فابريقوس» والتي تقول إن شروح هيباشيا» قد فقدت- جعل مؤرخي الرياضيات يفشلون في التعرف على اختلاف مزدوج، ظهور جداول فلكية جديدة في عصر الشراح، تماثل العمل الأصلي من ناحية، ثم اختفاء عمل هام (شروح «هيباشيا») دون أن يكون له أثر .. وهكذا ينتهي تانرى إلى أن الجداول الفلكية هي من تأليف «هيباشيا» كما ينتهي باحث آخر إلى أن مؤلفاتها وشروحها على كتاب بطليموس لم تفقد كلها، إذ يلاحظ ج.ف. مونتوكلا Montucla j.F بقاء:

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٩.

«الكتاب الثالث من الشروح (على المجسطي.. Almageste) وهي الشروح التي ينسبها إليها سراحة والدها «ثيون..» والظاهرر أن ثيون كان يقوم بإعداد شروح على كتاب بطليموس، وأنه طلب من «هيباشيا» مراجعة المخطوطة ومسائل رياضية، ومنهجية، وعقلية، عديدة- لم يقف عندها أحد من قبل: لا «ثيون» ولا بطليموس نفسه، فبدأت هي في دراستها ومواجهتها، لكنها أثناء تحليلها لهذه المسائل، أعادت دراسة القيم الرياضية للأحداث السماوية التي وصفها علماء الفلك القدامى بما فيهم «بطليموس» كما وضعت الجداول الفلكية التي جاءت كنتائج لهذه الدراسة. ولقد كانت شروحها على الكتاب الثالث من «المجسطي» (وربما الكتب التالية أيضاً) هي التي جعلت تحليلاتها للموضوعات الفلسفية والرياضية أكثر ثراءً وقوة- وهي الموضوعات التي أوحى بها والدها «ثيون» في شروحه الأصلية، وعندما تطورت هذه التحليلات أصبحت الشروح، شروحها هي، ولهذا السبب فإننا نرى المؤرخين يقولون إن والدها ينسب إليها هذه الشروح.

وتقع شروح «هيباشيا» على الكتاب الثالث من كتاب بطليموس «المجسطي» أو المجموع الرياضي- في الصفحات من ٨٠٧ حتى ٩٤٢ في المجلد الثالث من الطبعة التي قام بنشرها الأب روم.. A.Rom ولم تظهر لهذه الشروح حتى الآن أية ترجمة بلغة حديثة، لأن هذا الكتاب ما زال يتحدى المترجمين بصعوبته،؟ وتعقيداته، لأن فهم النص لا يحتاج فحسب إلى معرفة باللغة اليونانية السكندرية التي كانت سائدة في القرن الخامس الميلادي، بل يتطلب كذلك إلماماً دقيقاً بالطبعات المبكرة لمؤلفات بطليموس، كما يتطلب أيضاً معرفة بالرياضيات والفلك المصري القديم.

والواقع أننا إذا أردنا أن نقدر شروح «هيباشيا» على الكتاب الثالث من المجسطي فإن علينا أن نضع هذه الشروح في سياقها التاريخي، لقد وضع بطليموس نظاماً لعلم الفلك مكتملاً إلى حد ما، فكان التخطيط الهندسي للسماء كما يراه علماء الفلك يناظر تقريباً النظرية الهندسية، أما

التعارضات بين النظرية والملاحظات الفلكية، فقد فسرها بطليموس بافتراضه البسيط الذي جعل الأرض مركزاً للكون، وظلت تلك هي النظرية المعتمدة حتى جاء كوبرنيكس Copernicus (١٤٧٣-١٥٤) عالم الفلك البولندي الشهير، فذهب إلى أن الأرض وسائر الكواكب السيارة تدور حول الشمس وحول نفسها، فهل قرأ كوبرنيكس تعليقات «هيباشيا» على الكتاب الثالث؟! أكان على علم بالانتقادات المنهجية التي وجهتها إلى بطليموس؟! الثابت، تاريخياً، أن كوبرنيكس ذهب إلى ايطاليا لدراسة علم الفلك، وأنه كان شغوفاً بقراءة كل ما تستطيع أن تصل إليه عن علماء الفلك القدامى، ولا سيما بطليموس، كما أنه قرأ بإمعان الشروح التي كتبت عن بطليموس، أكان يمكن ألا يقرأ ما أسماه البعض أعظم شروح وصلت إلينا عن بطليموس، وأهمها، شروح ثيون وابنته «هيباشيا»؟! إن الثابت تاريخياً أيضاً أن كوبرنيكس سافر إلى فلورنسا في الوقت الذي كانت فيه هذه الشروح مصنفة في مكتبة لورنزودي مديتشيLe Renzo di Midiclau برقم ١٨٠٢٨، فهل يمكن أن يكون قد زار فلورنسا، لكنه لم يتوقف عند مكتبة تضم أعظم النصوص القديمة وأشهرها في إيطاليا؟! أيمكن ألا يكون قد قرأ «هيباشيا»؟!

ثالثاً: شروح على كتاب: القطوع المخروطية Conic Section:

يذكر «معجم سويداس» وكذلك سقراط المؤرخ، وفابريقوس وغيرهم- أن «هيباشيا» ألفت كتاباً عنوانه شروح على كتاب «القطوع المخروطية» لأبولونيوس البرجي Apolonuius of Pergaeus، والظاهر أن هذا الكتاب هو الوحيد الذي فقد من مؤلفات «هيباشيا» الثلاثة. ولقد قام عالم الفلك الإنكليزي الشهير إدموند هالى Edmund Halley (١٦٥٦-١٧٤٢)، في نهاية القرن السابع عشر بتجميع النسخ العربية واللاتينية القديمة من كتاب «القطوع المخروطية» في محاولة لإعادة تجميع النص الأصلي، وما كتب عليه من شروح، وتعليقات، وقد تعرف على شروح «هيباشيا» من بين ما جمعه من شروح، وإن كان قد وجد

صفحة العنوان فقط دون أن يجد نص الكتاب نفسه، كذلك لم تنجح «ماري ويت» في العثور على المادة العلمية التي كان «هالي» يشتغل عليها، وما زال الأمل ضعيفاً في العثور على هذا الكتاب الذي يتضمن شروح «هيباشيا» على النص الأصلي[١].

بقي أن نشير على اختراعين كثيراً ما نسبهما المؤرخون إلى «هيباشيا»:

الاختراع الأول:

البلانسفير Plansisphere، وهي خريطة ذات ثلاثة أبعاد لنصف الكرة السماوية، ذات أداة تشير إلى الجزء المنظور منه في وقت معين. أو الآلة الملكية القديمة المسماة «الأسطرلاب .. Astrolabe» التي طلبها منها تلميذها سينسيوس Synesius، وقد أهداها سينسية بعد ذلك إلى باينوسوس Paenius، وهو نبيل في بلاط الامبراطور في القسطنطينية[٢].

الاختراع الثاني:

يسألها سينسيوس في الخطاب الخامس عشر إليها- أن تصنع له جهازاً لقياس الوزن النوعي للسوائل Baryllio، وهو نوع من الهيدرومتر TerHydrome، وفي هذا الخطاب أول وصف وصل إلينا لهذا الجهاز[٣]، ويقول «تانري» إن هذا الجهاز الذي ابتكرته «هيباشيا» كان يستخدم لمعرفة الأوزان المختلفة للسوائل التي يستخدمها المرضى بوجه خاص، حيث كان الطب القديم ينصح المرضى بتناول السوائل الأخف وزناً لأنها أفضل[٤].

---

(١) Ibid. P. 191.

(٢) Ibid. p. 192

(٣) جورج سارتون: «العلم القديم والمدينة» ص ١٦٧.

(٤) Mary E, Waithe. Op. Cit. P.192

خاتمة..

تلك نبذة موجزة عن «هيباشيا» فيلسوفة الاسكندرية التي ولدت في جو ثقافي حرص عليه الملوك البطالمة، فدرست الفلسفة والرياضة والفلك وبرزت أهل العصر في هذه المعارف، فقد تمكنت من الفلسفة ولا سيما عمالقة الفكر اليوناني زينوفان وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطو، ثم أفلوطين والأفلاطونية الجديدة، وحاضرت في الميتافيزيقا والابستمولوجيا، وأمدتها الفكرة بالأسس النظرية التي استخدمتها في تقييم النظريات الفلكية والهندسية، وكانت عقلاً ناضجاً شهيراً حتى قبل ان تصل إلى سن الثلاثين، لقد عاشت في بيئة عقلية كانت تستبعد منها النساء وعينت في منصب لم تسبقها إليه امرأة قط: رئيسة لمدرسة الأفلاطونية الجديدة، وعرفت في عصرها بالفيلسوفة العظيمة[1].

هذه «الفيلسوفة العظيمة» تعرضت للاضطهاد من جانب التعصب الديني، أو الهوى الديني بمعنى أدق، فمزقت أشلاء وألقيت أطرافها المرتعدة- فيما يقول جيبون- في لهب النار «... ثم أوقف البطريرك أو كبير الأساقفة سير التحقيق والعقاب العادل بالهدايا المناسبة، غير أن مقتل هيباشيا وصم أخلاق كيرلس السكندري وديانته وصمة عار لا تزول ولا تمحى..»[2]. ويقول رسل: «وبعدئذ لم يعكر الفلاسفة صفو

---

(١) Ibid. P. 193

(٢) إدوارد جيبون «اضمحلال الأمبراطورية الرومانية»- المجلد الثاني ص ٥٠١.

الإسكندرية أبداً..»[1] فقد رحل أساتذة الفلسفة الوثنيون بعد موت «هيباشيا» إلى أثينا ليتقوا فيها الأذى، وكان التعليم غير المسيحي لا يزال حراً نسبياً، ولا يزال معلموه آمنين على أنفسهم من غيرهم في المدن الأخرى[2].

غير أن الاهتمام بهذه المرأة الممتازة استمر في الماضي وامتد، وإن كان على فترات متقطعة ولأسباب منوعة، ففي القرن السابع عشر كتب الأديب الفرنسي Gille Menange في كتابه تاريخ الفلاسفة من النساء «قصيدة قصيرة عنوانها «في الحكمة» يقول فيها:

«لا بد لكل من يشاهد، ويتأمل بيتك الطاهر..
الخالي تماماً من كل زخرف أو زينة..
أن ينشغل بأمر الثقافة ..
حقاً، لقد انشغلت أنت بالسماء...
«هيباشيا» أيتها المرأة الحكيمة...
لغتك عذبة.. ونجمك متألق في سماء الحكمة...»[3].

وفي القرن التاسع عشر استغل الروائي الإنكليزي تشارلز كنجزلي (١٨١٩-١٨٧٥) Charles Kingsley إحداث حياتها في رواية اسمها «هيباشيا»، ولما كان قد عمل هو نفسه أستاذاً للتاريخ بجامعة كيمبردج فقد كان لديه حس تاريخي واضح- وإن لم يكن دقيقاً على الدوام- فأصدر «هيباشيا» عام ١٨٥٣ وفيها يعود بالزمن إلى الوراء ليصور مدينة الإسكندرية في بداية القرن الخامس الميلادي حيث نرى شاباً مسيحياً اسمه فيلامون Philammon يأتي من الصحراء إلى المدينة منجذباً بقوة

(١) براتراندرسل «تاريخ الفلسفة الغربية» المجلد الثاني ١٠٣ ترجمة د. زكي ونجيب محمود- لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٢، عام ١٩٦٨.

(٢) ول ديورانت: «قصة الحضارة»- المجلد الثاني عشر ص ٢٤٨.

(٣) Ethel M. Kersey: Woman Philosophers. P.16

ليتعلم على يد «هيباشيا» في المتحف، وهنا يصور الكاتب مدينة الإسكندرية في شيء من التفصيل، ويقدم وصفاً وصوراً جيدة للمدينة وشوارعها المزدحمة، ومشاكل الحياة فيها في ذلك الوقت، كما يصور الأديب ثورة الجمهور الغاضب والقوي المترمدة- وينتهي بتصوير اغتيال «هيباشيا». عندئذ يعود الشاب فيلامون مرة أخرى إلى الصحراء التي جاء منها.

والواقع أن الكاتب أراد تصوير الصراع الذي حدث بين المسيحية- وهي تمكن لنفسها في بداية عهدها- وبين الفلسفة اليونانية على نحو ما حدث في مدينة الاسكندرية في القرن الخامس الميلادي[١].

وتزايد الاهتمام «بهيباشيا» مع نشأة الحركة النسائية، والبحث المتزايد عن الجهود النسائية في الماضي، وجمع الوثائق التي تثبت إسهامات النساء في النشاط الأدبي أو الفلسفي أو العلمي، وحديثاً ظهرت جريدة في الفلسفة النسائية تحمل اسم «هيباشيا» تكريماً للجدة الأولى[٢].

وهي «مجلة فلسفية» رئيسة تحريرها مارجريت سيمونز Maronsgarel sim، وتصدرها جامعة الينوي في الولايات المتحدة الأميركية[٣].

وفي النهاية لا بد أن نقول مع جورج سارتون إن هذه المرأة العظيمة. «كان لها شرف مزدوج» فهي أول من اشتغل بالرياضيات من النساء- وهي من أوائل الذين استشهدوا في سبيل العلم..»[٤].

---

(١) Chamber Enceclopedia Vol .8
وانظر أيضاً الأدب الإنكليزي، تأليف ج. ثورنلي، وترجمة أحمد الشويخات، ص ١٨٤، دار المريخ بالرياض.

(٢) Ethel M. Kersery. Op. Cit.

(٣) انظر الحركة النسائية والفلسفة- عدد أصدرته الجمعية الفلسفية الأميركية في نوفمبر ١٩٨٧ «On Feminism and Philosophy».

(٤) جورج سارتون «العلم القديم والمدينة الحديثة» ص ١٦٨.

خاتمة البحث...

عرضنا في هذا الكتاب- على مدى ثمانية فصول- لمجموعة من «النساء.. الفلاسفة» في العالم القديم، في محاولة أردنا بها أن نرفع الغشاء عن عين المرأة التي تحجب عنها الرؤية ليكون بصرها اليوم حديداً، فتسترد ثقتها بنفسها، وتأخذ دورها في بناء المجتمع مع الرجل جنباً إلى جنب، ولن يتم ذلك كله إلا إذا أثبتنا رجاحة عقل المرأة، وسديد رأيها، وقدرتها على التفكير العلمي التي لا تقل عن قدرة الرجل، ولا سيما في مجال التفلسف الذي يبدو حقلاً مغلقاً مقتصراً على الرجال وحدهم، وبذلك نهدم الفكرة السائدة والساذجة معاً عن «العقلية النسائية الضعيفة الناقصة، وتنتهي إلى إلغاء تلك الفكرة العقيمة التي تشطر العقل البشري شطرين «رجالي» و «نسائي».

ونود في هذه الخاتمة أن نشير إلى أمرين هامين:

الأمر الأول: هو أنه من الطبيعي أن تكون البدايات الأولى للتفلسف عند المرأة بسيطة وساذجة، فقد تتألف من عبارات قليلة أو شذرات متناثرة هي التي بقيت لنا، وقد تدور حول موضوع بسيط، أو تكتفي بمد فكرة ما إلى مجالات أوسع كما حدث لنساء الفيثاغورية، لكن ينبغي ألا يغيب عن ذهننا عدة أمور:

أ- أنه هكذا كانت بداية التفلسف عند الفلاسفة الأول من الرجال بسيطة وساذجة، كالماء هو أصل الأشياء «مثلاً عند طاليس أول الفلاسفة، بل إن العبارة نفسها مأخوذة من الفكرة المصرية عن النيل الذي كان يكون جزراً تخرج من جوفه باستمرار فضلاً عن الدلتا-

وهي الفكرة التي نقلها طاليس عندما عاش في مصر، وتعلم من كهنتها!

ب-عندما تتعدل الظروف الاجتماعية للمرأة في العالم الحديث، فسوف نجد فكراً أوضح في القرن السابع عشر حتى يصل إلى القمة في القرن العشرين، وسوف نعرض في الجزء الثاني من هذا الكتاب «نساء.. فلاسفة» في العالم الحديث لفلاسفة من أمثال: «مارجرين كافنديش Margaret Ca Vendish» (١٦٢٣-١٦٧٣) الفيلسوفة الإنكليزية التي كتبت في «الفلسفة الطبيعية» و «كرستينا فازا Kristina Wasa» (١٦٢٦-١٩٨٩) ملكة السويد الشهيرة تلميذة ديكارت التي دعته إلى استكهولم عام ١٦٥٠، وتعلمت على بنية الفلسفة الديكارتية، و»آن فينش كونواى-Anne Finch Conway» (١٦٣١-١٦٧٩) التي أثرت بقوة في «ليبنتز» حتى أن من الباحثين من يرد إليها فكرة «المونادMonad» الشهيرة في فلسفة ليبنتز، حتى نصل على أسماء لامعة في القرن العشرين من أمثال: ماري وارنوك Mary Warnock، وسوزان ستبنج، وسوزان لانجر، وسيمون دي بوافوار، وحنة أرندت وغيرهن.

ج- إن الهدف كما قلنا هو أن نثبت عن طريق تقديم أمثلة، من حقل الدراسات الفلسفية وهو أعلى درجات التجريد- أنه كان للمرأة اسهامات في هذا الحقل المجرد، وبالتالي أن عقلها لا يقل في قدرته عن عقل الرجل، وإنما الأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية، وسيطرة الرجل وطغيانه هي التي منعت هذه القدرة من الظهور، وكما سبق أن ذكرنا في المدخل فإن المثال «السلبي» الواحد- أي الذي يهدم دونية المرأة- يحطم عشرات الأمثلة الإيجابية- فما لك لو كان لدينا مئات من الأمثلة، طوال التاريخ، على قدرة المرأة!

د- أننا بذلك كله نثبت ما أكدته الآية الكريمة عن رجاحة العقل، وسداد الرأي، وقوة الحجة، وبراعة التفكير عند المرأة ممثلة في بلقيس ملكة سبأ، والتي يتغاضى عنها كثير من الرجال. فنحن لا

نخرج أبدا عما جاء به الإسلام، بل نؤكده بشواهد من التاريخ، ونماذج من «النساء.. الفلاسفة في العالمين القديم والحديث».

أما الأمر الثاني الذي نود أن نشير إليه، بإيجاز، في هذه الخاتمة فهو أننا لم نحاول في هذا الكتاب، إجراء حصر شامل لكل «النساء.. الفلاسفة في العالم القديم». وإنما أردنا فقط تقديم نماذج لقدرة المرأة على التفلسف. فلم نذكر، مثلاً، من النساء الفيثاغوريات سوى ثلاث نساء من الفيثاغورية المبكرة، وثلاث من الفيثاغوريات المتأخرة، في الوقت الذي يذكر فيه ميناج G. Menages في كتابه تاريخ الفلاسفة من النساء «ست وعشرين فيلسوفة فيثاغورية». ولم نذكر مثلاً امرأة واحدة من أهل الرواق، مع أنه يذكر أربع نساء رواقيات في الفصل العاشر من كتابه، ولم نذكر شيئاً عن النساء الأبيقوريات، مع أنه يذكر منهن ثلاث! ولم نذكر من النساء الأفلاطونيات سوى امرأة وحدة هي «هيباشيا» فيلسوفة الإسكندرية، مع أنه يذكر منهن سبع نساء في الفصل الثامن، أما الفصل الأول فهو يذكر عشرين فيلسوفة!

ومعنى ذلك كله أننا نقدم نماذج أو شواهد من تاريخ الفلسفة على قدرة المرأة على التفلسف لتكون شموعاً أمام المرأة العربية تنير لها طريق التقدم والازدهار.

مراجع البحث

أولاً: المراجع العربية :

١- د. أحمد فؤاد الأهواني «فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط» عيسى البابي الحلبي، بالقاهرة، عام ١٩٥٤.

٢- إدوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» ترجمة محمد علي أبو درة، ومراجعة أحمد نجيب هاشم- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.

٣- د. إمام عبد الفتاح إمام: «أفلاطون.. والمرأة» العدد الأول من سلسلة «الفيلسوف.. والمرأة»- مكتبة مدبولي ط٢، القاهرة ١٩٩٦.

٤- د. إمام عبد الفتاح إمام: «أرسطو.. والمرأة» العدد الثاني من سلسلة «الفيلسوف..والمرأة»- مكتبة مدبولي، بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٦.

٥- د. إمام عبد الفتاح إمام «الفيلسوف المسيحي.. والمرأة»- العدد الثالث من سلسلة «الفيلسوف.. والمرأة» مكتبة مدبولي، بالقاهرة، الطبعة الأولى عام ١٩٩٦.

٦- د. إمام عبد الفتاح امام «أفكار.. ومواقف» الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، بالقاهرة عام ١٩٩٦.

٧- د. إمام عبد الفتاح إمام: «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي» عالم المعرفة عدد ١٨٣.

٨- د. إمام عبد الفتاح إمام: «مسيرة الديمقراطية.. رؤية فلسفية» دراسة في مجلة عالم الفكر، عدد خاص عن الديمقراطية، أصدره

المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت. العدد الحادي والعشرون عام ١٩٩٣.
٩- أرسطو «الخطابة» ترجمة د.عبد الرحمن بدوى- دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد عام ١٩٨٦.
١٠- أميرة حلمي مطر: «الفلسفة عند اليونان» دار الثقافة، بالقاهرة، عام ١٩٨٦.
١١- أفلاطون «محاورة الجمهورية» ترجمة د. فؤاد زكي الهيئة المصرية.
١٢- أفلاطون «محاورات أفلاطون» ترجمة د. زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر.
١٣- أفلاطون: «المأدبة» ترجمة. د. وليم الميري، دار المعارف بالقاهرة.
١٤- أفلوطين: «التساعية الرابعة» ترجمة د.فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة.
١٥- أوفيد: «مسخ الكائنات» ترجمة. د. ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة، عام ١٩٨٤.
١٦- برتراند راسل: «تاريخ الفلسفة الغربية» الجزء الأول، ترجمة. د. زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة.
١٧- تشارلز الكسندر روبنصن: «أثينا في عهد بركليس» ترجمة.د. أنيس فريحة، مكتبة لبنان عام ١٩٦٦.
١٨- عباس محمود العقاد: «أثر العرب في الحضارة الأوروبية» دار المعارف، بمصر عام ١٩٤٦.
١٩- عبد الغفار مكاوي: «هلدرلين» نوابغ الفكر الغربي، العدد رقم ٢١، دار المعارف بمصر.
٢٠- سارتون (جورج): «العلم القديم والمدينة الحديثة» ترجمة. د. عبد الحميد صبره معاجم ودوائر معارف:
- عبد الرحمن بدوى: «موسوعة الفلسفة» مجلدات المؤسسة

العربية للدراسات والنشر بيروت، عام ١٩٨٤.
- جورج طرابيشي: «معجم الفلاسفة» دار الطليعة، بيروت.
- «الموسوعة الفلسفية المختصرة» بإشراف د. زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية.

ثانياً: المراجع الأجنبية :

1- Peter Gorman: «Pythagoras: A Life» Routledge & Kegan Paul1979, P.120.
2- Diogenes Laertius: «Lives of Eminent Philosophers» Translated by R. D. Hieks, Harvard University Press, 1979, P.27.
3- G. Menages: «The History of Women Philosophers» Eng. Trans. by Beatrice H. Zedler
4- Mary Ellen Waithe: «A History of Women Philosophers» Vol.1. Kluwer Academic Publishers.
5- James Donaldson: Women: «Her Position and Her Influence in Ancient Greece and Rome N.Y.1973.
6- Plato: Menexenus.
7- Thucydides:History of The Peloponnesian War,Eng, Trans. By Rex Warner, 1954. Penguin Classics.
8- The Dialogues of Plato, Vol.1.Trans.By R.E. Allen, Yale University Press.1984.
9- Stanley Rosen: Plato's Symposium, Yale University, 1987.
10- Mary Ellen Waithe: «A History of Women Philosophers», Vol.1 .P. 10
11- Xenophon: Memorabilia of Socrates Book 111,ch x1.

12- A. E. Taylor: Plato: «The Man and His Work Methuen», 1926, P.224.

13- A. E. Taylor: Socrates, Greenwood Pres,1975.

14- Beatrice H. Zedler: «Julia Domna in A History of Women Philosophers» Vol.1.P.117.

15-Ethel M. Kersey: «Women Philosophers» A BioCritical Source Book, Green Wood Press N.Y 1989, P.137.

16- Cornelia W. Walfskeel: Makrina.

17- Plato: Timacus 69 - C.

18- Phaedo, 105 - C.

مؤلفات الأستاذ الدكتور

إمام عبد الفتاح إمام

أولاً- التأليف:

١- المنهج الجدلى عند هيجل «طبعة أولى دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩- طبعة رابعة دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ (العدد الثانى من المكتبة الهيجلية) مكتبة مدبولي بالقاهرة.

٢- «مدخل إلى الفلسفة» طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة عام ١٩٧٢- طبعة خامسة ١٩٨٢- طبعة سادسة مؤسسة عالم الكتب بالكويت عام ١٩٩٣.

٣- «كيركجورد: رائد الوجودية» المجلد الأول (حياته وأعماله) طبعة أولى دار الثقافة ١٩٨٢- طبعة ثانية دار التنوير بيروت ١٩٨٢ العدد الثاني من سلسلة الفكر المعاصر.

٤- «دراسات هيجلية» طبعة أولى دار الثقافة للنشر والتوزيع عام ١٩٨٤- طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ (سلسلة المكتبة الهيجيلية) طبعة ثالثة، مكتبة مدبولي بالقاهرة.

٥- «توماس هوبز: فيلسوف العقلانية» طبعة أولى دار الثقافة للنشر والتوزيع عام ١٩٨٤- طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٨٥- طبعة ثالثة عام ١٩٩٣- طبعة رابعة ١٩٩٦ مكتبة مدبولي.

٦- «تطور الجدل بعد هيجل» المجلد الأول «جدل الفكر» دار التنوير عام ١٩٨٥ طبعة ثانية عام ١٩٩٣ (العدد ٨ من سلسلة المكتبة الهيجلية).

٧- «تطور الجدل بعد هجيل» المجلد الثاني «جدل الطبيعة» دار

التنوير بيروت عام ١٩٨٥- طبعة ثانية عام ١٩٩٣ (العدد ١٠ من سلسلة المكتبة الهيجيلية).

٨- «تطور الجدل بعد هيجل» المجلد الثالث «جدل الإنسان» دار التنوير بيروت عام ١٩٨٥- طبعة ثانية عام ١٩٩٣ (العدد ١٠ من سلسلة المكتبة الهيجلية).

٩- «دراسات فى الفلسفة السياسية عند هيجل» طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة- طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ طبعة ثالثة- مكتبة مدبولى بالقاهرة.

١٠- «كيركجورد: رائد الوجودية» المجلد الثانى: فلسفته- طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة ١٩٨٦- طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣.

١١- «أفلاطون.. والمرأة» طبعة أولى حوليات كلية الآداب جامعة الكويت عام ١٩٩٢، طبعة ثانية مكتبة مدبولى بالقاهرة (سلسلة الفيلسوف والمرأة).

١٢- «رحلة فى فكر زكى نجيب محمود» دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣.

١٣- «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى» سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد ١٨٣-١٩٩٤.

ثانياً- بحوث ودراسات:

١- «المقولات بين أرسطو وكانط وهيجل» ... دراسة بحوليات كلية التربية بجامعة الفاتح بليبيا عام ١٩٧٦.

٢- «مفهوم التهكم عند كيركجورد» .. دراسة بحوليات كلية الآداب- جامعة الكويت عدد رقم ١٣ عام ١٩٨٣.

٣- «الهيجيلية» .. دراسة للموسوعة الفلسفية (المجلد الثانى) معهد الإنماء العربى بيروت.

٤- «الهيجلية الجديدة» .. دراسة للموسوعة الفلسفية (المجلد الثانى) معهد الإنماء العربي بيروت.

٥- «الفلسفة الثنائية عند زكى نجيب محمود» .. عالم الفكر بالكويت المجلد العشرين العدد الرابع يناير ١٩٩٠.
٦- «مسيرة الديمقراطية: رؤية فلسفية» ... مجلة عالم الفكر بالكويت يناير عام ١٩٩٤.
٧- «هيباشيا فيلسوفة الإسكندرية».. مجلة عالم الفكر بالكويت المجلد الثاني والعشرين يونيو ١٩٩٤.

ثالثاً- الترجمة:

١- «الجبر الذاتى» .. رسالة كتبها بالإنكليزية الدكتور زكى نجيب محمود- الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عام ١٩٧٢.
٢- «العقل فى التاريخ».. لهيجل- طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة عام ١٩٧٢، وطبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٨٠- وطبعة رابعة ١٩٩٢ (العدد الأول فى سلسلة المكتبة الهيحيلية).
٣- «روح الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط» .. اتين جلسون- دار الثقافة عام ١٩٧٢.
٤- «فلسفة هيجل» .. تأليف ولتر ستيس المجلد الأول «المنطق وفلسفة الطبيعة» دار التنوير عام ١٩٨٣ وطبعة رابعة عام ١٩٩٣ (العدد الثالث من المكتبة الهيجيلية).
٥- «فلسفة هيجل» .. تأليف ولتر ستيس المجلد الثانى «فلسفة الروح» الطبعة الثالثة دار التنوير عام ١٩٨٣ والرابعة ١٩٩٣ (العدد الرابع من المكتبة الهيجيلية).
٦- «أصول فلسفة الحق» .. لهيجل المجلد الأول طبعة أولى دار الثقافة ١٩٨١- طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٨٣، طبعة رابعة عام ١٩٩٣ (العدد الخامس من المكتبة الهيجيلية)، طبعة خامسة- مكتبة مدبولي بالقاهرة.
٧- «موسوعة العلوم الفلسفية لهيجل» .. طبعة أولى عام ١٩٨٣ دار التنوير بيروت، طبعة ثالثة ١٩٩٣ (العدد السادس من سلسلة المكتبة الهيجيلية) طبعة رابعة- مكتبة مدبولي بالقاهرة.

٨- «العالم الشرقى» .. المجلد الثانى من محاضرات فى فلسفة التاريخ لهيجل العدد التاسع من سلسلة المكتبة الهيجيلية طبعة أولى ١٩٨٥- طبعة ثانية ١٩٩٣.
٩- «الوجودية» .. تأليف جون ماكورى سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد ٥٨ أكتوبر ١٩٨٢- طبعة ثانية دار الثقافة بالقاهرة ١٩٨٧.
١٠- «أصول فلسفة الحق لهيجل» .. المجلد الثانى دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ سلسلة المكتبة الهيجيلية- مكتبة مدبولى بالقاهرة.
١١- «هيجل والديمقراطية» .. تأليف ميشيل متياس- دار الحداثة بيروت عام ١٩٩٠.
١٢- «المعتقدات الدينية لدى الشعوب» .. تأليف جوفري بارندر- سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد ١٧٣ مايو ١٩٩٣.

رابعاً- مراجعة:

١- «الموت فى الفكر الغربى» تأليف جاك شورون: ترجمة كامل يوسف حسين- سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد ٧٦ إبريل ١٩٨٤.
٢- «الفلاسفة الإغريق: من طاليس إلى أرسطو» تأليف وجنري، ترجمة د. رأفت حليم سيف- دار الطليعة بالكويت عام ١٩٨٥.
٣- «الفكر الشرقى القديم»- تأليف جون كولر، ترجمة كامل يوسف حسين- سلسلة عالم المعرفة بالكويت- عدد ١٩٩.

خامساً- التأليف بالاشتراك:

١- «المنطق ومناهج البحث العلمى» للصف الثالث الثانوي بتكليف من وزارة التربية والتعليم بالجمهورية العربية الليبية عام ١٩٧٧.
٢- «دراسات فلسفية» للمستوى الرفيع بتكليف من وزارة التربية والتعليم بجمهورية مصر العربية عام ١٩٩٢.

سادساً- الترجمة بالاشتراك:

١- «أسس الليبرالية السياسية» لجون ستيوارت مل، بالاشتراك مع الاستاذ الدكتور ميشيل متياس المجلد الأول- مكتبة مدبولى بالقاهرة عام ١٩٩٦.

سلسلة «الفيلسوف.. والمرأة»

بإشراف الاستاذ الدكتور إمام عبد الفتاح إمام

١- «أفلاطون.. والمرأة بقلم. د/ إمام عبد الفتاح إمام

٢- «أرسطو.. والمرأة بقلم. د/ إمام عبد الفتاح إمام

٣- «الفيلسوف المسيحى.. والمرأة» بقلم. د/ إمام عبد الفتاح إمام

٤- «نساء فلاسفة».. فى العالم القديم، بقلم. د/ إمام عبد الفتاح إمام

٥- «جون لوك.. والمرأة، بقلم. د/ إمام عبد الفتاح إمام

٦- نساء فلاسفة.. فى العالم الحديث بقلم. د/ إمام عبد الفتاح إمام

فهرس البحث

مدخل عام ٧
الفصل الأول: «فيثاغورس.. ومدرسته» ٢٣
أولاً: نبذة عن فيثاغورس ٢٥
ثانياً: إنشاء المدرسة ٢٩
ثالثاً: الجماعة الفيثاغورية ٣٣
رابعاً: بناء الجماعة وقواعدها ٣٧
خامساً: يوم في حياة الفيثاغوري ٤٥
خاتمة ٤٨
الفصل الثاني: نساء.. فلاسفة من الفيثاغورية المبكرة ٤٩
تمهيد ٥١
أولاً: ثيانو ٥٣
ثانياً: أريجنوت ٥٩
ثالثاً: مييا ٦١
خاتمة ٦٥
الفصل الثالث: نساء.. فلاسفة من الفيثاغورية المتأخرة ٦٧
تمهيد ٦٩
أولاً: إيزارا ٧١
١- حياتها ومؤلفاتها ٧١
٢- نص من كتاب «عن الطبيعة البشرية» ٧٢
٣- طبيعة القانون والعدالة ٧٤
٤- إيزارا .. وسيكولوجيا الأخلاق ٧٦

ثانياً: فينتس الإسبرطية ٧٩
١- حياتها ومؤلفاتها ٧٩
٢- الشذرة الأولى من كتاب «الاعتدال عند النساء» ٧٩
٣- النساء والفضيلة ٨١
٤- النساء والعدالة في المنزل ٨٢
٥- الشذرة الثانية من كتاب «الاعتدال عند النساء» ٨٣
ثالثاً: بركتيوني ٨٥
١- ترجمة نص من كتاب «هارمونيا النساء» ٨٥
٢- الشذرة الثانية من «هارمونيا النساء» ٨٧
٣- برجماتية الأخلاق.. والزوجة المخلصة ٩٠
٤- الجمال الفيزيقي والفساد الأخلاقي للمرأة ٩٠
٥- المثالية في مقابل البرجماتية ٩١
خاتمة ٩٣
الفصل الرابع: «إسبازيا .. معلمة الخطابة» ٩٥
أولاً: حياتها ٩٩
ثانياً: خطاب بركليز الجنائزي ١٠٣
ثالثاً: إسبازيا.. ومحاورة «مينكسيوس» ١٠٩
رابعاً: خطاب «إسبازيا».. الجنائزي ١١١
١- نبالة المحتد ١١١
٢- جودة التربية ١١٢
خامساً: حجتان ضد «مينكسينوس» ١١٥
سادساً: إسبازيا.. وحركة الخطابة السوفسطائية ١١٩
الخاتمة ١٢١
الفصل الخامس: «ديوتيما.. معلمة سقراط!» ١٢٣
أولاً: تمهيد ١٢٥
ثانياً: مأدبة «أجاثون» ١٢٧
ثالثاً: ديوتيما ١٢٩

رابعاً: ديوتيما.. شخصية خرافية ١٣٣
خامساً: ديوتيما.. شخصية حقيقية........................ ١٣٥
سادساً: دليل من الآثار........................ ١٣٧
سابعاً: شهادة مكتوبة ١٤١
ثامناً: نظريات ديوتيما ١٤٥
١ - طبيعة الحب........................ ١٤٥
٢- مولد الحب........................ ١٤٥
٣-ما يؤديه الحب للناس........................ ١٤٧
٤-الحب..أنواع. ١٤٧
٥-كيف يعبر الناس عن الحب ١٤٨
أ-ولادة ما هو جميل........................ ١٤٨
ب-علة الحب والرغبة ١٤٩
جـ- المعرفة ١٥٠
د- السعي نحو الخلود........................ ١٥٠
٦-مدارج الروح في طريق الخلود........................ ١٥٢
٧-غاية الحب........................ ١٥٣
تاسعاً: فلسفة ديوتيما.. وفلسفة أفلاطون ١٥٥
١-الخير .. والجمال........................ ١٥٥
٢-تصور «ديوتيما» للخلود ١٥٦
أ-الخلود.. والهوية الشخصية ١٥٦
ب-الخلود .. ونظرية التذكر........................ ١٥٩
ج- الخلود .. وتناسخ الأرواح........................ ١٥٩
الخاتمة........................ ١٦١
الفصل السادس: جوليا دونا.. أو جوليا الفيلسوفة ١٦٣
تمهيد........................ ١٦٥
أولاً: حياتها ١٦٧
ثانياً: جوليا.. الفيلسوفة ١٧٧

ثالثاً: صالون جوليا الأدبي أو حلقتها الفلسفية............... ١٧٩
رابعاً: السوفسطائيون........................... ١٨١
خامساً: ما هي الفلسفة التي درستها جوليا.................. ١٨٧
سادساً: الفلسفة التي اهتمت بها جوليا..................... ١٨٩
١-أبوللونيوس الطياني............................ ١٨٩
الخاتمة.. ١٩٩
الفصل السابع: «ماكرينا............................ ٢٠١
أولاً: حياتها ومؤلفاتها............................ ٢٠٣
ثانياً: ماكرينا.. والتراث الروحي...................... ٢٠٥
١-وحدة النفس وخلودها............................. ٢٠٥
٢-الزهد أو التنسك................................ ٢٠٦
٣-الغنوصية.... .... ٢٠٨
٤-الغنوصية والمسيحية، ودونية المرأة: ٢١٠
ثالثاً: ماكرينا.. وروح المرأة.......................... ٢١١
رابعاً: ماكرينا.. والخلق، والتجسيد، والقيامة ٢١٥
١-ماكرينا وتراث أفلوطين.......................... ٢١٥
٢-ماكرينا .. وفورفوريوس.......................... ٢١٧
٣-ماكرينا.. وتراث فيلو السكندري ٢١٨
٤-ماكرينا.. ونظريات التجسيد......................... ٢١٩
الفصل الثامن: هيباشيا.. فيلسوفة الإسكندرية ٢٢٣
هيباشيا: الميلاد والنشأة.............................. ٢٢٥
أعمالها: الأنشطة التعليمية............................ ٢٣٧
الشروح ٢٤٣
خاتمة ٢٥١
خاتمة البحث ٢٥٥
مراجع البحث...................................... ٢٥٩
فهرس البحث...................................... ٢٦٩

نساء فلاسفة

وهو العدد الرابع من سلسلة " المرأة في الفلسفة " – دعوة إلى المرأة العربية لتستعيد الثقة بنفسها ، وتنفض عنها غبار السنين الطويلة من الجهل والتخلف . إنه دعوة لنبذ فكرة أرسطو الساذجة التي تزعم " أن عقل المرأة أضعف من عقل الرجل " ، وأن تفكيرها يغلب عليه العاطفة و الانفعال ، أن أحكامها يسيطر عليها الاندفاع والتهور ، وتنقصها الروية والتدبر. فلا الدين يقول شيئاً من ذلك ، ولا العلم يعترف به ، ولا التاريخ يشهد بصحة شيء منه!

وهو يعرض " لنساء فلاسفة .. من العالم القديم ":من الفيثاغورية المبكرة " ثيانو" زوجة فيثاغورس التي تولت رئاسة المدرسة بعد وفاة زوجها ، وأريجنوت ، " وميا " ومن الفيثاغورية المتأخرة "إيزارا ، وفينتس ، ثم إسبازيا ، وديوتيما معلمة سقراط ، وماكرينا ، وهيباشيا فيلسوفة الإسكندرية الشهية ، وغيرهن .

على أن يتلوه ، بإذن الله ، كتاب آخر يعرض لنماذج من " نساء فلاسفة .. في العالم الحديث " من أمثال مارجريت كافنديش ، و كرستينا فازا ، وغيرهن في القرن السابع عشر حتى نصل إلى أسماء لامعة في القرن العشرين من أمثال : ماري وارنوك ، وسوزان ستبنج ، وسوزان لانجر ، وسيمون دي بفوار وغيرهن .

وسوف تشعر المرأة العربية بعد اطلاعها على هذين الكتابين أن ضعف العقل عند الأنثى ليس سوى "خرافة " ابتكرها الرجل ليحكم سيطرته عليها !

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - هاتف: ٠٠٩٦١١٤٧١٣٥٧ تلفاكس: ٠٠٩٦١١٤٧٥٩٠٥
Email: dar_altanweer@hotmail.com
dar_altanweer@yahoo.com

توزيع دار الفارابي